شكوفه آذر

رواية

# إشراقة شجرة البرقوق الأخضر

مكتبة ياسمين

ترجمة :
غسان حمدان

تصميم الغلاف خاح طاهر

بعد هجوم الثوريين المتحمّسين على بيت "هوشنك" وإحراقهم لآلات العزف والكتب وجميع الأشياء التي يعتبرونها ممنوعة، يقرّر مغادرة طهران مصطحباً زوجته "روزا"، وابنيه "سهراب" و"بيتا"، وطيف الابنة الثالثة "بهار"، ليستقرّوا في قرية بعيدة، آملين الحفاظ على حريتهم الفكرية وحياتهم. لكنهم سرعان ما يجدون أنفسهم محاصرين في فوضى ما بعد الثورة الإسلامية الإيرانية 1979 التي تجتاح البلاد.

تتغيّر مصائر أفراد الأسرة جميعهم، وينقسمون بين الألم والذاكرة، بين عالم الأحياء وعالم الأموات، وتتداخل الأزمنة والأحداث والفضاءات الروائية التي ترويها "بهار" مازجةً العنف والوحشية بالتصوف والتأمل والسحر والأساطير، مستحضرةً تقاليد السرد الشفوي لمواجهة القسوة بقوة الخيال.

رواية "إشراقة شجرة البرقوق الأخضر" التي وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة البوكر الدولية عام 2020، هي رحلةٌ رائعة عبر التاريخ والميثولوجيا الفارسية، منسوجةٌ بأسلوب الواقعية السحرية، لتستكشف مصير الأمل والحلم في إيران اليوم.

t.me/yasmeenbook

ISBN 978-9933-641-46-7

9 789933 641467 >

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

شُكوفه آذر

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

# إشراقة شجرة البرقوق الأخضر

رواية

ترجمها عن الفارسية:

غسان حمدان

إشراقة شجرة البرقوق الأخضر - رواية
تأليف: شُكوفه آذر
ترجمها عن الفارسية: غسان حمدان

اشراق درخت گوجه سبز
شكوفه آذر


تصميم الغلاف: نجاح طاهر
ISBN: 7 - 46 - 641 - 9933 - 978
الطبعة الأولى: 2021



مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 6133856 11 963+
جوال: 557195187 971+
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House
twitter.com /AdwanPH

دار سرد للنشر
جوال: 81756938 961+
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com /Sard.Publishing
twitter.com /SardPublishing



Copyright © 2017, Shokoofeh Azar
First published by Wild Dingo Press Australia PTY LTD
This edition arranged with The Rights Hive

This project has been assisted by
the Australian Government through the Australia Council,
its arts funding and advisory body

Australian Government

Australia Council for the Arts

إلى جميع الأموات والأحياء الذين أعرفهم!

نحن لسنا أوّلَ من يدمّر نفسه بنفسه، مع المدينة التي
كانت كلّ أسباب السعادة متوفّرة فيها.

**«كتاب تاراج نامه، بهرام بيضايي»**

# الفصل الأول

تقول بيتا إنه في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين تماماً من اليوم الثاني والعشرين من شهر مرداد عام 1367(*)، وصلت أمّي إلى الإشراق(**) على قمّة أعلى شجرة برقوق أخضر في البستان، على تلٍّ يطلّ على جميع نوافذ المنازل الريفية البالغ عددها ثلاثةً وخمسين منزلاً، حيث كانت أصوات اصطكاكات القدور وأواني القلي في ظهيرة كلّ يوم تخرجنا من حالة الملل وتزعج قيلولتنا. في اللحظة ذاتها تماماً التي أعدموا فيها سهراب وهو معصوب العينين وقد قُيِّدت يداه، بحبلٍ يتدلّى من المشنقة؛ من غير محكمة ولا محاكمة، ودُفن في الصباح الباكر مع مئاتٍ من السجناء السياسيين الآخرين، في قناة طويلة في صحراء جنوب طهران بشكل جماعي. وقد دُفِنوا دون أن تكون هناك أيّ علامة تدلّ عليهم، حتى لا يأتي أحدٌ من أقاربهم ويرفع حصاةً صغيرة ويضرب على قبورهم برفق قائلاً: «لا إله إلا الله!».

---

(*) التقويم الفارسي: تقويم هجري شمسي، يُعتبر أدق التقاويم المعمول بها على وجه الأرض حالياً، ورغم ذلك فإنه غير معتمد إلا في إيران. وقد فضّلنا ترك التواريخ في الرواية بحسب هذا التقويم. علماً أن التاريخ المذكور هنا يوافق: 13 أغسطس 1988 ميلادي. (م).

(**) أو التنوير، وهو مصطلح صوفي يعني ظهور الأنوار الإلهية في قلب الإنسان. (م).

وتضيف بيتا إنّ أمي نزلت من أكبر شجرة برقوق أخضر، واتجهت صوب الغابة دون أن تنظر إليها، فقد كانت تملأ تنّورتها بثمار البرقوق الحامض، ثم قالت: «إن الأمر ليس كما كنت أعتقد حتى الآن». حاولت بيتا أن تستجوبها وتستفهم منها ما الذي كانت تعنيه؛ إلا أن أمي سارت صوب الغابة بخُطا ثابتة ونظرة خاوية كالممسوسين، مثل أولئك المصابين بحمّى الغابة -كنت أسمّي هذه الحالة «سحر الغابة»- وتسلّقَت أعلى شجرة بلّوط، وجلست ثلاثة أيام بلياليها على أعلى أغصانها تحت قيظ الشمس وبرودة المطر والقمر والضباب، وراحت تنظر بعينين مذهولتين، إلى الحياة التي لم يسبق لها أن رأتها قبل ذلك.

لمّا وصلت إلى أعلى غصن شجرة البلّوط بالضبط، جلست تنظر للمرة الأولى من ذلك العلوّ إلى حياتها، وإلى الحياة المعقّدة لهؤلاء الناس البعيدين والقريبين، وإلى أحداث ذلك المنزل الكبير المكوّن من خمس غرف نوم، في ذلك البستان الذي تبلغ مساحته خمسة هكتارات، وإلى رازان، وطهران، وإيران، وفجأةً الكوكب كلّه وكائناته، عادت بيتا ركضاً إلى المنزل وقالت إن والدتها لم تتخلّص من جنون اليراعات المضيئة بعد، وباتت تعاني من جنون المرتفعات. في البداية، لم يأخذ أحدٌ جنونها الجديد على محمل الجدّ، ولكن عندما تجاوز الوقت منتصف الليل ولم يصلنا أيّ خبر عن أمي، نهضت أنا أولاً ثم أبي وبيتا ممسكين بالفوانيس، وجلسنا تحت الشجرة وأشعلنا النار، ووضعنا عليها الإبريق حتى تملأ رائحة الشاي جوّ غابة هيركاني(*) -الغابة الوحيدة المتبقّية من العصر الجوراسي- وتغري أمي. وصلت رائحة الشاي الشمالي المُعدّ

---

(*) تقع غابات هيركاني في شمال إيران بمحافظة مازندران، وهي تمتد على 850 كيلومتراً على امتداد الساحل الجنوبي لبحر قزوين من شمال غرب مدينة «آمل» حتى حوالي مدينة «جرجان» شمال شرق إيران بمحافظة گلستان. (م).

على الفحم، إلى أنف أمي في أثناء مرورها بمجرّة درب. التبّانة، وهي ترى النجوم والكواكب التي كانت تدور بعضها حول البعض الآخر بترتيبٍ مذهل، وفي كلّ دورة لها تخرق فضاءً كان العلماء يبحثون بيأس عن أثر الربّ فيه. وعندما جلست في ذلك العلوّ على غبار النجوم، ونظرت إلى الأرض التي كانت بحجم رأس إبرة، توصّلَت مرة أخرى إلى النتيجة ذاتها التي توصّلت إليها صباح اليوم في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين؛ وهي أنّ «الأمر لا يستحقّ هذا العناء على الإطلاق». وأنّ هذه الحياة ليست الشيء نفسه الذي كانت تتصوّره. فالحياة هي تماماً الشيء الذي تحاول هي والآخرون قتله بشكل خارقٍ ومذهل في أيّ لحظة؛ أي في اللحظة نفسها، اللحظة التي تحمل الماضي والمستقبل في رحمها، تماماً مثل الخطوط الموجودة على كفّ اليد، أو على ورقة الشجرة، أو في بؤبؤَي عينَيْ زوجها هوشنك.

قرابة الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي، استيقظنا أنا وأبي وبيتا، وفي ضباب الصباح الكثيف رأينا آخر الثعالب تعود إلى أوكارها من صيد دجاج رازان وديَكَتها، وسمعنا صوت جناحَيْ طائر الهدهد بالقرب منا. عادت أمي مع أصوات آلاف العصافير من تجوالها وطوافها حول الكواكب والنجوم، وفوق المدن والقرى والجزر والقبائل، إلى أعلى غصن شجرة البلّوط في الغابة مرة أخرى، فرأت قنفذاً وقد كوّر نفسه وتدحرج ناحية منحدر الغابة بعدما تحرّك أبي. وبالتزامن مع ذلك الحدث استقررنا جميعاً في أماكننا، نحن حول النار، وأمي فوق الغصن، وسهراب داخل الحفرة بجانب مئات الجثث الأخرى. إذ كان مسؤولو الإعدام مشغولين بعمليات الإعدام الجماعي لدرجة أنهم لم يتمكّنوا من دفن الجثث في أماكنها وفق برنامج وُضع مسبقاً. وقد كان هؤلاء

من المحظوظين، ففي الأيام التي تلت ذلك زادت الإعدامات، لدرجة أن الجثث المكوّمة في الفناء الخلفي للسجن كانت تفوح منها رائحة، والتفّ حولها نملُ إيفين وذبابها وغربانها وقططها، إذ إنها لم ترَ مثل هذه الوليمة منذ بناء هذا السجن، فراحت تلعق الجثث بنَهَمٍ وتمصّها، وتنتف قطعاً من الأجساد بشراهة. وقد مُنح السجناء السياسيون الأصغر سناً، الذين لم يبلغوا السنّ القانونية بعدُ، فرصةَ العفو من قبل الإمام، فكُلِّفوا بإطلاق رصاصة الرحمة على الذين أُعدِموا. فراحَ مئاتٌ من الأطفال -تتراوح أعمارهم بين ثلاث عشرة وأربع عشرة سنة، وكانت جريمتهم الوحيدة هي المشاركة في اجتماعات الحزب وقراءة المجلّات والنشرات الممنوعة، أو توزيع المنشورات في الشوارع- راحوا يطلقون الرصاص، وقد أُصيبت وجوههم بكدمات وارتعشت أياديهم وابتلّت سراويلهم، على وجوهٍ كانت لا تزال تنظر إليهم بأعين زائغة.

كانت الفوضى عارمة في كلّ مكان، وأصيب الجلّادون بالجنون واحداً تلو الآخر من رائحة الموت الكريهة في المستودع، فنُقِلوا إلى مستشفى المجانين العسكري مباشرة، حيث اختفوا أو قُضيَ عليهم بالترتيب فرداً فرداً بعد أشهر عدّة. ومنذ السابع من شهر مرداد عام 1367(*)، عندما بدأت السلسلة الأولى من إعدامات أعضاء مجاهدي خلق والشيوعيين المسجونين، حتى نهاية الشهر الذي يليه من العام ذاته، شُنق أكثر من خمسة آلاف شخص في طهران وكرج ومدن أخرى، أو وقفوا أمام فرق الإعدام وأُطلقت النار عليهم. ثلاثة جنود فقط من أبناء المحافظات لم ينفّذوا أمر «إطلاق النار»، فظلَّ جثمان كلٍّ منهم، إلى جانب جثث الآخرين، مصحوباً بثلاث رصاصات إلى الأبد. ومن بين عشرات سائقي الشاحنات المبرّدة،

(*) يوافق: 29 يوليو 1988 م. (م).

الذين كانوا ينقلون الجثث إلى صحارى نائية خارج المدينة، نُقل أربعة إلى المستشفى في النصف الثاني من الشهر. إذ ظلّت رائحة الجثث النتنة في أنوفهم، حتى ظنّوا أن هذه الرائحة ترافقهم أينما ذهبوا وتفضح أمرهم، وراحوا يشكّون في أن زوجاتهم يشممن هذه الرائحة، ولكنّهن لا يكشفن عن ذلك إما من باب الشفقة أو الخوف. كانوا يخافون من نظرات الشكّ المريبة للناس في الطوابير الطويلة لقسائم الطعام أو الخبز والحليب المبستر. كان أحدهم يتطيّرُ من الغربان ويشكّ فيها، وحسبَ أنه أينما ذهب، طاردته الغربان السوداء، التي راحت تزداد أكثر فأكثر كلّ يوم حول قنوات دفن الجثامين. كان يشعر بالغربان على جدران المنازل، وعلى أعمدة الإنارة وفوق المدينة، وشعر أن الجميع يُطارده بسبب رائحة جسده الكريهة، للقضاء عليه في الوقت المناسب.

أُصيب اثنان من مأموري فرقة إعدام السجناء السياسيين في براري خارج المدن، بإطلاق الرصاص من الخلف بعد هروبهما من مكان عملهما. وفي غضون ذلك، رُقّي المئات من الجلّادين وسائقي شاحنات الجثث الفاسدة لـ«أداء عملهم بشكل جيد»، فأصبحوا من قادة الحرس الثوري، أو محقّقين، أو رؤساء بلديات، أو منفّذين للعقوبات، أو مسؤولي أقسام السجون.

عندما قال أبي بصوته المفعم بنشاط الصباح إن الوقت قد حان لتناول الشاي مع خبز الكنداك(*)، كان متأكّداً من أن أمي لن تتخلى عن جنونها الجديد بهذه الكلمات. لهذا السبب أضاف على الفور: «إذا ورثنا شيئاً واحداً صحيحاً من أسلافنا، فهو هذا الجنون ذاته. جنون الأشياء الجديدة؛

(*) خبز حلو الطعم خاص بمحافظة مازندران.

وجنون الأشياء المستحيلة». ثم ازداد الضباب الصباحي، أكثر فأكثر، وابتلَعَنا نحن الثلاثة بفوانيسنا والنار وإبريق الشاي، لإعطاء والدتي فرصة جديدة لا تعرف الكلل، للسفر والسياحة في العالم الذي أدركت فيه للتوّ أن الأرض بكلّ عظمتها ودولها وأديانها وكتبها وحروبها وتصريحاتها الثورية وإعداماتها وولاداتها وشجرة البلّوط هذه، ليست أكثر من رأس إبرة ضمن هذا الكون.

شاخت أمي فجأة في سن الرابعة والأربعين، واشتعل رأسها بالشيب، وقد صاحت بيتا، وكانت أول من رآها في المنزل بعد ثلاثة أيام: «لقد جاءت عجوزٌ ذات أربع وأربعين سنة»، فأسرعنا أنا وأبي راكضين حتى نرى أمي، وكانت قد استقرّت على الأريكة في غرفة الضيافة، وراحت تقلّم أظافر يدها اليسرى بالمبراة في هدوء عجيب.

إشراقة أمي على الشجرة التي طالت ثلاثة أيام فتحت ذهني فجأة؛ كانت أمي على الشجرة وقد بدأت للتوّ في تقليم أظافر يدها اليمنى، في حين أنني كنت قد انتهيت من جمع كتبي من خزانة المكتبة. ابتسمتُ لهم جميعاً وقلت إذا لاحظتم أشياء مفقودة أحياناً من المنزل فاعلموا أنني أخذتها. ثم دون أن أنظر ورائي، ذهبت إلى مكتب أبي، أمام عينَي بيتا المذهولتين ونظرة أمي المتعلّقة بالعالم الآخر وابتسامة أبي المعتادة، وأخذت الأدوات اللازمة لي من مسمار ومطرقة ومنشار ومنجل. ولقد استغرق الأمر مني خمسة أيام لبناء منزلي على الشجرة كما أردت، أي بعيداً عن أعين الآخرين وفي أعلى نقطة على أطول شجرة بلّوط في الغابة. الشجرة ذاتها التي كانت قبل ساعةٍ مضت معراجاً لأمي، كان منزلي بنافذة مواجهة لشروق الشمس وبابٍ مواجه للغروب، وشرفة صغيرة مقابلة للمنزل وسلّم من الحبل؛ ويغطي السقف بالكامل قماشٌ مشمّع فوق

الأغصان والأوراق حتى يُصدر في الليالي والأيام الممطرة الصوت نفسه الذي لطالما أحببته عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري.

قبل أن يُسجن سهراب كان المشمّع الكبير يُفرش كلّ صيف على أرضية المستودع والأرفف الخشبية الموجودة هناك، لتربية دودة القزّ حتى تقضم أوراق التوت طوال أسبوعين بلا توقّف، كي تحيك الشرانق وتحلم بالتحوّل إلى فراشات؛ لكنْ فجأةً يجري سلقُها في قدورٍ كبيرة ملأى بالماء المغلي، وتُخنَق لغزل خيوط الحرير من شرانقها البيضاء. لم يكن بمقدور أحد شراء هذه الخيوط سوى بعض بائعي السجّاد الأثرياء في أصفهان وكاشان ونائين، الذين كانوا يعطون هذه الخيوط لنسّاجي السجّاد الفقراء الذين لا تتاح لهم الفرصة للخروج طوال النهار من أقبية منازلهم الرطبة ولا للحظة لتحية الشمس، ولم يكونوا يجيدون سوى عمل واحد وهو نسج حلم دودة القز.

وبينما كان أبي يجلس على الأريكة الخضراء أمام أمي وينظر إليها وهي تقلّم أظافرها بالمبراة، منقطعةً عما يجري حولها، راح يفكّر في أنه رغم كونه عازف «تار»(*) ماهراً، ومبتكر تربية دود القزّ في العائلة، والوريث بلا منازع للقدرة على مقابلة الكائنات الماورائية، إلا أنه لم يحظَ بفرصة لرؤية أمي وهي تطير.

عندما رأى أبي أمي أول مرّة على منحدر جبل دربند، كانت قد أتمّت لتوّها السابعة عشرة من عمرها وتمرّ في حالة من الحب المستحيل؛ الحب الذي جعلها قادرة على الطيران للمرّة الأولى والأخيرة فوق شارع ناصر خسرو، وفوق رؤوس المارة وبائعي الكتب المستعملة. وقبل ستة أشهر

---

(*) آلة موسيقية تشبه العود، ذات وتر أو اثنين أو حتى ثلاثة. (م).

فقط من لقائها به كان لها موعدٌ أكثر إثارة ولكن دون مصيرٍ حاسم. كان مثيراً لدرجة أنه من تلك اللحظة فصاعداً وحتى آخر عمرها، لم تعُد تنهيدتها تبدو كأيّ تنهيدة أخرى. تنهيدة طويلة ممتطّة وعميقة ومخفيّة نوعاً ما، ولكن ليس لدرجة ألّا ينتبه أبي إليها طوال هذه السنوات. عندما رآها في أول موعد غرامي، وقد كان في الخامسة والعشرين من عمره، وقع والدي في حب والدتي روزا لدرجة أنه لم يعد يتمالك نفسه؛ وفي نهاية ذلك اليوم حين أمست ليلة مضبّة من ليالي «دربند» الخريفية، عقد عليها أبي في حضور معمّمٍ عابر كان يهبط منحدر الجبل وهو يحمل فانوساً خوفاً من أوهام الظلام والضباب، ويترنّم بدعاء ما. وعندما استلم المعمّم العابر مبلغ عشرين تومان إكراميةً له، لم يبقَ ليتمتّع بمشاهدة قبلة الحب الأولى بين هذين الزوجين الشابين. وضع أبي ثمرة قرانيا أوروبية ذات طعم حامض في فم أمي، وقال لها: «هيّا بنا نذهب لأعرّفك على عائلتي!».

مع كل الصفات الغريبة لوالدَي، إلا أنّ الشخص المفضّل لديّ في العائلة هو عمّي خسرو. عندما كنت في خضمّ بناء العرزال الخاص بي، تذكّرت أن لديه القدرة على تحويل أيّ عمل إلى طقوس صوفية. كان الطفل الأوسط بين ثلاثة أطفال، وُلد كلٌّ منهم بفارق ثلاث سنوات عن الآخر؛ وحتى ذلك الوقت، كان قد أثبت أنه أفضل وريث للجنون الوراثي في الأسرة. حتى إنه خلال تلك الفترة خاض عاماً واحداً من الاعتقال السياسي في عهد محمد رضا شاه، وعامين من السجن في عهد الخميني، وزواجاً وطلاقاً، وثلاث سنوات من الإقامة الطوعية في المنزل من أجل قراءة تسعة وسبعين كتاباً من كتب تصوّف الهند والشرق الأقصى، وتعلّم اللغة السنسكريتية، والنوم لثلاثة أيام بلياليها في قبرٍ فارغ في التِّبت وهو يقرأ أوراد الكتاب المقدّس «ودا»، وكذلك الارتفاع بمقدار مترٍ واحد

عن سطح الأرض في أثناء التأمّل، و«المديتشين» الخاص بتعاليم أوشو، وأخيراً قضاء شهر كامل على متن قارب خشبي على بحيرة في سيبيريا بأمر من أحد الشامانات.

عندما كنت أحني فرعاً من فروع أحد جدران غرفتي، تذكّرت جنون العمّ خسرو؛ فتملّكتني لحظة يأسٍ عميق، لأنني تساءلت كيف يمكن أن يبقى شيءٌ جديد في هذا العالم بوجوده. كان عليّ أن أنتظر مجيء العمّ خسرو، لأنه مهما كان، فإنه من المحتمل أن يفهم حال أمي جيداً أكثر من الآخرين؛ فقبل كلّ شيء كان مستكشفاً ذا خبرة خلافاً لنا نحن المستكشفين المبتدئين.

وفي أثناء بناء العرزال والتفكير في أعمال العم خسرو، وقضية إشراقة أمي ومعراجها المفاجئين فوق أشجار البرقوق الخضراء والبلّوط، هطلت أمطار صيفية مفاجئة لثلاثة أيام بلياليها، ولولا بيتا التي هبطت مثل الملاك بتلك المظلّة البرتقالية وتنّورتها ذات الثنيات الزرقاء، وأخذتني إلى المنزل، لكِدتُ أتحوّل تحت الأمطار إلى زاحف ذي حراشف يقضي حياته يقتات على الطحالب والفواكه المتعفّنة وحزازيات الأشجار. في مساء اليوم الخامس، مع صمت البستان وانتظار مجيء العم خسرو أو سماع أيّ خبر من سهراب، أخيراً انتهيت من بناء العرزال الخاص بي.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

# الفصل الثاني

يقال إن البشر دائماً ما ينتظرون شخصاً ما، ولكن في النهاية، الشخص الذي يأتي لا يكون من كانوا ينتظرونه. والآن عمّتي الأربعينية توران، مع أطفالها الستة صغاراً وكباراً، يلهثون وهم في طريقهم صعوداً إلى أعلى تلّ البستان؛ ولا يلاحظون مراقبتي لهم من نافذة غرفتي في الغابة، الغرفة المختبئة بين أوراق شجرة البلّوط الكثيفة وأغصانها. تزوّجت العمّة توران في سنٍّ مبكرة للغاية -كانت ذات سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً- برجلٍ في الأربعينيات من عمره من عائلة أصفهانية عريقة؛ وبلا إطالة في قصتها، أنجبت طفلاً تلو الآخر. والآن، وقد زاد وزنها خمسين كيلوغراماً على الأقل، راحت ترفع نفسها مثل حيوان يشخر؛ ويزحف خلفها أطفالها الستّة البليدون والكسالى، ويقفزون مثل قطار منهك، ويتشبّثون بعضهم بالبعض الآخر، وفي الوقت نفسه يُخرجون ألسنتهم ويستهزئون خلف العمّة، ويكسرون الأغصان ويأكلون الثمار ويدوسونها. كانوا جميعاً يصعدون التلّ مثل وحش بستة رؤوس ويدمّرون البستان في جزء من الثانية. وبيتا، التي عادة ما تكون تحت إحدى أشجار البرقوق الأخضر، رأتهم أخيراً، وركضت نحوهم صارخة لتستقبلهم من جهة، وتبلغ أهل المنزل بصراخها

وصيحاتها من جهة أخرى أن العمّة، التي كان الجميع يتمنّى ويدعو الله عند رؤيتها أن تغادر فوراً، قد جاءت.

خرج أبي وأمي من تلك الزاوية من المنزل المكوّن من خمس غرف نوم، وراحت أمي تفكّر فوراً في طعام لسبعة أشخاص إضافيين، في حين فكّر أبي أن عليه أن يقفل مكتبه. وتساءلت بيتا مع نفسها أين يجب أن تخفي ثوبها الوردي وحذاءها، وأشياءها الخاصة بالباليه، ورحتُ أنا أفكّر في إخفاء بقايا متعلّقاتي في المنزل. كما اتضح من العمّال الثلاثة المحليّين الذين كانوا يجرّون خلفهم الحقائب الثقيلة وهم يصعدون، أن البستان بات الآن تحت تصرّفهم لمدة طويلة. لم يكن الأطفال قد وصلوا إلى الفناء والمنزل بعد إلا أنهم قد خلّفوا وراءهم الكثير من الدمار والفوضى، فوبّخت العمّة توران صبيانها وبناتها بأقذع الشتائم، لعلّها تتمكّن من دخول منزل المضيف باحترام. ولم تكن قد اجتازت الفناء بعد حتى بدأت تروي عناوين الأخبار المهمّة للعائلة الكبيرة في طهران بأدقّ تفاصيلها، من غير أن تعلم أن أبي وأمي -بسبب اعتقال سهراب- لم يكونا متحمّسين على الإطلاق لسماع مثل هذه الأخبار التي لا تنتهي.

شهريار (حفيد عمّ جدّ أبي) الحاصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد، الذي بات يعمل سائقاً على طريق طهران-أصفهان، بعد أن طُرد من الجامعة بعد الثورة الثقافية بسبب أفكاره الاشتراكية، قد تسبّب كعادته بحادث سير، وتوفّي ركّاب سيارته الأربعة على الفور، وبقي هو على قيد الحياة. كانت هذه هي المرة الخامسة التي يحوم فيها الموت حول حفيد عمّ جدّ أبي، من دون أن يُلحق به الأذى. أفادت العمّة توران أنه ذات يوم بعد هذا الحادث، وصل شهريار إلى أصفهان فرأى أن أحد الركّاب لم ينزل، وراح ينظر إليه بلا مبالاة في المرآة، وما إن رأى شهريار الوجه

البارد الهادئ لذلك الرجل الذي يرتدي ملابس سوداء، حتّى تعرّف إليه على الفور، لذلك لم يقل شيئاً وأخذ ركّاباً من أصفهان مرة أخرى وعاد إلى طهران. وعندما نزل جميع الركّاب في المحطة منتصف الليل، لم ينزل الراكب ذو الملابس السوداء مجدداً، فنظر إليه شهريار في المرآة وقال: «من الواضح أنني وصلت إلى نهاية الطريق، يا سيّدي!»، وقدّم مفتاح السيارة للرجل؛ فقال الرجل ذو الثياب السوداء: «من الواضح أنك عرفتني!». وأضافت العمّة توران إن شهريار قد أجابه: «من كثرة ما فكّرت فيك من الصباح حتى المساء ومن المساء حتى الصباح، فما إن وقع ناظري عليك حتى عرفتك».

بينما تمشي، لاحظت العمّة توران بنظرة واحدة إلى وجه أمي وأبي أنه لأول مرة تجذب كلماتها انتباههما، فقطعت كلامها بخبث، وقالت: «دعاني أختصر كلامي لكما... لقد اعتقد شهريار أن الموت جاء ليقبض روحه؛ ولكن يا للهول! إنما جاء ليُريح باله ويقول له ألّا تقلق كثيراً. فلا شأن لي بك».

وأردفت العمّة، التي كانت تبلغُ من الوزن مئة وعشرين كيلوغراماً، وهي تجتاز الفناء، أنه بعد هذا الحادث، لم يتجرأ أحد في العائلة على ركوب سيارته ولو دقيقة واحدة؛ فقد كان من الواضح أنه قد أبرم صفقة سرّيّة مع عزرائيل. وتابعت أنه على الرغم من انفصال زوجة شهريار عنه وأخذ أولاده منه، بسبب حظه السيّئ وخوفها من أن ترتد آهات الناس عليهم وتحرقهم، إلا أن شهريار لم يكن يهتم بالأمر وراح يقول إنه قد كُتب موت كلّ شخص على نحو مختلف عن الآخرين.

كانت العمّة قد روت ما حدث بشكل صحيح، ولكنها لم تعرف الكثير من التفاصيل؛ فعلى سبيل المثال، لم تكن تعلم أن شهريار لجأ إلى معاقرة

الخمر بعد الاكتئاب الشديد الذي أصابه نتيجة طرده من الجامعة. وعندما رأى أن الرجل لم يخرج من سيارته، وضع قدمه على دوّاسة الوقود وذهب إلى مرتفعات شهران(*)، تلك الأعالي التي تتألق فيها أنوار طهران مثل الألماس. وعندما تأكّد من عدم وجود أحد في الجوار، أخرج قدحين صغيرين وقارورة عرق من تحت الكرسي -كان لا يزال جالساً خلف عجلة القيادة فيما الشخص الغريب يجلس على المقعد الخلفي- ملأ القدحين وأعطى أحدهما للرجل قائلاً: «نخب القدر الذي لا يمكن إعادة كتابته!»، ثم، وقبل أن يتمكّن الرجل من فتح فمه، تجرّع شهريار القدحين الأول والثاني، واستدار للرجل مضيفاً: «والآن أنا جاهز تماماً يا سيدي!»، فارتشف الموتُ، الذي أحب شهامة شهريار ومزاحه، العرقَ ثم استمع إلى شهريار الذي كان يقول: «لطالما أحببت أن أموت في هذه البقعة بالضبط، حيث تكون طهران بكلّ بشاعتها وجمالها تحت قدمي». ثم صمت هنيهة وأضاف: «والسبب الآخر الذي جعلني أفضّل الصعود هنا هو أنني رغبت في التجوّل لساعات بين البيوت الكثيرة كي أجد بيت المرأة التي أحببتها». وانفجر ضاحكاً ثم تابع: «ولكن بعد سنوات من التحديق إلى إضاءة مصابيح البيوت وانطفائها وتفكيري في الحب، أدركت أخيراً أنه لم تكن هناك امرأة في حياتي قطّ كي أقع في غرامها». ولكن الموت الذي كان قد جاء حقاً ليقبض روح شهريار، قال لنفسه دع الرجل يتسلّى في آخر لحظات حياته؛ لذلك طلب إليه أن يعطيه قدحاً آخر. وما إن سمع شهريار هذا حتى ضحك، ونهض من مكانه وذهب كي يحضر من صندوق السيارة الخلفي حاوية العرق علامة الكلب التي تتسع لأربعة لترات، والتي كان قد

(*) منطقة جبلية في شمال غرب طهران، تحدّها الغابات من جهة والسهول من جهة أخرى، وتُعدّ من المناطق المفضّلة للاصطياف. كما أنها المكان المفضّل لهواة رياضة ركوب الدراجات النارية وقيادة الطائرات الشراعية والتلفريك. (م).

خبّأها في مكان الإطار الاحتياطي، ودون أن ينبس ببنت شفة، شرب كلٌّ منهما نخب نديمه، وضرب كلٌّ منهما قدحه بقدح الآخر لدرجة أنهما ثملا كثيراً، ثم ركضا صوب الجبال في الظلام وتجرّدا من ملابسهما، وأرجحا سرواليهما الداخليين على إصبعيهما وراحا يرقصان ويغنّيان. وبينما كانت طهران تخلد إلى النوم تحت أقدامهما مع كل أولئك الملالي والأثرياء وعناصر البَسيج(*) والبغايا والسجناء السياسيين والعشّاق والمشرّدين مفترشي الأرض والشعراء، باعد كلٌّ منهما بين ساقيه قليلاً وشرعا يتبوّلان على طهران. ثم أظهر كلٌّ منهما للآخر حجم قضيبه وضحكا؛ كانا في حالة سكرٍ شديدة لدرجة أنهما سقطا على الأرض وخطفهما النوم. وبعد بضع ساعات، عندما داعب نسيم الفجر المنعش جسديهما، استيقظا من النوم؛ واعترف الموت، الذي كان لا يزال يشعر بالصداع بسبب طعم العرق المرّ، بأنه لم يستمتع منذ زمن بعيد مثلما فعل ليلة أمس. ثم أخبر شهريار أنه من الأفضل لهما أن يعودا؛ وعندما نزل في ساحة شميران، دفع أجرته على الرغم من رفض شهريار المتكرّر، وطلب منه ألّا يقلق من الموت بعد الآن! ثم ابتعد وهو يترنّح ثملاً على منحدر شارع شريعتي في ظلام الشفق، وكان لا يزال يضحك بصوت عالٍ ويلامس قضيبه الذي أدرك أنه أصغر بكثير من قضيب شهريار.

والآن أشعلت العمّة توران سيجارة، وراحت تروي قصة حفيدة عمّتها «شكوفه» التي تركها خطيبها شهرام وسافر إلى الولايات المتحدة، فنامت ذات ليلة واستيقظت بعدها بثلاثة أيام وسألت بذعر: أين شهرام؟ وعندما أدركت أنها كانت نائمة لثلاثة أيام بلياليها، وأنها قد نسيت تماماً أن خطيبها

---

(*) قوّات شبه عسكرية وتعني قوّات تعبئة الفقراء، أو الجيش الشعبي التابع للحرس الثوري. وتتكوّن من متطوّعين موالين للنظام. (م).

هجرها منذ فترة طويلة، شعرت بالخوف. وعندما نامت مرة أخرى في تلك الليلة استيقظت بعد شهر، ولمّا أفاقت سألت مرة أخرى بذعر: أين شهرام إذاً؟ وهذه المرة عندما أدركت أنها كانت نائمة شهراً كاملاً، وأن ذاكرتها باتت أقصر من ذي قبل، صارت تخشى النوم لدرجة أنها جرحت إصبعها بسكّين، وراحت تسكب الملح في عينيها كلّ ليلة حتى لا يغلبها النعاس، ولكن في النهاية وبعد أيام من السهر، نامت، وقد مضى حتى اليوم ستة أشهر وثلاثة عشر يوماً، ولم تستيقظ بعد لكي تسأل بذعر: أين شهرام؟

تنهّدت أمي وتنهّد أبي إشفاقاً على تلك القريبة، وأمسكا العمّة من تحت إبطيها واصطحباها إلى تحت مروحة سقف غرفة المعيشة التي كانت تصدر صريراً وتنقل حرارة ظهيرة الصيف المحتدم، من دون أن تُبرّد الجوّ. وبهذه الأحداث المشؤومة الصامتة لذلك الصيف اللعين التي لم يكن لها أي مثيل في الذاكرة الواعية واللاواعية لأيّ فردٍ ما زال على قيد الحياة من أفراد هذه العائلة، كان الهواء قد أعلن الحداد في صمت تام. حتى إن العمّ خسرو، الذي لم يكن لديه في هذه الأيام ما يفعله سوى قراءة كتب التاريخ لكي يستطيع ربط الأحداث العائلية بالمناسبات التاريخية، والكتابة عنها في سلسلة نسبها، لم يواجه مثل هذه المجزرة الجماعية في أيّ سطر من الكتب المتعلّقة بآخر مئتي عام مثلما وجد في تلك السنة.

منذ أن انتقلت عائلتنا المكوّنة من خمسة أشخاص، بعد تلك الحادثة، من طهران إلى هذا البستان الذي تبلغ مساحته خمسة هكتارات، في إحدى قرى مازندران النائية، كانت العمّة توران أول شخص من العائلة يستطيع أن يصل إلينا. حتى الآن لا أحد يعرف ولا يمتلك جرأة أن يسأل: كيف؟ لأنها ستقول على الفور: «إن كنا نضايقكم، فلنعدْ!». بالطبع، لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً بالنسبة لنا جميعاً لنكتشف سرّها، على الرغم من أن ذلك

كان متأخراً جداً. فبعد أسبوعين من وصولها المفاجئ هذا، اختفت فجأةً عن أعين الجميع في يومٍ مشمس حارّ، عندما ذهبت هي وأطفالها الستّة للسباحة في بركة صغيرة وسط الغابة.

من بين عائلتنا كانت بيتا التي تحب السباحة والعوم، معهم في الماء؛ ولكن عندما تبخّرت مياه البركة والأفراد السبعة جميعاً معاً وطاروا في الهواء، وجدت بيتا نفسها على طِين أرضية البركة تتخبّط برأسها ووجهها الموحلين، وراحت تفتح فمها وتغلقه وتقول: ماء.. ماء.. ماء.. مثل أسماك صغيرة محاطة بالماء الآسن وهي تحتضر.

في ذلك اليوم رأيتُ الجميع مرعوبين بسبب الأحداث العجيبة التي وقعت لهذه العائلة؛ صرخت بيتا وهرولت إلى حضن أمي. بينما ظلّت أمي تحدّق إلى بركة المياه الفارغة ومكان السبعة المختفين أولئك حتى حلَّ الظلام، وتتبّع أبي أثرهم وهو يحمل الفانوس. فلزمت أنا التي رأيت كلّ شيء الصمت لأرى هل تعلم بيتا شيئاً أم لا. أجل، كانت تعلم، كانت تعلم كلّ شيء بالتفصيل. في تلك الليلة أفاقت بيتا أخيراً من الصدمة بعد أن رشّت أمي الملح على فمها، وقالت إنها قد رأت سابقاً العمّة توران مرّاتٍ عدة تذهب إلى الغابة عند مغيب الشمس، وتتحدّث إلى كائنات خفية، وتتفق معهم على المواعيد.

وشيئاً فشيئاً ضاعت بعض الكتب من مكتبة أمي وأبي، وبعد ذلك اختفت لبّادة كبيرة كانت مرميّة تحت سريري كشيء مهمل، ثم لاحقاً اختفى فانوس نفطي وطبق وملعقة وشوكة وطنجرة وبعض المواد الغذائيّة وأخيراً بطانيّة. وفي يوم أمس اختفت كاميرا سهراب من على منضدته. أمي التي كانت قد نسيت أنني حذّرتُ من وقوع مثل هذا الأمر مسبقاً، نسبَتْ كلّ هذا إلى الوجود الخفي للعمّة توران وأطفالها الستة. وفي

النهاية، وقفت ذات يوم وسط غرفة المعيشة غاضبة، وصرخت بصوت عالٍ: «أيعلم أحدكم ما الذي يجري هنا في هذا المنزل؟»، ارتعبت وأجبت بسرعة من غرفتي: «كانت كاميرا سهراب إرثاً لي». وصرخت بيتا وهي تلمّع حذاء الباليه الخاص بها بغضب: «يا غبيّة، إن قلتِ هذا فكلامك يعني أنهم قتلوا سهراب، أي أنهم أعدموه!». كنت الشخص الوحيد الذي يعلم بإعدام سهراب، فركضتُ مسرعةً من نافذة غرفتي إلى العرزال بمعدّاتي الأخيرة التي كنت أحتاجها. ومع ذلك، استمرّت سرقة الأدوات المنزلية وحركتها، على الرغم من أنني أعلنتُ رسمياً أنني لستُ مسؤولة عن المزيد من السرقات.

كانت الأشياء تتحرّك بتهوّر أمام أعيننا تماماً، وقد وصل الأمر إلى أنه ذات يوم عندما كنا نجلس جميعاً حول مائدة الغداء، صرنا نسمع صوت المضغ المبالغ فيه والتجشّؤ ذي الرائحة الكريهة بالقرب من آذاننا وأنوفنا ونشعر بهما. لم يعد هناك من يمكنه إنكار هذا الأمر، إذ كان الطعام يرتفع من أطباقنا ويختفي في الهواء مع صوت المضغ العالي؛ ولو لم يكن أبي قد وضع حدّاً لسلوك العمّة توران المتطرّف والمبالغ فيه، هي وأطفالها الستّة غير المهذبين والأكولين، لربما أحضر قارئ مرايا مدينة رازان وعرّافها – وهو أمرٌ يخشاه كلّ جنّيّ. قالوا إن قارئ المرايا هذا قد ظهر وأتى إلى مدينة رازان ليهتمّ بشؤون الناس الماورائية، بعد اختفاء المشعوذ الأول في حريق مدينة رازان. ومهما كان الأمر، لا تستطيع رازان السيطرة على علاقات الكائنات غير المرئية حول الغابة وتطرّفها، فهذه الكائنات تفرض دائماً وجودها وأذواقها وقوانينها على سكّان تلك المناطق بطرق مختلفة.

وذات ليلة، بينما كنا نجلس حول النار في الفناء كالمعتاد، ونتبادل الحديث ونضحك ونتناول حبّ عباد الشمس، أمسك أبي فجأة بمعصم

العمّة توران وقال: «إذا لم تتركينا وشأننا، سأضطرّ إلى إحضار المشعوذ قارئ المرايا وأجعل حياتكِ كالجحيم!». فعلقت حبّة عباد الشمس في حلق العمّة توران التي كانت قد داهمتها المفاجأة وسعلت، ثم اعترفت قائلة: «إنه خطؤك أنت؛ فمن كثرة ما اعتبرتنا عبئاً على عاتقك، حلّت بنا هذه النكبة. والآن يجب عليك أن تتحمّل هذا الموقف!». إلا أن أبي لم يتراجع، وبينما هو مستمرّ في الضغط على معصم يدها قال: «كما قلت لكِ». فأجابته، وقد بدت لبرهة أنها نادمة على ما فعلته، بصوتٍ حزين وصادق: «لا أحد يرغب بنا؛ فلقد كنا عالة في منزلنا أيضاً. كنت أزعج زوجي البخيل الذي كان يعتبر أبناءه منافسين له، فاشترى لنفسه ثلّاجة منفردة وراح يضع قفلاً على بابها؛ وأينما ذهبنا كان الجميع يقفل ثلّاجاته بسرعة وإحكام. ولهذا السبب عزمت على قراري هذا العام؛ وأخذت من مكتبة أبي كتاب أسرار التواصل مع الجان وقرأته، وبمساعدتهم، وجدت الطريق إلى منزلك. ولقد أتيت هنا لأذهب معهم، والآن أنا برفقتهم وراضية جداً».

بالطبع، منذ ذلك اليوم لم نعد نسمع مرة أخرى صوت مضغ طعام أبناء عمّتنا توران، ولا نشمّ رائحة تجشؤهم الكريهة، إلا أنه اشتدّ حزننا جميعاً من سماع هذه الحكاية، ووعدنا أنفسنا أنه من الآن فصاعداً لن نُبدي أيّ ردّة فعل تجاه تنقّل أدوات المنزل واختفائها. ومع أننا لم نعد نعتمد على المواد الغذائية المخزّنة داخل الثلّاجة لصعوبة الحصول عليها في تلك السنوات، لم يعترض أحد بشأن ذلك. ولم تمرّ بضعة أيام على هذه الحكاية حتى ارتفع احتجاج سكّان القرية وصراخهم، وتمتم الناس بأن هناك طائفة من الجنّ الجائعة قد هجمت على رازان وراحت تأكل أطعمة القرية وتنهبها. أخيراً انتهى الأمر بإحضار العرّاف قارئ المرايا؛ وعلّق سكّان القرية قائلين

إنه لم يكد قارئ المرايا يمسح الغبار عن المرآة ويقرأ أوراده حتى خاف الجنّ الهواة وفضّلوا الهروب على البقاء. والآن من حين إلى آخر تصلنا إشاعات من قرى الأحراش والغابات البعيدة عن احتجاج الناس بسبب هجوم مجموعة من الجنّ الجائعين على القرى ونهبهم للمؤن.

وحتى بعد مرور أشهر، لم يعرف أحدٌ شيئاً عن العرزال الخاص بي بشكل دقيق؛ وذات يوم عندما كان أبي كعادته ممتطياً جواده البنّيّ يمرّ بلا وجهة محدّدة إلى زوايا البستان وجوانبه واضعاً الغليون في فمه، وقع نظره على حبل سلّم العرزال الخاص بي، فصعد ووجد بجانب أدوات المنزل المسروقة: «أوراقي»، وشرع بقراءتها هناك. وفي الليل عندما كنا حول مائدة الطعام والجميع ينظر إلى لقيماته الأخيرة، قدّم أبي الدفتر فجأةً من غير أن ينظر إليّ، وقرأ جزءاً منه بصوتٍ عالٍ: «كانت آلة التار المصنوعة يدوياً والخاصة لا تزال في حضني حينما وقع ذلك الحادث. أعجز عن وصف ذلك الحادث فكلماتي قليلة. إنني أحاول نسيان الحرق المرعب لجلدي ولحمي ومقلة عيني.. ينبغي أن أشغلَ ذهني بالتفكير في أشياء أخرى؛ يجب أن أكتب، وأن أفكّر بهم؛ بأولئك الذين أصبحوا الآن وحيدين جداً».

كنت غاضبة للغاية لدرجة أنني شعرت بأن وجهي ورقبتي قد ازرقّا؛ ولم أستطع سبّ أبي. فلا مجال لذلك في ثقافة عائلتنا وأخلاقها، ولكنني وددت بشدة لو استطعت أن أقول له يا ابن الكلب. فتلك كانت أسوأ شتيمة أعرفها. علّقت بيتا قائلة: «ثم؟»؛ وواصل أبي قراءته: «يجب أن أكتب؛ عليّ أن أتذكّر أنني أخذت الدفتر ذا الخمسمئة ورقة من حجرة أبي. وعندما أكتب يمكنني التركيز بكلّ قوّتي على تشتيت ذهني».

لم أكن قد انتهيت من طعامي بعدُ، حين قمت بانتزاع الدفتر من يد والدي؛ طار الدفتر في الهواء وابتعد. وكاد يخرج من الباب حِين قالت أمي بنبرة حازمة: «لقد أوشكت على النضوج، لم يعد بإمكانك أن تكوني فظّة وقليلة الأدب هكذا!»، فقلت بوقاحة وأنا أدير ظهري لهما: «هل نسيتما؟ إذ ليس من المفترض أن أنضج على الإطلاق!»، وعندما غادرت المنزل قالت أمي إحدى عباراتها الحكيمة: «لا يهمّني ما إذا كان تاريخ حياة الناس يُقسم إلى قبل العيد وبعده، أو قبل الثورة وبعد الثورة؛ ولكنني أعلم أن تاريخ حياة عائلتي يُقسم إلى قبل "غزو الأعراب" وبعده». بعد تلك الحادثة دائماً ما كانت أمي تقول «غزو الأعراب»، ولا تقول الحريق أو إشعال النار... إذ ما زالت تريد أن تؤكّد لنفسها وللآخرين أنهم جاؤوا وأحرقوا وسلبوا وقتلوا. تماماً مثل ما حدث قبل ألف وأربعمئة عام.

# الفصل الثالث

في الشتاء الماضي، حين لم تكن قد وقعت تلك الحادثة لأمي في أعلى شجرة البرقوق الأخضر، ولم يكن سهراب قد أُعدم بعد، ولم تكن قد وقعت قضية العمّة توران وأطفالها الستة الشرهين، استيقظنا في صباحٍ باكر ممطر من اليوم السابع عشر لشهر بهمن من عام 1366(*)، على صوت نباح «گرگي» كلب حراستنا، ووجدنا أنه قد فات الأوان لنتمكّن من تهريب سهراب عبر الغابة؛ وفي طرفة عين داهم أربعة من رجال الحرس الثوري المسلّحين ومعمّمٌ غرف المنزل، وقيّدوا يدَي سهراب الذي كان لا يزال على السرير، وسرقوا بضع مذكّرات وكتب من هنا وهناك، ثم أخذوه مع الكتب. وقبل أن يجد أبي الوقت ويركض وراءهم، وقبل أن تصرخ أمي متسائلةً: «إلى أين تأخذون ابني، يا أوغاد؟!»، ضغطوا على دوّاسات وقود سياراتهم الپاترول ولطّخوا بعجلاتهم وجوهنا بالوحل، فيما گرگي كان لا يزال ينبح.

وطوال خمسة أشهر لم يكن أحدٌ يعلم بمكان سجن سهراب، إلى أن دخل ذات يوم رجلٌ غريب رازانَ بهيئة رثّة وعينين حزينتين، وبينما كان

(*) يوافق: 6 فبراير 1988 م. (م).

يشير إلى منزلنا الواقع على الرابية، قال لأول رجل يصل إليه: «قل لهم أن يبحثوا عن ابنهم في سجن إيفين». ثم أراد الرجل المجهول الحزين أن يسير بعيداً عبر الأزقة المتعرّجة باتجاه طرق الدواب المؤدية إلى الغابة، حتى يوصل رسائل السجناء الآخرين إلى ذويهم، ولكن قبل أن يسير مبتعداً، سأله قرويٌّ يجلس في إحدى زوايا ساحة القرية ويسنّ سكّينته بحجر الشحذ: «لأيّ سببٍ ترهق نفسك بإيصال هذه الأخبار إلى أناس لا تعرفهم؟!».

أجاب الرجل الحزين: «القصّة تفوق صبرك». وأكمل طريقه، إلا أنّ الرجل القرويّ تتبّعه بخُطا حذرة وهادئة، ثم أعطاه سيجارة كان قد لفّها، وقال: «لديّ الكثير من الصبر». جلس الرجل الغريب أمام القروي الذي عاد مجدّداً إلى شحذ سكّينته وقال: «لقد ولدتُ في عائلة فقيرة للغاية، وكان أكبر أحلامنا تناول لحم الدجاج. وعندما بلغت الثانية عشرة من عمري، حبلت أمي مرة أخرى، وسمعتها ذات ليلة تقول لأبي إنها مستعدّة أن تموت في سبيل الحصول على فخذ دجاجة. وفي اليوم التالي زجّوا بي في السجن لأنني سرقت دجاجة، ولكنني كنتُ سعيداً إذ كنّا قد طهونا تلك الدجاجة وأكلت أمي فخذها بكلّ شهيّة. وبعد مرور عام، أطلقوا سراحي ورأيت أمي وأبي وقد أصبحا أكبر بعشر سنوات من عمرهما وأكثر فقراً. وعندما بلغتُ الخامسة عشرة من عمري، سُجنتُ مرة أخرى لأنني قتلت صاحب عملي الذي لم يعطني أجرتي. لم تزُرني أمي -التي كنت أتوق لرؤيتها كلّ يوم أكثر من ذي قبل- ولو مرّةً واحدة. مرّت السنون، ووصلتُ إلى حبل المشنقة ستّ مرّات، ولكن في كلّ مرّة كان الحبل يتمزّق، لذلك فقد قرّروا أخيراً تركي حيّاً، ولكن بعد عدّة أيام سُجن أخي الصغير قرّة عين أبي وأمي في السجن نفسه. وكلّما سألته ما الجريمة التي ارتكبها

لم يجبني. أخيراً وفي منتصف الليل، همس الحارس الليلي بالأخبار في أذني؛ وأنبأني أن أخي قتل إخوتنا وأخواتنا كلّهم وكذلك أبي وأمي. ما إن سمعت هذا الكلام حتى أصبحت أصمّ وأعمى فجأةً، وقطعت على الفور وريد رقبة أخي الصغير، الذي كان نائماً، بشفرة الحلاقة، بينما لم يكن لديه سوى فرصة ليبتسم في وجهي بعينين دامعتين. وفي اليوم التالي وصلت الصحف إلى السجن، وتناقل المساجين الخبر من زنزانة إلى أخرى حتى أدركت الحقيقة من خلال تهامس السجناء. لقد تعلّم أخي الصغير، وقد كان الطفل الوحيد في منزلنا الذي يذهب إلى المدرسة، في حصة العلوم، أنه يمكنه تخدير الناس بالإثير؛ وفي الليلة ذاتها وضع ستة مناديل مبلّلة بالإثير على أنوف أهل البيت الذين كانوا نائمين، ليتمكّن من الذهاب بعيداً عن أعين أبي وأمي في جُنح الليل، ويبيع السجائر في الشارع ليساعدهما في النفقات، فقد كان أبي لا يسمح له بالعمل لأنه كان يريد أن يدرس ابنه وحسب، فيصل واحدٌ من أبنائه على الأقل إلى مكانةٍ ما ويخرج من دائرة الفقر هذه. الأمر المهم هو أنه لو كان المعلّم قد أخبر التلاميذ ضمن درسه أنه يجب رفع المنديل المبلّل بالإثير عن الأنف بعد بضع ثوانٍ فقط، وإلا فإنه سيقتل الناس، ما كان ليحدث هذا أبداً؛ لذلك عندما عاد أخي إلى البيت سعيداً لتقديم المساعدة المالية لوالدينا ورفع المناديل عن وجوههم، رأى أن جميعهم قد تجمّدوا وماتوا».

أشعل الرجل الغريب سيجارة اللفّ وأخذ نفساً عميقاً منها، وتابع: «وفي اللحظة ذاتها التي سمعت فيها هذا الخبر، قطعت شريان يدي بالشفرة نفسها وقتلتُ نفسي؛ ومتُّ. كنت في المشرحة لليلة واحدة، لكن في صباح اليوم التالي رأى أحد حرّاس المشرحة الكيس البلاستيكي على وجهي ممتلئاً بالبخار، فأخذوني إلى المستشفى ولاحظوا أنني ما زلت

على قيد الحياة، على الرغم من أن شرياني قد قُطع بالكامل وأصبح أسود اللون».

أخذ الغريب الحزين نفساً عميقاً، ودخّن سيجارته، ثم عرض معصمه الأيسر للقروي حيث كان جرحٌ غائر أسفل سوار المعصم الجلدي، ويظهر أن وريده قد تمزّق في المنتصف بلون أسود. لمح القرويّ ذلك وهو يشحذ سكّينه ببطء؛ فسأله الرجل الحزين: «أأنت متأكّد أنه لا يزال لديك مزاج لسماع قصّتي؟»، فأجاب القروي: «إذا وعدتني أنك بعد ذلك ستسمع قصتي، فنعم لدي».

نظر الرجل الحزين، الذي كان لا يزال يدخّن سيجارته، إلى يدَي القروي وهو يشحذ سكّينه بصبرٍ وهدوء؛ وأكمل حديثه محدّقاً بحركة السكّين البطيئة على حجر الصقل، قائلاً: «أخذوني للمشنقة ثلاث مرات أخرى أيضاً، ولكن حبل المشنقة تمزّق مجدّداً، فألقوا بي خارج السجن بسرّيةٍ تامة، لأنهم اعتقدوا أنني نحسٌ للغاية لدرجة أني لا أستحقّ الموت حتّى. بعد ذلك عزمت على الذهاب إلى المعلّم وقتله بسبب إعطائه لدرس غير مكتمل للطلاب، ولكن في الليلة ذاتها نمت في إحدى زوايا الشارع، ولأول مرة رأيت أمي في المنام وقد كانت تسكن في منزل زجاجي بلا نوافذ؛ كنت أمشي داخل الغرف الزجاجية وأشعر بأنها ستتشقّق وتنكسر في أيّ لحظة. كان البيت بلا أثاث وأمي تقف بجانب حائط وتنظر إلى الخارج، وعندما رأتني ربّتت على شعري بحنان وقالت: «لو كنتُ أعلم أنك لا تزال على قيد الحياة لجئتُ لزيارتك كلّ أسبوع»، ثم أعطتني هذا الكيس، مربّتةً على يديّ بلطف قائلة: «اذهَبْ بهذا الكيس من هذا الاتجاه!». استيقظتُ ورأيتُ بجواري هذا الكيس الممتلئ برسائل السجناء إلى عائلاتهم. ومنذ ذلك الحين وأنا أسير في الاتجاه الذي أشارت إليه أمي وأوصل رسائل

السجناء إلى ذويهم، لأنه ما إن تعلم الأمهات أن أولادهن لا يزالون على قيد الحياة في السجون، فبالطبع سيذهبن لزيارتهم».

أخذ الرجل الغريب نَفَساً من سيجارته، ثم أطفأها تحت قدمه وقال: «ولكنّني حتى الآن لم أفهم لماذا قالت أمي إن عليّ المجيء إلى هذه الناحية.. أي الشمال!».

أجاب القروي ببرود: «إذا فهمت ستموت».

لمعت عينا الرجل الحزين للحظات، ثم صمت هنيهة وقال: «لقد متُّ منذ الوهلة الأولى التي ذهبتُ فيها إلى حبل المشنقة، إلا أن الآخرين لا يعرفون هذا الأمر». فقال القروي: «إذاً، اسمع هذا!»، ثم خلّل أسنانه بسكّينه الحادّ وتابع: «كنّا عائلة فقيرة للغاية، وقبل ولادتي بسنوات ذهب أبي عبر الغابات والجبال، ومن قرية إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى حتى وصل إلى طهران؛ وبعد سنوات من العمل وسوء الحظ هناك، نجح في تأسيس ورشة طوب صغيرة بنفسه في جنوب المدينة. لم تكن قد مرّت بضعة أشهر على ذلك حتى قُتل؛ وكان أبي قد رأى في الليلة التي سبقت رحيله مناماً أن أفعى ما تخرج من كُمّه وتلدغه. وفي اليوم ذاته كان أبي قد أوصى أمي قائلاً إنه مدين بمئة تومان للصبي العامل لديه وبمبلغ آخر لزملائه. وفي اللحظة ذاتها خلعت أمي خاتم زواجها، ولفّت السجادة التي كانت تحت قدميها، وقالت بِعهما وسدِّد ديونك وتصدّق بالقليل منها حتى يشفق عليك الموت فيدعك وشأنك! إلا أن أبي صرف القليل من المال بعد بيعهما لشراء كفن ومستلزمات مراسم العزاء، ودسّ في جيبه مئة تومان حتى يعطيها لصبيّه في آخر الوقت، ووضع باقي المبلغ في خزانة أمي. في ظهيرة ذلك اليوم وقبل أن يتمكّن والدي من سداد الدين إلى صبيّه، قتله صبيّه العصبي بالسكّين؛ وما إن سمعت أمي هذا الخبر حتى

ماتت كمداً، وأنا الذي كنت طفلاً في العاشرة من عمري تشرّدت من مدينة إلى أخرى ومن قرية إلى أخرى، واشتغلتُ وتسوّلت فيها حتى وصلتُ إلى هذه القرية. أول ليلة من وصولي إلى هنا رأيتُ أبي في منامي، وقد كان يسكن في بيت زجاجي بلا نوافذ، وكنت أخشى أن يتهشّم الزجاج على رأسه وجسده في أي لحظة؛ لم يكن هناك أيّ متاعٍ أو أثاث في المنزل. ربّت على قدمي بيديه الحنونتين وقبّلني قائلاً: "لو كنت أعلم أنك ستواجه الصعاب بهذا القدر لكنت أدّيتُ صدقاتي!". ثم اتجه إلى جدار زجاجي آخر، وأشار إلى ساحة وقال: "انتظِر مع سكّين في هذه الساحة"». أظهر القروي السكّين للرجل الحزين قائلاً: «هذه السكّين هي ذاتها التي قُتل بها أبي». وما إن سمع الرجل الغريب هذا الكلام حتّى نهض من مكانه بعينين حزينتين وقال: «دعني أُقبّل يديك قبل الموت!».

مدَّ القروي يده ببرود للرجل الغريب، فقبّلها الرجل الحزين وقال: «أشكرك على تلبية رغبتي». وسارا معاً بصمتٍ وخطوات متأنّية، إلى أعماق الغابة، وحينما أصبحا بعيدين عن أعين الناس، طعن القروي الرجل الحزين بالسكّين في قلبه وغرسها حتى مقبضها، ثم أخرجها؛ ابتسم الرجل بعينين حزينتين ابتسامةً لم ينسَها القروي أبداً، وأسلم الروح. وقبل أن يلقي الأخيرُ السكّينَ والجثةَ في المستنقع لتكون غذاءً للديدان والحشرات، نظر في عينَي الرجل الميّت لأول مرة وانهار شيء ما بداخله. وهو ينظر إلى البؤبؤين اللذين اتسعا، اعتقد أنه لا يشبه قطّ ذلك الشخص الذي طالما انتظره بحقدٍ طوال عمره. ظلَّ القروي ينظر إلى البؤبؤين تينك حتى حلَّ الليل، ثم أشعل ناراً صغيرة. نظر لمدّة أسبوع إلى الجثة التي كانت تنتفخ شيئاً فشيئاً من وراء ألسنة اللهب، وقد باتت رائحتها كريهة وأمست فريسة للديدان والخنافس والثعابين. ترك الرائحة الكريهة تملأ

أنفه حتى يكره الإحساس بالحياة؛ تركها حتى تجعله الصورةُ المقزّزة لولادة الديدان وهجوم الثعابين والعقارب يكره نفسه. وعندما زادت الرائحة الكريهة للجثة بشكل كبير، لدرجة أن الزهور المحيطة بها ذبُلت، وغيّرت الفراشات واليعاسيب طريقها، ألقى بقايا الجثة والسكّين في المستنقع. ثم وضع حقيبة الرجل الثقيلة على كتفه وانطلق صوب القرى النائية، ولكن قبيل ذلك جاء إلى أعلى رابيتنا، وبصوت هادئ وموزون أبلغ أبي الذي كان جالساً على الشرفة بالخبر وابتعد.

كان أبي سعيداً لأن خبر سهراب وصل أخيراً، لكن في الوقت نفسه خطرت فكرة بباله للحظة: «يا لعينَي هذا الرجل الحزينتين!». ثم عاد إلى المنزل لحزم أمتعته والمغادرة صوب طهران في أقرب وقت ممكن، مع أنه لم يكن يعلم -ولم يدرك لاحقاً- أن سهراب نُسي في الحبس الانفرادي في أقرب مدينة لمدة أحد عشر يوماً قبل نقله إلى سجن إيفين.

لم يعرف أبي البتّة أن ضابط الحرس الثوري بعد أن زجّ سهراب في الحبس الانفرادي بركلاته، ذهب إلى غرفة خلع الملابس، وبدّل ملابسه، ثم وقّع على استمارة الإجازة وذهب لمدة أحد عشر يوماً إلى قريته التي تقع في ضواحي أردبيل، لكي يقيم حفل زفافه، ويضاجع زوجته ويحبّلها ويعود. وبعد أن رجع سأل في أثناء شربه الشاي والدردشة مع زملاء العمل: «إلى أين انتهى مصير ذلك الشاب الطهراني؟»، عندئذٍ فقط سأل الجميع: «أيُّ فتىً؟»، ثم ركضوا ناحية الحبس الانفرادي في نهاية ممرٍّ رطب مظلم طويل تحت الأرض حيث كان سهراب يلفظ أنفاسه الأخيرة هناك في قبضة الأوهام والذعر والجوع والموت.

قبل أحد عشر يوماً عندما تركه ذلك الحارس بلا أيّ طعام وماء ورحل، اعتقد سهراب أول الأمر أنه بعد بضع ساعات، سيأتي أحدٌ في إثره

ليستجوبه. منذ البداية، تسبّبت رائحةٌ كريهة في صداعه: كانت رائحة بول ممتزجةً بالدم الطازج والقيح والعرق والقيء. حاول تهدئة نفسه بالتفكير في أنهم سيأتون للبحث عنه قريباً ويعلنون مصيره في النهاية. كان المكان مظلماً تماماً؛ فنهض وحاول أن يعرف حجم الزنزانة، كان العرض بمقدار قدم واحدة والطول ثلاث أقدام. شيء في حدود مساحة قبره؛ لم يكن هنالك أيّ منفذ أو أيّ وسيلة لتمييز أي شيء في ذلك الظلام الدامس. وضع أذنه على الباب الحديدي وسمع صوتاً مبهماً يأتي من بعيد؛ وعندما مرّت بضع ساعات ولم يصدر أيّ صوت من الخارج، تشكّلت في أعماقه بداية مشاعر الخوف. الخوف من أن يُنسى؛ نهض مذعوراً وبدأ بالطرق على الباب، وركله. وبعد ساعة من الركل والطرق والمحاولة، تحرّك متحسّساً الجدران والباب وهو يشعر بالتعب والخوف والجوع والعطش، حتى وجد صنبور مياه منخفضاً جداً بالقرب من الأرضية فشرب منه. كان الصنبور منخفضاً للغاية لدرجة أن وجنته كانت تلتصق بالأرض عند شرب الماء؛ وانتشر طعم صدأ الحديد في فمه. لم يكن يعرف ما إذا كان الماء أو القلق هو الذي سبّب له المغص. لم يكن هناك مرحاض؛ مرّت ساعةٌ أخرى قبل أن يُجبر أخيراً على التغوّط في المكان نفسه وغسل نفسه من الصنبور ذاته. جعلته رائحة الإسهال الناتجة عن المغص والخوف يتقيّأ عدّة مرات. خلع ملابسه وألقاها على برازه لتقليل الرائحة، إلا أن الأمر كان بلا جدوى.

بدأ بالتوهّم والخوف والشعور بالاختناق والغثيان واقتراب الموت؛ وسرعان ما نسي أسماء جميع أبطال الروايات السياسية التي كان قد قرأها. رغب في مقارنة نفسه بهم ليهدّئ من روعه؛ لم يتذكّر حتى الموسيقا التي كان يحبها ويعزف أغلبها بالصفير. ومنذ الساعات الأولى، اختلطت عليه

ساعات الليل بالنهار؛ وفي اليوم الثالث، لم يستطع تذكّر في أيّ يومٍ هو من شهر بهمن. وفي اليوم السابع لم يستطع تذكّر في أيّ يومٍ من أيّ شهر ومن أي سنة أصلاً. كان يشعر أن الشعيرات الدموية في عينيه قد جفّت من كثرة التحديق بعينين جاحظتين إلى الظلام أمامه، وإلى الفراغ، وإلى عيني الموت. كان حلقه قد جفّ، وهذا ما تسبّب في سعاله بشكل متواصل؛ كان يلمس الحائط متتبّعاً أثر خدوش الأظافر أو شيء حادّ؛ ويحاول تخمين الأحرف المحفورة. وتمكّن ذات مرة من قراءة جملة بأكملها: «العالم الثالث هو المكان الذي نتشارك أنا وأنت فيه الألم ولكنّنا لا نكون معاً». فكّر كثيراً لكن لم يتذكّر لمن تعود هذه الجملة. كان عليه أن يسلّي نفسه وإلا فإنه سيصاب بالجنون، ففكّ حزامه كي يحفر قصيدة على الحائط بإبزيم الحزام، ولكنه سرعان ما نسي ما الذي يريد كتابته. من فرط الجوع وضع عدة قطع من الجص المتساقط في فمه، فشعر بلسانه الجاف يحترق، وراح يسعل أكثر. ومنذ اليوم السابع لم يعد لديه مقدرة على جرّ نفسه إلى الباب ليلصق أذنه عليه ويصغي إلى الأصوات البعيدة التي بدت في هذه الأيام الأخيرة وكأنها زمزمة أشخاص يخطّطون لقتله. كانت الأصوات الغامضة تخبر بعضها بعضاً كيف أنها ستأتي إليه في الظلام وتخنقه. وراحت الأصوات تمتزج معاً، صوت ضحك وقهقهة القاتل والجلّاد والمحقق والشخص الذي كانت وظيفته سحب الكرسيّ من تحت أقدام المحكوم عليهم بالإعدام. وفي اليوم الثامن، مهما لمس أرضية الغرفة وجدرانها، لم يستطع العثور ولو على خنفساء ليأكلها، مثل شخصية تلك الرواية التي لم يعد يتذكّر اسمها أيضاً. حتى إنه وصل بتفكيره إلى أن يأكل برازه ليظلّ على قيد الحياة وليُثبت لأولئك عديمي الإنسانية القذرين الذين جعلوه يعيش كالكلاب، أن بإمكانه البقاء على قيد الحياة ضد إرادتهم. حمل قطعة من

برازه الجاف بطرف قميصه ولقّن نفسه أن طعمها ربما يشبه الوحل؛ لكنه لم يكد يقرّبها من فمه حتى تقيّأ كثيراً لدرجة أنه استفرغ بقايا سائل معدته المرّ. كانت هذه آخر محاولاته للبقاء على قيد الحياة؛ ولم يتذكّر أيّ شيء بعد ذلك. لا الخوف ولا صوت الأوهام الرهيبة ولا الجوع ولا الموت ولا الحزن ولا الحنين لأمه وأبيه ولبيتا ولي أنا.

لا يعرف كم مرَّ من الوقت حين رأى بصيص ضوء، ثم وجد نفسه على سرير المستوصف وقد ربطوا محلول السيروم بكلتا يديه، وسمع شخصاً يصفع شخصاً آخر وينهال عليه ضرباً بلكماته وركلاته صارخاً: «لو مات من سيتحمّل المسؤولية، أيها التركي الغبي؟!». وفي اليوم التالي قالت الممرضة وهي تغيّر السيروم الخاص به، بصوتٍ خافت إنهم قد أضافوا مدة شهر واحد فقط إلى خدمة ذلك الجندي عقاباً له؛ هذا فحسب. وانتهى كل شيء؛ وكأن شيئاً لم يحدث من الأساس. كما لو أنه لم يكن من المفترض أن يكون على قيد الحياة منذ البداية؛ أو ربما كان من المفترض أن يُنقذ من حافة الموت ويُعدم لاحقاً في احتفال يليق بالثورة.

وبعد ثلاثة أسابيع عندما نُقل إلى سجن مركز المحافظة، وذهب أبي إلى هناك للبحث عنه، أعطوه مجدّداً الإجابة ذاتها التي كانوا قد أعطوها من قبل: «من؟!»، نظر الجندي إلى القائمة وهزّ رأسه وقال بتعاطف: «لا، يا سيّدي؛ ليس لدينا هنا شخص بهذا الاسم». وفي الوقت نفسه الذي كان أبي يبحث فيه عن سهراب من مدينة إلى أخرى، نقلوا سهراب من هذه المدينة إلى تلك، وضربوه كثيراً لدرجة أنه تبوّل دماً، وتضرّرت إحدى كليتيه على نحوٍ بالغ. وأخيراً قرّروا نقله إلى طهران حتى لا يكون دمه في رقابهم؛ وبحلول ذلك الوقت، كان ملفّه ذو الصفحة الواحدة -الذي

اتُّهم فيه بالفرار من الجيش وقراءة منشورات متفرّقة لجماعة ميليشيات الفدائيين- قد أصبح سميكاً لدرجة أنه بات يستحقّ إرساله إلى طهران. وهكذا أُرسل إلى هناك مصاباً بكسر في الفكّ وكسر في الضلوع وفشل في الكلى؛ وأخيراً، وبعد خمسة أشهر، تمكّنت أمي وأبي وبيتا من مقابلته لمرة واحدة، وكانوا طوال مدة الزيارة يتكلّمون فقط ويضحكون، لدرجة أن الزوّار الآخرين غضبوا وراحوا ينظرون إليهم شزراً.

في ذلك اليوم، كرهت أمي نفسها عندما أُجبرت على ارتداء الحجاب لأول مرة بعد تسع سنوات من مجيئنا إلى رازان. فقبل تسع سنوات عندما قرّرنا القدوم من طهران إلى هذه القرية النائية، كانت قد وعدت نفسها بأنها لن تخرج من هذه القرية ومن هذا البستان إن أمكن، إلى أن يتغيّر هذا النظام كي لا تضطر إلى وضع المنديل على رأسها. وطوال هذه السنوات شغلت نفسها بالكتب والدجاج والديوك والأشجار والمطر والموسيقا والذكريات، وحتى عندما بلغها نبأ وفاة أحد أحفاد العائلة الصغار البعيدين في الرابع من مرداد عام 1366(*) بسبب الفيضانات في منطقة «دربند» لم تغادر البستان، لأنها عندئذٍ ستكون مضطرّة إلى تغطية رأسها بالمنديل لتتمكّن من المشاركة في مراسم العزاء وتشييع الجنازة. أيضاً عندما سمعت أن أحد أحفاد العائلة البعيدين البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً قد حُكم عليه بالجلد سبعين جلدة، في ميدان «الثورة»، بتهمة تناول حبة برقوق واحدة خلال شهر رمضان، رفضت مجدّداً تغطية رأسها بالمنديل والذهاب إلى طهران، للتعبير عن تعاطفها مع هذا الطفل وأسرته؛ وقد قالت إنها لا تريد رؤية أعمال عنف جماعية. وكانت أمي تقول: «بمجرّد أن تعتاد عيناك رؤية العنف في شوارع المدينة وميادينها، ستعتادينه في المرات القادمة

---

(*) يوافق: 26 يوليو 1987 م. (م).

أيضاً. وشيئاً فشيئاً ستتحوّلين إلى عدوّة لنفسك؛ أي إلى الشخص نفسه الذي قد نشر العنف». وبعد سنوات، لم تُفاجأ أمي كثيراً عندما علمت أن ذلك الطفل ذا الثلاثة عشر عاماً قد ذهب إلى فرنسا، دون أن يلتفت إلى الوراء البتّة، يرافقه شعورٌ بالنفور الشديد من الشعب الإيراني. أعطته أمي الحقّ، لأنها سمعت في ذلك اليوم أن مُقيم الحدّ الشرعي، قد أشفق عليه بسبب جسده النحيف الهزيل كونه يبلغ ثلاثة عشر عاماً فقط، فحاول جلده على ظهره بضربات أبطأ، إلا أن أهالي الحيّ والشارع الذين كانوا قد أحاطوا بهم وينظرون إلى هذا المشهد بهوس وكأنه مسرح الشارع، راحوا يصرخون: «لقد ضربته ببطء.. اضرب مجدداً! عدّ مرّة أخرى.. ابدأ من الأول!». وهكذا جُلد الفتى ثلاثاً وتسعين جلدة لا سبعين. أوضح الصبي لاحقاً لعائلته أنه عندما تعرّض للجلد الشديد على جلده وعظامه الهشّة وألصق نفسه على الأرض من فرط الألم، تعهّد بالانتقام من هؤلاء الأشخاص في أقرب فرصة إذا نجا، أو الهروب منهم إلى الأبد. وبعد عدة سنوات هرب من الحدود التركية إلى أوروبا، وسمعنا لاحقاً أنه قد غيّر اسمه وهويته أيضاً؛ وكلّما سأله أحدهم: «من أين أنت في الأصل؟»، كان يفضّل أن يجيب: «من اليونان!».

على الرغم من كلّ هذا، لم تكن أمي تعلم، على حدّ قول أبي، أن ««الأمر المحتوم، أمرٌ محتوم»؛ وأنها في النهاية ستجُبَر ذات يوم على ضرب مبدئها بعرض الحائط لرؤية ابنها العزيز الغالي. وهكذا ذهبوا لزيارة سهراب بعد خمسة أشهر تقريباً لم يكونوا فيها يعلمون عنه شيئاً، ولاحظوا أنه قد خسر عشرين كيلو غراماً من وزنه؛ ولكنهم لم يتظاهروا بعدم الاكتراث لهذا الأمر فحسب، بل أخذوا يتحدّثون ويضحكون للتخفيف من ضغط حجاب أمي القسري، وأيضاً من سجن سهراب غير المبرّر. سألته أمي

عن وضع الطعام هنا، فأجابها سهراب ضاحكاً إنه ممتاز جداً؛ ثم سأله أبي: «هل تعرف متى سيطلقون سراحك؟»، فضحك سهراب مرة أخرى وقال: «هل كان من المقرّر أن يطلقوا سراحي أصلاً؟»، ثم قالت بيتا لتغيّر الموضوع: «أينما بحثنا عن بهار لإحضارها معنا لزيارتك لم نجدها، إذ لم تكن في قنّ الدجاج ولا في إسطبل الخيول». ضحك سهراب مرة أخرى وقال إنه ليس قلقاً عليّ لأنه رآني ليلة أمس في المنام. ثم سأله أبي بكلّ جدية: «حسناً، كيف كانت صحة بهار؟ وماذا كانت تقول؟»، ضحك الجميع على كلام أبي، ولكن مع هذا أجابه سهراب بجدية تامة: «لقد قلتُ لها في المنام إن الحياة تستمرّ». وهكذا مضت نصف ساعة فقط من الزيارة في محادثة سخيفة وبلا جدوى. كان الجميع يواسون أنفسهم بأن سهراب اعتُقل فقط بسبب خطأ ما، وسيُطلق سراحه في أقرب وقت؛ ولكن عندما استمعت أمي عن غير قصد إلى حديث الزوّار الآخرين وسمعت أنهم جميعاً يواسون أنفسهم بالطريقة نفسها، بدأت تشعر بالقلق. إلا أن الوقت كان قد فات لإبداء أيّ قلق، لأن صافرة السجّان المفاجئة جعلت الجميع يفزّون من أماكنهم.

اندلعت حالة من الجلبة في الفناء الكبير للسجن، مما دفع بعض الزوّار الساذجين إلى الظنّ لوهلة أن الناس أشعلوا أخيراً احتجاجات للإطاحة بالنظام الإسلامي. في تلك السنوات، كان الكثير من الناس لا يزالون ساذجين ومتفائلين لدرجة أنهم -لأدنى جلبة أو لإطلاق رصاص، أو لانقطاع مفاجئ في بثّ برامج التلفاز أو الكهرباء أو لأي حالة أخرى غير عادية- كانوا يصرخون فرحاً: «لقد جاؤوا.. لقد جاؤوا!»، ولكن من الذي جاء؟ لا أحد يعرف. وهكذا عندما ارتطم السنونو الأول بالنافذة الصغيرة فوق جدار غرفة الزيارات، أطلق حارس السجن المرعوب وابلاً

من النيران على الزجاج لأنه أيضاً قال في ذهنه دون وعي: «لقد جاؤوا.. لقد جاؤوا!».

احتبست أنفاس الجميع عندما شاهدوا طائر السنونو ملطّخاً بالدماء مع ريشه المتناثر على أرضية الغرفة هنا وهناك، وقد راح يلفظ أنفاسه الأخيرة. كان الحرّاس والسجناء والزوّار ما زالوا يعانون من إطلاق النار المفاجئ عندما دخل سنونو آخر من الزجاج المكسور، ثم واحد تلو الآخر، ثم توالى دخول الطيور، وفي غمضة عين، امتلأت القاعة بالطيور الصغيرة المغرّدة، وقد أثار تغريدُها القلقَ. صاح أبي دون إرادة: «طيور السنونو، طيور السنونو!».

أطلق الحرّاس النار على الطيور الحائرة والمذعورة؛ وفجأة تحوّلت السماء إلى اللون الأسود، وسُمع صوت وابل من الرصاص من كلّ مكان. ودون أن يودّع الناس المذعورين أحبّاءهم المسجونين، وضعوا رؤوسهم بين أيديهم، ودُفعوا إلى الفناء تحت تهديد أسلحة الحرّاس. امتلأ الفناء بالرصاص والريش وأجساد الآلاف من طيور السنونو التي أخطأت في موسم الهجرة وحلّقت فوق مدينة طهران، بسبب بضعة أيام من الطقس الربيعي. وراحت الطيور المرعوبة والمرتبكة ترتطم بالناس والجدران والأسلاك الشائكة في الفناء الكبير رباعي الزوايا، وأطلق الضباط النار عليها؛ فأمطرت السماء الطيور النافقة مثل حبات البَرَد الأسود. وأصابت بضع رصاصات الناس، وسقطت جثث البشر والسنونو الملطّخة بالدماء على أرضية فناء سجن إيفين. كان الناس يصرخون ويبكون على حالهم في أثناء ركلهم وطردهم من الباب الخلفي للسجن. ولكمَ أحد الجنود بأخمص بندقيته رجلاً مسنّاً في فمه حين كان يصرخ باكياً: «يا لطيور السنونو المسكينة.. يا لطيور السنونو المسكينة!».

بعد مرور نصف ساعة فقط، كانت باحة السجن قد امتلأت بجثث الزوّار الذين قُتلوا بالخطأ، وكذلك بالريش الملطّخ بالدماء لطيور السنونو المغرّدة. وعادت السماء صافيةً زرقاء مرة أخرى، وكأنها لم تتحوّل إلى اللون الأسود من الطيور المهاجرة قبل بضع دقائق. جلس الحرّاس في زوايا الفناء ليستريحوا وليلقوا نظرةً على جثث الطيور الملطّخة بالدماء التي كان لا يزال ريشُها الأسود والأبيض يحلّق في الجوّ. من كان يتصوّر أن كل تلك الطيور المسكينة ستُقتَل لمجرّد خطئها في ميعاد موسم الطيران؟! ضحك أحد الحرّاس على هذه الفكرة، ثم ضحك آخر، وبعده حارس آخر، ثم هذا وذاك؛ وردّدت جدران السجن العالية صدى ضحكات الحرّاس المسلّحين وقهقهاتهم، وانتقلت من جدار إلى آخر. وفي باحة سجن إيفين وعلى مرتفعات شمال طهران، استحالت قهقهات الحرّاس المنتصرين إلى ريحٍ أخرجت ريش الطيور المغرّدة الملطّخ بالدماء والمحلّق في الجوّ من جدران سجن إيفين العالية، فتساقطت ريشةً تلو الأخرى على المنازل والأشخاص الغافلين الذين كانوا مثل كل يوم يذهبون ويأتون من طرف هذه المدينة إلى تلك، ويأتون ويذهبون من طرف تلك المدينة إلى الطرف الآخر في حلقة مفرغة. بعد ساعة، سقطت ريشة ملطّخة بالدماء لأحد طيور السنونو، والتصقت بالزجاج الأمامي لسيارة بويك اسكالايت فضّية، كان سائقها يقودها باكياً ومذعوراً صامتاً تجاه الشمال، أي نحو الغابات؛ إلى المكان الأقل احتمالية لرؤية إنسانٍ آخر، مرة أخرى.

# الفصل الرابع

بالتزامن مع الوقت الذي كانت تتعرّض فيه طيور السنونو لمجزرة جماعية فوق سجن إيفين، وفيما كان أبي وأمي وبيتا هائمين يركضون في كل الاتجاهات تحت وابل النيران، ويراقب سهراب من الفتحة الصغيرة الوحيدة في زنزانته انهمار مطر طيور السنونو المضرّجة بالدماء وينتحب متأوهاً، كنتُ أختلس النظر إلى كل مكان بحرية في الغرف المتداخلة في المنزل؛ وبين الحين والآخر أنشلُ شيئاً ما. وصلت إلى غرفة عمل أبي الكائنة خلف المطبخ، والتي كانت تتصل من خلال باب صغير مع فناء المنزل. كانت الغرفة تعجّ بالخشب والكتب، وأدوات النجارة وصناعة إطارات الصور. تماماً في الوقت الذي ولجت فيه «السيدة حنا» دجاجة أمي المحبّبة إلى غرفة عمل أبي حتى تستغلّ مثلي شغور المنزل وتختلس النظر إلى كل مكان، وتلقي بفضلاتها حيثما أحبّت، حينئذٍ وجدت الصورة التي كنت أبحث عنها منذ أشهر ضمن ظرف أصفر اللون إلى جانب بقية صور أبي: أبي يقف بجانب آلة التار المفضّلة لديه، أبي وهو يصنع آلة التار، أبي إلى جانب عازفي التار المعروفين: جليل شهناز، وفرهنك شريف، وبير نياكان، أبي وهو يعانقني من الخلف وكلانا نعزف التار معاً. كنتُ أبحث عن هذه الصورة ذاتها. حملتها ودسستها تحت قميصي، إلى

جانب عدد من ثمار الجوز التي تبقّت داخل قميصي منذ الصباح. كانت ثمة كنبة قديمة مغبرّة تتسع لشخصين في زاوية غرفة عمل أبي، وطاولة يوجد عليها كل شيء سوى آلة التار: بدءاً من منفضة السجائر وصولاً إلى مصباح المطالعة، وأكواريوم ممتلئ بالمحار وخالٍ من الماء والأسماك؛ أصداف متنوّعة كان يجمعها أبي على الدوام من شاطئ البحر. فقد أصيب لمدّةٍ بهوس جمعها. وبالتزامن مع اهتمام أبي ذاك بالأصداف، كانت أمي مهووسة باليراعات المضيئة، وتذهب إلى الغابة كل مساء وتعود إلى المنزل وهي تحمل زجاجة ملأى بها. وعندما ينام الجميع كانت أمي تُخرج اليراعات التي جمعتها من أطراف الغابة وتتركها تتحرّك وتطير حيثما تريد. ودون أن تعلم أنني أراقبها في كل مكان، تستلقي على الأرضية وسط الغرفة، وتنظر إليها. كانت اليراعات تتلألأ مثل النجوم، وتمارس الحبّ بعضها مع البعض الآخر بين ثنايا شعرها. في إحدى الليالي، عندما عكفت أمي على تقسيم أرقها، بسبب اضطرابها من اعتقال سهراب، مع اليراعات المضيئة والصمت وظلال المنزل، رأتني وأنا أتوهّج والديدانُ والصراصير المضيئة تطوّقني ساخرة منها، وهي تنظر إليَّ بشعر مجعّد وهيئة مرتاعة. في تلك الليلة جلست أمي إلى جانبي على الأرض، وسمحت لنا أن نتشاطر لذّة التعايش مع اليراعات المضيئة؛ في تلك الليلة بالذات أدركتُ كم ما زلت أجهلها، أمي التي أتناول معها يومياً ثلاث وجبات طعام، وتغطّيني كلّ ليلة ببطّانية، وكان صوتها الشفوق حين تقول: «تصبحين على خير» آخر صوتٍ آمن يصدح في المنزل. في تلك الليلة قرأت لي إحدى قصائدها التي نظمتها قبل زواجها؛ فقد كانت تتمنى أن تصبح شاعرة في تلك المرحلة. وحالما أغلقت عينيها واستندت إلى السرير، قرأت بين اليراعات الغامزة المضيئة:

الإله الراضي عن نفسه دائماً
سيبقى في أحد الأيام وحيداً بين يراعات الأمل والفرح المضيئة
في اليوم الذي سيبلغ فيه العالم نهايته؛
دون أن يصرخ كلّ ليلة سمجٌ ما:
إلهي، أين عدالتك؟!

في ذلك الوقت من الأرق العام، وبسبب اضطراب أبي وقلقه على مصير سهراب، كان -بعد أن يدخل غرفتي أنا وبيتا- يدير محرّك سيارته بويك سكايلايت الفضية ويذهب إلى شاطئ البحر؛ ويجلس على الرمال الرطبة ويستمع إلى صوت الأمواج المرعب في الليل. ويقلب المحارات رأساً على عقب بالمصباح اليدوي، وعندما تمتلئ جيوبه بالمحارات الملوّنة، يعود إلى المنزل وينقلها إلى حوض السمك الفارغ حتى الصباح. وإلى الآن لا يزال أبي يستيقظ أحياناً في منتصف الليل، ويشغّل الإذاعة الأميركية كي يستمع إلى الأخبار السياسية داخل إيران؛ ذلك أن المذياع هو الوسيلة الإعلامية الوحيدة في منزلنا. وعندما يعلن مذيع صوت أميركا من بين الأخبار أنه سيبثّ لبضع دقائق موسيقا المطربين الإيرانيين الذين فرّوا من إيران إلى الولايات المتحدة بعد الثورة، كان أبي يخفض صوت الراديو ويلصق إحدى محاراته الكبيرة على أذنه ويستمع إلى صوت البحر، ويغلق عينيه ويأخذ نفساً عميقاً من غليونه، ويمدّ ساقيه على الأريكة. تماماً كالأيام الخوالي حين كنا نذهب جميعاً إلى نزل البجعة، تلك الأيام التي لم يكن فيها أيٌّ من عناصر الحرس الثوري لكي يقول لنا بنبرة سيّئة وغاضبة: «يا جماعة الطاغوت!»، أو يتهم بيتا بـ«العمل ضد الأمن القومي»، بسبب منديلها الذي انزلق إلى الوراء. وفي بعض الأحيان،

وفيما ينشر أبي الخشب أو يلمّعه بزيت الراتنج، أو يرسم السحب والرياح على الأوراق الخاصة بفن التخطيط، يستمع إلى أصوات المطربين المفضّلين لديه، إلى صوت المطربة «دلكش» التي لا يعرف أين تعيش الآن، أو مرضية، وويگن، أو إلى صوت هايده التي هربت إلى الولايات المتحدة بعد الثورة، والتي غنّت:

أنا حزينة من أجل البيت
أنا حزينة من أجل الزقاق
أنا حزينة من أجلك
وحزينة من أجل أي شخص مثلنا يغنّي!

أو إلى صوت بنان حين ينشد:

أئنّ طوال الليل مثل القصبة، إذ إني حزين
لأنك سرقت قلبي وروحي، ولكنك لم تصبحي حبيبتي
كنت معي، ولكنك ذهبت من دوني
أين ذهبت كرائحة الوردة؟
لقد بقيتُ وحيداً، إذ ذهبتِ وحيدة.

في بعض الأحيان كانت أمي تستيقظ في منتصف الليل أيضاً، وتنشر الخشب أو تلمّعه بزيت الراتنج معه. وفي إحدى الليالي، وفيما كان صوت مذيع الأخبار السياسية بصوت أميركا يكسر الصمت بينهما، لم ينظر أحدهما إلى الآخر على الإطلاق، لأن كلّ واحد منهما كان ينظر إلى سهراب في ذهنه، واستمرا بنشر الخشب بلا توقّف؛ قال المذيع إنه بموافقة آية الله الخميني على إنهاء الحرب التي استمرّت ثماني سنوات وتوقيع قرار مجلس الأمن رقم 598، هناك مؤشرات على أنه سينتقم من

هذه الهزيمة، وأن ثمّة أحداثاً مشؤومة ستكون قادمة في إيران، لكن لم يستطع أيّ محلّل سياسي حتى الآن أن يتنبّأ بالذي سيحدث بالضبط! كان أبي يفكّر أن أمي ستبكي، بينما اعتقدت أمي أن أبي هو الذي سيبكي.

في وقت مبكّر من الصباح، عندما عاد أبي وأمي إلى رشدهما عند سماع صوت ديكي المفضّل «القبطان نمو»، انتبها إلى أن الفجر قد حلّ وامتلأت أرضية الغرفة بقطع من الخشب الخشنة وغير المنسّقة التي لم يعرفا ماذا يفعلان بها. في البداية وبّخ أبي أمي قائلاً لها: «لقد أهدرت كل الخشب الخاص بأُطر اللوحات». ثم صرخت أمي في أبي: «لماذا وضعت ألواح الخشب في متناول يدي؟»، وفي النهاية، انفجرا ضاحكَين، وقهقها كثيراً لدرجة أن دمعت عيونهما. وبعد ذلك احتضن أبي أمي حتى لا يزعج صوت بكائها ونشيجها نومنا الصباحي.

تعدّ العلّيّة المكان الأكثر شبهاً بمنزل أسلافنا، وهي ملأى بالفئران التي كانت تأكل حتى أقراص النفثالين، وتقفز من الأعلى إلى الأسفل على أقمشة الساتان والطاولات المطعّمة بالصدف وبورتريهات أجدادنا الأحياء منهم والأموات. وكانت العلّيّة ملأى أيضاً بالخزائن المكتبية والورقية والمخطوطات المتآكلة بفعل الأَرَضة، والصور المتبقّية من الأجداد، وممتلئة بالسجاد والبسط والكليم الثمينة القديمة؛ التي وضعتها أمي بطريقة تتمكّن فيها الفئران والعث والأَرَضة من القضاء عليها بسهولة. كانت أمي تكره الحياة بعد الثورة لدرجة أنها تخشى التفكير في الماضي؛ فقد كانت مهووسة به لدرجة أنها كانت تخشى تذكّر أيّ شيء صغير من ذكرياتها السعيدة آنذاك. لذلك فقد باتت الفئران توجد في كلّ مكان؛ في بعض الأحيان عندما يُسمع صوت الفئران والأَرَضة في العلّيّة، كانت أمي

تذهب إلى هناك بسرّيّة تامة وتجلس في الهواء الرطب الخانق على إحدى الأرائك المتسخة، وتشاهد وليمة الفئران وهي تقضم أشياءها الجميلة والأثرية شيئاً فشيئاً؛ كل تلك الأشياء التي تكمن وراءها عقود من الهوية والذكريات والعيش لمئات السنين لتصل إليها. وكانت تتكلّم مع نفسها قائلة: «لسنا أوّلَ من يدمّر نفسه بيدَيه في مدينة تحمل كلّ أسباب السعادة». ثم كانت تنزل بعينين دامعتين وتبتعد قدر الإمكان عن المنزل، لتجلس تحت شجرة في الغابة وتجهش بالبكاء. وعندما تهدأ وتشعر ببعض الخفّة، كانت تعود إلى المنزل بأنفٍ محمرّ وعينين منتفختين، وتبدأ بطهو الطعام وتدندن بصوتها الجميل، قصيدة شاملو هذه بكلّ هدوء:

خلدت الشمس إلى النوم ونام العالم
وبكت مثل أمّ وناحت لموت ابنها.
ويبكي على موت طالعي
تحت خيمة الليل
البحر المرهق
بهدوء.

وفي اتفاق غير معلن، قبلنا جميعاً حبّ أمي العجيب والغريب لسهراب، وكنا نثني على ذلك دون أن نشعر بأي قلق. لم يكن سهراب لأمي مجرّد ابنٍ عزيز مدلل ذي ستة وعشرين ربيعاً فحسب؛ ولم يكن الفتى المحبوس في سجنٍ مجهول، والذي ينتظر المصير المجهول فحسب؛ بل كان بالنسبة لأمي مجموعة من النبضات، والآمال، والحب والأماني التي تجرّعتها طوال عمرها، ورأتها في المنام، وبحثت عنها في أروقة الروايات وبين القصائد وقد فقدتها في النهاية.

على الرغم من أنها لم تقل كلمة واحدة عندما قُبض على سهراب، فقد كانت ربما الشخص الوحيد -باستثنائي أنا- الذي يعلم بمصيره المحتوم؛ فهي التي كانت قد وصلت إلى إشراق شجرة البرقوق الأخضر في الوقت ذاته الذي أُعدم فيه سهراب، بينما كانت قبل لحظات تستذكر حلمها في الليلة الماضية. فزّت أمي في الليلة التي سبقت إعدام سهراب من النوم مذعورةً ممسكة بثديها الأيسر، وخطر ببالها: «لقد قتلوا سهراب!». وعندما شاهدت بقلق بقعة الدم التي على قميصها ورفعته، شاهدت أثر سنّين اثنتين لرضيع قد جرحتا ثديها وأدمتاه، تماماً كما كان يفعل سهراب ذلك في طفولته. وبعد أن رأت قطرتي الدم، سحبتها قوّةٌ غير مرئية إلى أعلى شجرة البرقوق الأخضر، فعانت من جنون الصمت ذاك وكذلك من الإشراق الفجائي.

قبل فترة طويلة من معرفتنا بالعلاقة بين تسمية «سهراب» وحبّ أمي في فترة المراهقة، كنا قد سمعنا أنه عندما كانت أمي حبلى، رأت في منامها أن سهراب يحلم في رحمها أنه يحبو عارياً في غابة كثيفة، وكان يتحرّك ويسير حتى توقّف أمام شجرة شبيهة بالأشجار الأخرى، وتسلّق أغصانها. وتوقّف بعد حركة قليلة ثم زحف وصعد إلى أعلى الشجرة؛ وفي هذه المرة لاحظ الرضيع أن الشجرة تنمو في أثناء حركته وتتوقّف عن النمو حينما يتوقّف هو عن الحركة أيضاً. صعد الطفل وصعد وكبرت الشجرة شيئاً فشيئاً مع تسلّقه، تسلّق إلى الأعلى ونمت الشجرة وأصبحت ضخمة جداً لدرجة أنها غطّت نصف الكرة الأرضية. وعندما وصل الرضيع إلى قمة الشجرة الضخمة ألقى نظرة من الأعلى إلى الأرض التي كانت تحت قدميه؛ مكث قليلاً، ثم ابتلعه لحاء الشجرة واختفى داخلها. في ما بعد عندما روت أمي هذا الحلم في عيد ميلاد سهراب الخامس عشر، أبدى

كلّ واحد رأيه في تفسير هذا المنام، باستثناء سهراب الذي رفع كتفيه وقال بروح الدعابة المعتادة: «ولكنّي لا أتذكّر شيئاً!».

ما دام سهراب موجوداً، كانت إحدى وسائل التسلية الصيفية لنا نحن الأطفال هي البحث عن الفئران الصغيرة في الغرف وفي العلّيّة وتعقّبها، واصطيادها باستخدام مضارب الريشة، فقد كنّا نمسكها بشبكة المضرب. ثم نُقيم نحن الإخوة والأخوات الثلاثة محكمة ميدانية بشأن ما يجب فعله بمصير الفأر الصغير الذي اصطدناه، ونتخذ القرار النهائي وننفّذه قبل عودة أبينا «قاتل الفئران» إلى المنزل. «لا يُحَلّ شيء بقتل فأر صغير، يجب عدم انتهاك قانون الطبيعة، ومن الأفضل عدم تلطيخ أيدينا بدماء أحد». وفي النهاية وبقلب رحيم كنا نطلق نحن الثلاثة الفأر المذعور في زاوية المخزن، ونشاهد ابتعاده بابتسامة ورضا. لكن الآن ما بدا فريسةً للفئران في العلّيّة وتحت الجملون أمام عيني هو كنزٌ ثمين من الحِرَف اليدوية الإيرانية، ومع ذلك لم يكن إلّا صندوقاً عتيقاً أمام كنز منزل جدي. عندما واجهت أمي عائلة أبي في بيتهم لأول مرة في خريف عام 1340 [1961 م] عجزت عن الكلام وللحظة توقّفت عن الحركة لانبهارها بعظمة وجمال ذلك البيت الكبير، المكوّن من ثماني عشرة غرفة نوم وممرّات وأروقة وغرف ملكية رحبة وأواوين ومصطبة، ولو لم يكن أبي قد أمسكها من ذراعها في الوقت المناسب وقادها إلى الأمام، لفضح أمرها وبدت غير رزينة كأول عروس في العائلة أمام حماتها «كرد آفريد» ووالد زوجها جمشيد. كان المنزل في الواقع قصراً من العهد القاجاري، تُذهل قاعاته وأروقته وممرّاته، المشيّدة بالذهب والنقوش المجصصة والزخارف والمرايا، أعين كلّ متفرّج وتحبس أنفاس كلّ من قدم إليها. كان المنزل

زاخراً بالأشياء التي قرأت عنها روزا في الكتب ورأت صورها في مجلّات ما قبل الثورة: ساتان إيراني وصيني وهندي ملوّن، وأرائك ذات شراشيب، وستائر قطيفة إيرانية، وثريّات كريستالية ذات مئة شمعة، ومزهريات خزفية، ومصابيح أرجوانية، وأوانٍ خزفية ذات نقوش من الطيور والأزهار، ومساند ووسائد مطرّزة، وسجاد حرير من نائين وكاشان، ولوحات لملوك العصر القاجاري والبهلوي ولزكريا الرازي الجد الأكبر للأسرة، وطاولات وكراسي مطعّمة بالصدف والعاج لأساتذة أصفهان، وأرائك إيطالية وأوانٍ فضية ورفوف كتب يمكن العثور فيها على كتب من أي لغة؛ من الروسية والصينية والإنجليزية والفرنسية والألمانية إلى التبتية والسنسكريتية والآرامية والبهلوية واللاتينية والعبرية. كان المنزل، بهذه الكتب والأثاث التقليدي والحديث، عبارة عن مزيج من العصر القاجاري والبهلوي؛ تماماً مثل القاطنين فيه.

في تلك الليلة كان أبي -الذي بلغ للتوّ الخامسة والعشرين من عمره فقط- في طريقه إلى المنزل، بعد أسبوع من إقامته في المغارة الصغيرة التي كان قد وجدها بالقرب من الشلّال التوأم؛ حيث أمضى ذلك الأسبوع يعزف بشكل مفرط على آلة التار الخاصة به حتى ندّ الدم من رؤوس أصابعه، وتبرعمت الحجارة من الاستماع إلى عزفه، وأزهرت أزهاراً حجرية حمراء. وفي طريق العودة، حينما لم تكن الشمس قد غربت بعد، وفي سفح «دربند» وقعت عيناه على أمي التي كانت غارقة في مجموعة سهراب سپهري الشعرية، لدرجة أنها لم تكن ترى حولها أحداً ولا شيئاً حتى الغروب البرتقالي الجميل. لهذا استطاع أبي إشباع نظره منها وراح يراقبها. لم ترفع روزا رأسها قبل أن تفرغ من قصيدة «المسافر»، وفي الوقت الذي رفعت رأسها فيه، لم تكن حينئذٍ موجودة في هذا العالم ولم

تكن ترى أحداً في الأساس. كانت تتجوّل في عالم كانت هي وسهراب مسافرَيه الوحيدين. لم تكن تسمع من أصوات الأنحاء سوى الجلبة؛ وتعبر في ذهنها جملة فحسب، تشبه تكرار صوت وابل المطر على زجاج حجرة نوم الوحدة في الليل:

والحب، وحده الحب
اقتادني إلى رحاب أحزان الحياة،
اقتادني إلى مقامِ إمكان أن أصير طائراً

في هذه اللحظة بالضبط اقترب أبي من أمي، ولو لم يستغلّ ذكاءه المعتاد لفقدها إلى الأبد. كان أبي ذكياً بما يكفي لبدء حديثه بأشعار سهراب سپهري، وإمداد أمي بالمزيد من المعلومات الجديدة عن الشاعر، لتشعر منذ اللحظة الأولى أن بينهما الكثير من الأشياء المشتركة. وهكذا حدث أنه لم تحلّ الساعة العاشرة مساءً بعدُ حتى أقدمت روزا على الفعل الأكثر جرأة في حياتها، إذ وافقت على الزواج به دون استشارة العضو الوحيد المتبقّي من عائلتها -أي أمها- وأخذ موافقتها. وخرج المأذون المعمّم -متجمّداً وخائفاً من أطياف الضباب والظلام- من ظلمة منحدر حيّ «دربند»، ووافق على عقد قرانهما في اللحظة ذاتها مقابل مبلغ عشرين توماناً.

فقط بعد سنوات عديدة، عندما ألححنا ذات يوم أنا وبيتا وسهراب كثيراً على أمي وأبي، لنعرف لماذا يبدأ اسم سهراب بحرف الـ«سين» خلافاً لاسمينا، روت أمي أخيراً كيف أنها ذهبت ذات يوم إلى شارع ناصر خسرو -حيث كان في تلك السنوات شارع المكتبات- واشترتْ كتاباً قد صدر حديثاً باسم «المسافر»، وعند قراءتها تلك القصيدة الطويلة، ارتفعت قدماها فجأة فوق الأرض وحلّقت فوق المارّة وبائعي الكتب والباعة المتجوّلين، بينما كان رذاذ المطر يهطل على مسافرها. وعندما كانت

أمي تروي لنا ذكريات ذلك اليوم، كان أبي يأخذ نَفَساً من غليونه ويستمع إليها باهتمام. عندما رأت أمي باستغراب، وهي تقرأ كتاب المسافر تحت رذاذ المطر، أن قدميها ترتفعان عن الأرض، وأنها تحلّق فوق الناس في شارع ناصر خسرو، عادت إلى وعيها بلمسة يد رجل شابّ على كتفها. كان الرجل نحيفاً جداً وله لحية كثيفة، فبدا أشبه بجماعة الهيبّيين، ولولا كلماته المهذّبة واللائقة، لكان من الممكن لأمي أن تتعامل معه بغلظة، لأن ذلك الرجل الهزيل الملتحي تسبّب في أن تلتصق قدما أمي وتنزلا من الهواء إلى أرضية رصيف شارع ناصر خسرو المرصوصة بالحجارة مرة أخرى. ألقى الشاب نظرةً على أمي وقال إن محفظة نقودها قد سقطت على الأرض؛ ودون أن تشكره، التقطت محفظة النقود وهي لا تزال غارقة في «لكَم قلبي منقبض/ ولا شيء/ لا هذه الدقائق المعطّرة، التي تنطفئ فوق أغصان النارنج/ ولا هذه الصداقة الظاهرية/ الكامنة في صمت بين وريقات أزهار المنثور هذه/ لا، لا شيء ينقذني من هجمة فراغ الأطراف». واصلت طريقها. ولكنها لم تكن قد ابتعدت عدة خطوات حتى وضع ذلك الشاب ذاته، يده مجدّداً على كتف أمي على النحو السابق نفسه، ليسألها هذه المرة عما إذا كانت على استعداد لشرب القهوة معه. وأمي، التي رحّبت بالعرض هذه المرة، فاجأت نفسها والشاب معاً؛ لدرجة أن كليهما انفجر ضاحكاً. وبعد ساعتين من الحديث عن الروح السارية والنشطة في أبيات قصيدة المسافر، تكلّمت روزا عن تخرّجها حديثاً في المدرسة الثانوية وحلمها في أن تصبح شاعرة، وروى الشاب عن رحلته الغامضة إلى الهند التي عاد منها لتوّه، ومغامراته هناك؛ وبعد أن تحدّثا عن نفسيهما كثيراً لدرجة أن قهوتهما بردت مرة أخرى، تذكّرت روزا فجأةً أنه كان عليها العودة إلى المنزل في أسرع وقت ممكن، لأن والدتها العجوز

الوحيدة ستصبح قلقة عليها. فقط في وداعهما السريع، وعندما أُجبرت روزا، بسبب الظلام المبكر للجوّ، على الانفصال عن الشاب تحت المطر الغزير لتبتعد عنه ركضاً، سمعت اسمه وهي تعبر عرض شارع «شاه رضا» المزدحم، من بين أصوات الأبواق والمكابح والضغط على دوّاسات الوقود. كان اسمه سهراب سپهري.

قالت أمي إنها عند سماع هذا الاسم، ضعُفت ساقاها على الفور وكادت أن تصدمها سيارة. أرادت عبور الشارع مرة أخرى، وأن تصرخ، وتناديه، وأن تقول له: «لا تذهب... ابقَ!»، ولكن كان الأوان قد فات؛ إذ كان سهراب قد أدار وجهه واختفى وسط الحشد الذي يركض تحت المطر المفاجئ، وبقيت روزا وسط صخب الأبواق والمكابح، وبيدها قلم باركر، قدّمه لها الشاب تذكاراً. هذا القلم ذاته سرقه رجل دين بلهفة من على طاولتها، حين جاء بعد سنوات طويلة مع عدد من الحرس الثوريين لاعتقال ابنها سهراب. ربما يكون الخوف من الخسارة هو الذي دفعها إلى القبول فوراً بطلب زواج هوشنك منها بعد بضعة أشهر فقط. كان عليها ألّا تفقد سهراب آخر مرة أخرى. ولاحقاً، عندما اعترفت أمي لأبي بأنها لو رأت سهراب سپهري مرة أخرى، فلن تسمح أن يقع الانفصال بينهما أبداً، لم ينزعج أبي من كلامها كثيراً، لأنه كان قد سمع في العديد من الأوساط الأدبية والموسيقية وعن طريق أصدقائه أن سهراب شاعر منطوٍ ولم يكن لديه صديقة قطّ وليس ممن يتزوّجون. وكان توقّعه صحيحاً؛ فبعد سنواتٍ طويلة عندما نشرت الصحف في الأول من اردیبهشت من عام 1359(*)، في صفحاتها الأولى أن «الشاعر المسافر ذهب في رحلة أبدية»، كان سهراب لا يزال أعزب، ومع ذلك لم يبادر هوشنك إلى تحطيم قلب روزا وترك

---

(*) يوافق: 21 أبريل 1980 م. (م).

الخبر يصل إليها تلقائياً. وبعد بضعة أشهر، وفي أثناء تصفّح مجلّات أبي، قرأت روزا خبر وفاة سهراب سپهري في مجلّة أدبية، فتركها هوشنك تبكي طوال اليوم بمفردها على المسافر الذي فقدته.

وبينما كنت أتجوّل بين الأشياء المقدّسة المهجورة في العلّيّة، تذكّرت أن العلّيّة هي أيضاً محلّ اجتماع أرواح أموات العائلة ومكان احتفالهم الخاص؛ هذا ما أكّدته بيتا، فقد كانت تعتقد أنها سمعت ورأت صوت المشي والضحك من العلّيّة وتشغيل النور وإطفاءه لعدّة مرّات. قالت بيتا إنه مهما قاوم أفراد هذه العائلة الموت، بيد أن عدد الموتى فيهم ليس قليلاً قطّ. فذات مرة عندما كانت بيتا تجلس في مكتب أبي -الذي يصل إلى العلّيّة بالسلالم- في غيابه، وتستغلّ برودة غرفته وتقرأ كتاباً، رأت رجلاً هزيلاً جداً، بعباءة بيضاء من الحرير وطاقية زرادشتية بيضاء، هبط من السلالم. وما إن رأته بيتا بعينين جاحظتين حتى تعرّفت عليه، وخاطبته قائلة: «هل قطعت كلّ هذا الطريق لتخيفني؟!». لم يكن الرجل سوى جدّنا الأكبر، أي زكريا الرازي، العالم من القرن الثالث، ومكتشف الكحول ومؤلّف 184 مجلداً في علوم الطب والكيمياء والفلسفة. الشخص ذاته الذي كفّره الإيرانيون معتنقو الإسلام حديثاً، بسبب كتابته لمصنّفَين حول عدم جدوى وجود الأنبياء وأنهم مجرّد مخادعين، فقد أحرقوا كتابَيه الاثنين وأبادوهما. وعندما نزل الجدّ الأكبر من السلالم بظهرٍ محنيّ وعينين ضعيفتين بسبب غاز الزئبق وبخاره، التفت إلى بيتا وأجابها: «عليك أن تفعلي شيئاً من أجلي!»، فسألته بيتا التي كانت تشعر بقليل من الخوف: «لماذا أنا؟»، فأجاب الرجل الموشك على الموت: «لأنك ستكونين الوريثة الوحيدة للصندوق». فسألته من جديد: «أيّ صندوق؟»، وأجابها الجدّ الأكبر: «ستكتشفين ذلك لاحقاً. عليك أن تعديني أنك ستحتفظين

بالصندوق من شرّهم حتى الوقت الموعود!». وقد قال «هم» محرّكاً عينيه وحاجبيه بطريقة فهمت من خلالها من يقصد.

وكي تتخلّص منه سريعاً، قالت: «حسناً، أعدك بذلك. ولكن كيف يجب أن أفعل ذلك؟ فالأشخاص الذين تخشاهم موجودون في كلّ مكان؛ حتى في هذا المكان».

جلس الشيخ على الدرجة الأخيرة وقال متفكّراً: «أنتِ على حقّ». ثم فكّر كلاهما؛ وبعد رؤيتها لبشرة يديه المتغضّنة ووجهه المضيء، تخلّصت من خوفها شيئاً فشيئاً وباتت تشفق عليه. ورغبت في أن تفعل شيئاً له حقاً. ولهذا قالت: «متى يمكنك أن ترسلني إلى مكان يمكنني الابتعاد فيه "عنهم"، فإنني سوف ألتزم بوعدي لك».

فكّر الشيخ قليلاً ثم سأل: «أين مثلاً؟».

فردّت بيتا قائلة: «أنا أيضاً لا أعرف؛ فكّر بنفسك وابحث عن حلٍّ ما!».

عند سماعه هذا الكلام، نهض الشيخ من مكانه وصعد السلّم، بهدوءٍ ووقار، كما كان قد هبطه قبل قليل، لكي يتّحد مع الغبار والتراب على السجاد والبسط ولفائف القماش المنسية من العصر القاجاري، الجامعة للغبار تحت العوارض الخشبية. ذهب الشيخ، ونسيت بيتا كل شيء عن هذا اللقاء. ولكن بعد سنوات وفيما يدها تلامس ذيل السمكة اللزج، عاد هذا الحوار الغارق في غبار النسيان إلى الظهور مرة أخرى.

حتى ذلك الحين، لم أكن قد رأيت إلّا روحاً تائهة ذات مرة. كنتُ قد غفوت في عرزالي ذات ليلة ماطرة، واستيقظت من النوم على رائحة رطوبة باردة؛ لم يستدعِ الأمر إشعال المصباح، لأنه كان من الواضح أن أحداً ما هناك، قد اقترب بهدوء ورفع فتيل الفانوس وأشعله بعود الثقاب. كانت

روحاً تائهة لصيّاد سيبيري أضاع طريقه منذ سنوات طويلة؛ نهضت من مكاني وأعطيته كوب ماء وحبّتَيْ بطاطس مسلوقتين، لأنني كنت أعلم أن الأرواح التائهة دائماً ما تكون جائعة وعطشى. ودون أن يصدر صوتاً جلس في إحدى الزوايا، وأكلهما بنهم؛ وأثناء أكلهما طلب مني مِلْحاً فأعطيته، وبعد شرب الماء طلب كأساً أخرى فأعطيته. ثم دون أن أطرح سؤالاً عليه، أراني ثوبه المصنوع من جلد ظبي، وكانت تتدلى منه قطعٌ عدة من جلد الأرنب والثعلب وعدد من سكاكين الصيد المصنوعة يدوياً. قال إنه صيّاد سيبيري، وعندما كان على قيد الحياة خدعه شامان، إذ أخبره أنه إن استطاع صيد الدبّ الكبير، فإنه سيساعده على الزواج من ابنة زعيم القبيلة التي كان يحبها. إلا أن الدبّ الكبير مزّقه والتهمه، وتزوّج الشامان بابنة زعيم القبيلة. وتابع الرجل المسنّ إنه عندما تُوفِّي كان يبلغ من العمر حينذاك عشرين عاماً فقط، ولكنه أدرك بعد ذلك أن الأموات أيضاً يشيخون بمرور الزمن، ولكن بمعيار زمني مختلف. ومنذ ذلك الوقت حتى الآن يحترق تحسّراً من أجل الانتقام، لأنه بعد مرور ألف عام لم تسنح له الفرصة للانتقام بعد، مع أنه استطاع قطع رأس الشامان أربع مرات على مدار أزمنة مختلفة، وطعنه ذات مرة بالخنجر مسبّباً له جروحاً، لكنه كان لا يزال يشعر أنه لم يأخذ بثأره بما يكفي. كما أن الشامان الذي قد سلب منه الراحة، استطاع أخيراً في نهاية حياته أن يستخدم حيلاً وثنية تذكّرها من حيواته السابقة فأدخل روح الصيّاد داخل إعصار؛ وبعد ثلاثة أيام بلياليها من الدوران في دوّامة الإعصار، خرج أخيراً من مكانٍ ما، لكنّه إلى الآن وبعد مرور قرون عدة لم يستطع العثور على طريقه إلى سيبيريا. كانت مشكلته تكمن في أنه هو نفسه لم يكن في حالة نفسية مناسبة للإجابة عن أسئلته بسهولة؛ كما أن أرواح هذه المنطقة كانت من الأميِّين لدرجة أنها لم تكن تعرف من الأساس أين تقع سيبيريا في العالم، ولا حتى أماكن وجودها هي نفسها

في العالم. واسيته بأنني أعلم أين هو الآن، وأين تقع بلدته فهي في الجهة الشمالية، ولكن إذا أراد مني إعطاءه العنوان الدقيق، فمن الأفضل أن يعود ليلة غد لأريه المكان على الخريطة. فابتعد الرجل الهرم الذي لم يكن يصدّق أنني أستطيع إنقاذه من هذا الشرود الذي دام مئات السنين، واختفى في الهواء بينما كان يردّد لي بعضاً من الأوراد السيبيرية.

في ليلة اليوم التالي أحضرتُ خريطة العالم، وجلستُ مع الشيخ تحت ضوء الفانوس، وأشرت له أين نحن الآن وإلى أين يجب أن يذهب. ظلَّ الشيخ يلمس ألوان الخريطة بإصبعه طوال الوقت، فقد كان كلٌّ منها يمثّل دولة مختلفة، بدأ يطرح الأسئلة، ثم لزم الصمت في النهاية؛ صمت طويل. اعتقدت في البداية أن صمت الشيخ يشير إلى رضاه؛ ولكنني شيئاً فشيئاً أدركت أنه في حالة من الذهول الفلسفي. فتح فمه أخيراً وقال وعيناه ما زالتا على الخريطة: «إذاً، المكان الذي كنا نعيش فيه يسمّى كرة الأرض، وهي مستديرة؛ وكما تقولين، هناك العديد من البلدان والأراضي والقبائل، ويعيش سبعة مليارات شخص على هذه الكرة، وأنا لا أفهم بالطبع كم يعني هذا. ولكنني أدرك أنه يعني الكثير جداً».

ثم صمت برهة، وتابع: «أي كثيراً جداً جداً جداً. أكثر بكثير من عدد سكّان جميع القبائل السيبيرية». انتظرت لأرى ما النتيجة التي سيصل إليها؛ وبينما كنت منحنية على الكرة الأرضية، قال بعد تأمل عميق: «لا أعتقد أن الأمر يستحق العناء بعد الآن». سعدتُ بمجرد أن سمعت هذه الجملة المألوفة، وأردت أن أسأله ما الذي تريد فعله الآن، إلا أنه بادر قائلاً: «حسناً، ما دام كلّ هؤلاء الناس على قيد الحياة، إذاً كم عدد الموتى والأرواح التائهة التي تعيش على هذه الكرة؟ حسناً، لو أرادت أيٌّ من تلك الأرواح التائهة الانتقام من روح أو شخص آخر، إلى أيّ جحيم ستتحوّل

الأرض؟!»، ثم حدّق بعينيه اللوزيتين السوداوين إليّ، وكبت ضحكته فانتفخت وجنتاه اللتان قد لوّحتهما الشمس، وفي النهاية انفجر ضاحكاً. فضحكت أنا أيضاً بفعل ضحكته؛ ازداد صوت ضحكه شيئاً فشيئاً لدرجة أن الطيور النائمة هربت مذعورة، وأُضيئت مصابيح منازل المنطقة واحداً تلو الآخر. ثم نهض الصيّاد السيبيري من مكانه، وبينما كان يقهقه عالياً، خرج من الباب وابتعد في الهواء ملوّحاً بيده نحوي من الخلف؛ واضعاً يده الأخرى على قلبه الذي كان يرتجف من شدّة الضحك.

في نهاية ذلك اليوم الطويل البائس، الذي أُعدمت فيه جميع طيور السنونو التائهة في سماء إيفين، وبالتزامن مع عودتي إلى عرزالي، بعد التجوال ومراجعة الذكريات في الغرف وتحت السقيفة، علقت أمي وأبي وبيتا في دورية لعدد من أفراد البسيج والحرس الثوري الذين كانوا يأمرون بشكل مفاجئ السيارات بالتوقّف على طريق «فيروز كوه»، ليفتّشوا داخل الحقائب والصناديق للعثور على أي مادة محظورة. لم تكن هناك مشروبات روحية في سيارة أبي، ولا شرائط موسيقا ولا خطابات مسعود رجوي(*) وكيانوري(**)، ولا شريطاً لخطاب الخميني في مدرسة

(*) الزعيم السابق لمنظّمة مجاهدي خلق، وُلد عام 1948، ولكنّ تاريخ وفاته لا يزال مجهولاً، فقد مات في معسكر «أشرف» في العراق في سرّية تامة. شارك في النضال السياسي ضد حكومة الشاه واغتال عدداً من المستشارين الأميركيين، وبعد الثورة أيضاً اختلف مع الحكومة الإسلامية، فلجأ إلى اغتيال المسؤولين، ثم انتهى به المطاف في العراق حيث تعاون مع النظام البعثي عسكرياً من أجل الإطاحة بنظام بلاده. (م).

(**) الأمين العام الأسبق لحزب توده الشيوعي (1915–1999). أُلقي القبض عليه في مطلع ثمانينيات القرن الماضي، وقد اعترف تحت التعذيب بتسريب معلومات عسكرية إلى الاتحاد السوفييتي. (م).

الفيضية بمدينة قم(*)، ولا حتى أوراق اللعب ولعبة الطاولة. ربما لم يكن هناك سوى كتاب في إحدى زوايا السيارة. ومن اللحظة التي اقترب فيها البسيجي البالغ من العمر أربعة عشر عاماً من سيارتهم وهو يحمل بندقية جي 3 على كتفه، وركل إطار السيارة وقال ساخراً دون أن ينظر إلى أبي: «إنها سيارة أجنبية!»، وحتى سُمح لهم بالعودة إلى السيارة والاستمرار في طريقهم، وقفت أمي وأبي وبيتا لمدة ساعتين ونصف الساعة على جانب طريق ممر فيروز كوه الجبلي تحت البرد، مرتجفين. وقد قلب أفراد البسيج كل شيء رأساً على عقب، وفي نهاية المطاف عندما وجدوا أخيراً رواية ماركيز «مئة عام من العزلة» في حقيبة بيتا، تناقلوها من يد إلى يد لمدة ساعة، واتصلوا بهذا وذاك عبر اللاسلكي حتى اقتنعوا أخيراً أنه كتاب لا يشكّل تهديداً من الناحية السياسية. وعندما تحرّكت سيارة أبي ورأى الصبي البسيجي أنه ليس لديه أيّ عذر للتباهي أمام بيتا الفتاة الجميلة، بصق على الزجاج باتجاهها قشرة حب عباد الشمس كان يمضغها في فمه وضحك بأسنانه المسوّسة.

---

(*) من خطابات الخميني الأولى في عام 1963، والتي نصحَ فيها الشاه؛ لكنه في الوقت نفسه قال إنني لا أودّ أن تتم الإطاحة بك يوماً ويسعد الناس بمغادرتك.

# الفصل الخامس

للموت حسناتٌ كثيرة؛ يصبح المرء فجأة حراً، خفيفاً، ولا يعود يخشى الموت، والمرض، وحكم الناس والدين؛ ولا يعود مضطرّاً إلى النمو ليكرّر حياة الآخرين بذريعة قضاء حياته هو نفسه. وفضلاً عن ذلك، لا يكون مضطراً إلى الدراسة والإجابة عن أسئلة امتحانات من نمط ما أصول الدين وما مبطلات الصلاة. ولكن بالنسبة لي فإنّ أفضل مزية للموت هي أنني إذا ما أردت معرفة شيء فإنني سوف أعرفه؛ كن فيكون. سهلٌ كشرب الماء؛ وإذا أردت أن أكون في مكان ما، فسأكون فيه؛ دون أن أواجه أي مشكلة. لقد عرفت كل هذا في اليوم الذي متُّ فيه. في 20 بهمن عام 1357(*)؛ أي قبل يومين فقط من انتصار الثورة الإسلامية. متُّ في اليوم الذي دخل فيه الثوريون المتحمّسون بيتنا في منطقة «تهران بارس» وهم يصدرون أصواتاً عجيبة، بسبب غضبهم وكراهيتهم الثورية ويهتفون: «الله أكبر، الله أكبر!»، وهجموا على القبو حيث كان محلّ عمل أبي هناك، ورشّوا النفط والبنزين على جميع أعواد العزف المصنوعة يدوياً، والكتب وأخشاب التوت وأحرقوها. وأنا إذ كنت في الثالثة عشرة من عمري فقط

---

(*) يوافق: 9 فبراير 1979 م. (م).

وأتمرّن هناك على العزف، زحفت مذعورة إلى تحت الطاولة بعد إغارتهم الوحشية وأصابني الشلل من شدّة الرعب. ورأيت بعيني كيف أنهم رشّوا النفط والبنزين بسرعة في كلّ مكان وألقوا بالقدّاحة. جروووووممب.

حدث كلّ شيء بسرعة كبيرة ولا أتذكّر كم تألمت أو صرخت، لكني أتذكّر رائحة احتراق لحم جسدي وصوت أزيز شعري المجعّد الذي يحترق. نظرت إليهم جميعاً للحظة من خلال لهيب النار المرتعش، عبر الرواق والنافذة؛ وإلى أمي التي أُغمي عليها بين أيدي النساء أنفسهن اللائي أشعلن النار باسم مكافحة أدوات اللهو والاستمتاع. وإلى أبي الذي قد احترق نصف جسده، وبات محاطاً بين الثوار أنفسهم الذين كانوا حتى قبل بضعة أشهر ينادونه بالـ«أستاذ»، وإلى بيتا وسهراب، اللذين من كثرة صراخهما، سقطا على أرضية الفناء ولم يعد يصدر عنهما أي صوت. ارتجفوا جميعاً للحظة واختفوا؛ ثم... مرة أخرى... عادوا للحياة. ومع ذلك، بعد كل هذه السنوات، أشعر بالسوء عندما أتذكّر كيف ألقى أبي بنفسه في وسط النار بسببي، وكيف اشتعلت النيران وأحرقت نصف جسده، فأخرجه الناس ونقلوه إلى المستشفى. ما زلت أتذكّر كيف كانت أمي ترفرف -محاولةً إيصال نفسها إليّ أو إلى أبي- بين الأيدي الملطّخة بالزيت للنسوة اللواتي جئن وهنّ يحملن المغارف لإطلاق العنان للحماسة الثورية وتفريغ بؤسهن وعقدهن النفسية على سعادتنا الهادئة.

في ذلك الوقت، لم تكن لديّ أيّ فكرة عن الموت وعن الحياة بعد الموت، ولم أكن أعرف أن كل موت هو إشارة إلى حياة أخرى؛ لذلك بينما كان جسدي لا يزال يحترق في النار، رأيت من الأعلى كم أصبحت خفيفة فأُصبت بالاندهاش. أدركت كلّ شيء بسرعة كبيرة؛ وهو أنني في الوقت الذي فقدت فيه قدراتي الجسدية، توسّعت قدراتي الأخرى،

وعرفت ما هي المسارات التي لم تسلك بعد وكيف يمكن المضي فيها، وعرفت أخيراً أنه من الأفضل الاستسلام لرغبات أمي وأبي وأخي وأختي والسماح لهم برؤيتي مجدداً بدلاً من أي عمل آخر.

في الأيام الأولى بعد إحضار أبي من المستشفى، ساد المنزل صمتٌ رهيب لدرجة أنه جعل الجميع يشعرون بالخوف؛ فلم يعد أحد يذهب إلى القبو، حيث كان الدخان والنار قد وصلا حتى الفناء وأحرقا الأزهار والأشجار. الجدران المغطّاة بالدخان حتى الطابق السفلي والفناء، وكذلك أشجار الكرز والخوخ الجرداء ذات الجذوع المحترقة، جعلت جوَّ المنزل حزيناً وكئيباً، لدرجة أن فراشات الربيع ويعاسيبه لم تعد تمرّ عبر فناء منزلنا أيضاً. وتوقّف أخي وأختي أيضاً عن الذهاب إلى المدرسة. ذات يوم، عندما كنت أشعر بالملل من كل هذا الحزن والكآبة، صرتُ مشاغبة، إذ رحت أدندن لأمي بينما كانت تستحمّ وهي تبكي بصمت، أغنية «أيتها السيّدة، السيّدة، السيّدة! هيّا، اجلسي على ركبتي!»؛ ووضعت مرهم دسيتين لعلاج الحروق على كتفي أبي اللتين أصابتهما الحروق، وهو يجلس على الأريكة وتسيل الدموع من زاوية عينه. وعبثت بكتب بيتا وسهراب في حقيبتيهما وحرّكتهما.

وفي يوم آخر، وضعت غطاء طنجرة الضغط في حقيبة سهراب المدرسية، ووضعت حذاء بيتا في الثلّاجة، وكرّرت هذه الأفعال كثيراً لدرجة أن والدتي ذات يوم، وهي مستلقية بملل على السرير كعادتها في تلك الأيام، لم تستطع تحمّل دغدغاتي لها، فانفجرت ضاحكةً بصوتها الجميل. فما كان من أخي وأختي وأبي -الذين لم يسمعوا ضجيجاً عالياً أو ضحكاً في المنزل منذ مدة طويلة- إلا المجيء مسرعين ليجدونا جالستين على السرير موليتين ظهرينا لهم، تعانق واحدتنا الأخرى ونضحك. وهكذا

حدث أنني واصلت حياتي اليومية مع عائلتي. وأحياناً كانت أمي تنسى وتحضر الكتب المدرسية لتذاكر لي، وتساومني بيتا على غسل الأطباق كالمعتاد، في حين أن سهراب لم يتوقّف عن السؤال عن عالم الموتى.

أصبحتُ إشاعة غامضة بين أفراد الأسرة؛ أولئك الذين حضروا جنازتي لاحقاً شكّكوا في سلامتهم العقلية عندما رأوني أطهو مع أمي أو أطالع كتاباً مع أبي. تسبب هذا الحادث في أن تصبح جملة الجد جمشيد الشهيرة، على لسان جميع أفراد العائلة. فقد قال -وهو الذي كان يراني في بعض الأحيان ولا يفعل في أحيان أخرى- ذات يوم بنبرة الفلاسفة: «في هذا العالم، لن يصبح أيّ شيء سبباً لأيّ شيء آخر». وهكذا حدث أن تقبَّلني الأقارب القريبون والبعيدون شيئاً فشيئاً كمخلوق غامض هارب من المعاني والتفسير.

بعد تلك الحادثة التي كانت أمي تطلق عليها اسم «غزو الأعراب»، قرّرنا جميعاً مغادرة طهران؛ وكانت بيتا هي الوحيدة التي وجدت صعوبة في تخطّي الأمر، إذ كانت لا تزال تفكّر بسذاجة أننا لو بقينا هنا في طهران، فستتمكّن هي من مواصلة دروس الباليه، وتصبح بعد عدة سنوات راقصة باليه عظيمة. عندما أطلعها أبي على عددٍ كافٍ من المجلّات والصحف التي قد أُعلن فيها حديثاً، بذُعر، أن الرقص والموسيقا وغناء النساء ممنوع، اقتنعت أخيراً بحزن. وكما قال أبي لا يمكننا المشاركة في احتفال الأوباش وشهر العسل الخاص بمحدثي النعمة والمعمّمين -كما وصفه- أو مشاهدة كلّ تلك المظالم وشهوة الانتقامات الثورية، والتزام الصمت. لم يكن بإمكاننا أن نشاهد كل يوم وعلى شاشة التلفزيون مشاهد إعدام مسؤولي نظام البهلوي وقادته، أو توبة السجناء السياسيين الذين كانوا يعتذرون لزعيم الثورة العظيم، بوجوهٍ شاحبة وكلامٍ متلعثم، قائلين: «لقد

خُدِعنا!». ولم يكن بإمكاننا تحمُّل نهب الناس لمنزل الرسّام الشهير ألبرز، تحت مسمّى محاربة الطواغيت، ثم بيع لوحاته باهظة الثمن خلف شاحنة نقل، في زاوية الشارع، بالمزاد العلني بسعرٍ بخسٍ للغاية.

ذات مرّة كان أبي يمرّ بحيّ «شور آباد»، ورأى أنهم يحرقون تلاً من أشرطة الكاسيت ومجموعة من الأفلام الإيرانية والعالمية. كان فصل الشتاء، وبينما كانت بلورات الثلج تذوب على ألسنة اللهب، وقف مسؤولو الوزارة، الذين كانت مهمّتهم مراقبة النتاجات الثقافية، حول جبل النار وهم يضعون أيديهم في جيوب المعاطف الخضراء التي أصبحت موضة الثوار في تلك السنوات، وراحوا يروون ذكرياتهم مشيرين إلى أغلفة الأفلام الفارسية القديمة، ويضحكون.

كان هذا كافياً بالنسبة إلينا؛ ربما كان لا يزال لدى الآخرين القدرة على التحمّل، أو ربما قد أعدّوا أنفسهم لرفع مستوى تحمّلهم أمام هذه الأحداث التي باتت يوماً بعد يوم أكثر قسوةً ووحشية؛ لكن بالنسبة إلينا، أي بالنسبة لعائلتنا، كان هذا كافياً. كان بإمكان الآخرين رؤية امرأة حبلى تعتنق الديانة البهائية تُلقى من سطح منزلها، باسم الإسلام، وبهتاف: «الله أكبر»، وشيئاً فشيئاً سيعتاد الناس إقامة مراسم الإعدام في الميادين والمنتزهات أمام منازلهم بدلاً من السجون. وأبي الذي دائماً ما يؤكّد على كلمة «يريدون» كان يقول إن أغلب الناس يريدون اعتياد كلّ شيء؛ وكأنّ هذا القرار قد اتخذوه من قبل، في الوقت ذاته الذي استولوا فيه على الغنائم، والأراضي، والوظائف والمنازل، والشركات، والمصانع ممّن كانوا يسمّونهم الطغاة والمرفّهين وأعداء الإسلام، وقسّموها في ما بينهم، وانتقلوا بين عشيّةٍ وضحاها من مهمّشين وقرويين إلى موظّفين وعناصر في الحرس الثوري ولجان المدينة. ولذلك قرّرنا جميعاً بيع المنزل الذي أحببناه كثيراً في يوم

من الأيام والذهاب إلى مصير مجهول عبر غابات مازندران، لعلّنا نعثر على مكان ليس فيه تلفاز، ولا صحيفة كيهان، ولا لجنة الأخوات اللواتي يحملن أسلحةً ويضعن المناديل على رؤوسهن، واللائي كنّ قبل الثورة بائعات للهوى في منطقة شهرنو(*)، والآن باتت مهمّتهن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أردنا فقط أن نلتزم الصمت ونختفي من صفحة تاريخ قذرة لمدينة باتت تصبح يوماً بعد يوم أكثر عنفاً وقسوة وإجراماً.

في بداية فصل الصيف من العام التالي، وفي اليوم الذي جاء فيه سمسار العقارات لشراء المنزل بثلث سعره، صُدمت أمي وسارت في زوايا منزلها السابق المفضّل وراحت تتحدّث مع نفسها. كانت تجلس في الشرفة بجوار زهرة الثلج نصف المحترقة التي نمت حتى سقف غرفة الضيوف، أو تذهب إلى العريشة الممتلئة بأزهار البيدة حيث تتدلى منها أزهار الفوشيا كالأقراط وتجلس هناك لدقائق طويلة. وفيما تتذكّر الماضي وهي تجلس على كراسي الإيوان وترتشف الشاي، كانت تنظر إلى المارّات اللائي أصبحت معظمهنّ يضعن المناديل على رؤوسهن أو يتلفّعن بالشادور، فتدمدم بحسرة مع نفسها: «على النساء الآن خنق شعرهن كما خنقن أصوات ضحكاتهن. ومن كثرة ما راحت البيوت والأحلام تصغر يوماً بعد يوم، فقد باتت الفراشات تغادر المدينة أيضاً. وسترتفع الجدران مرّة أخرى ويشتري الناس الستائر السميكة لنوافذهم، ولن تعود الشرفات مكاناً لأصص الأزهار والكراسي والشاي والكتب، بل ستصبح مستودعاً للأشخاص الذين اعتادوا مشاركة قمامتهم مع الآخرين».

وفيما كنا ننتظر جميعاً قدوم سمسار العقارات لإبرام الصفقة، جلست أمي على درج القبو المغطّى بالسواد، وهي تمسح بيدها على سخام

---

(*) حيّ في جنوب طهران كان فيه مجموعة من بيوت الدعارة والحانات.

الحائط وتحدّق إلى سواد القبو، وتنبّأت مثل نبيٍّ منبوذ، قائلة: «لقد قتلتم ابني البريء، انتظروا لتروا كيف أنهم سيقتلون أولادكم الأبرياء!».

غادرنا في اليوم نفسه الذي حصلنا فيه على المال من السمسار، دون انتظار يوم آخر؛ وبعد عدّة أيام من سيرنا في الغابات والطرقات ومنعطفات الطرق الترابية والموحلة المجهولة وضياعنا فيها، وصلنا أخيراً إلى القرية التي ما إن رأى أبي عيون سكّانها الهادئة والمرتاحة حتى أدرك أنه المكان ذاته؛ المكان الآمن ذاته الذي يجب أن نكون فيه؛ أي رازان.

ومن بين الأراضي التي عرضها علينا سكّان القرية لبناء منزلنا عليها، أحبّت أمي -بعد رؤيتها معابد النار الأثرية القديمة والمُدمّرة على الرابية المطلّة على القرية- الأرضَ التي تبلغ مساحتها خمسة هكتارات، والتي لم يفكّر أحدٌ في بنائها وإحيائها على الإطلاق، بسبب بُعدها عن القرية وطريقها السيِّئ. في الحقيقة لم يكن في القرية من يشتري أرضاً من شخص آخر؛ إذ إن أرض الله كانت لا تزال ملكاً للناس. وكما يقدّم الأناس الطيّبون الأضاحي لجيرانهم، أعطونا تلك الأرض التي تبلغ مساحتها خمسة هكتارات وقالوا: «إنها أرض الله؛ أعمروها!». في ذلك اليوم عندما وقفت أمي على تلك الرابية، التفتت إلى أنقاض معبد النار وقالت: «لقد هربنا أيضاً، مثلما فعلتم تماماً، أيها الزرادشتيون، قبل 1400 عام!».

لكن عندما وضعنا أول حجر أساس لبناء المنزل على الرابية المطلّة على رازان، بالقرب من الغابة ومعبد النار القديم، لم نكن نتصوّر قطّ كم أن هروبنا سيكون بلا جدوى؛ لأنه بعد تسع سنوات فقط من ذلك اليوم، سوف يداس الطريق المؤدّي إلى القرية، تحت عجلات سيارات الملّا وحرّاسه الشخصيين، ليصعدوا إلى الدرب المفضي إلى البستان ويصلوا إلى منزلنا. كنت أراقبهم من عرزالي وتساءلت مع نفسي: بأيّ وقاحة

سيبلغونهم بالخبر؟! كانت بيتا وأمي، اللتان سمعتا أصوات سياراتهم من بعيد، تنتظر كلٌّ منهما في غرفة لتريا ما الذي يريدونه هذه المرة، بعد أن أصبح المنزل الآن خالياً من سهراب والكتب. كان أبي يقف في الإيوان وحاجباه مرفوعان وهو يدخّن غليونه. لم يخرج الملا من سيارته، دخل أحد عناصر الحرس الثوري إلى الفناء وقال: «خلال ثلاثة أيام كونوا في حديقة لونا بطهران!».

بعد ثلاثة أيام باتت حديقة لونا بطهران -المكان الذي كان يذكّرنا بضحكات طفولتنا وألعابنا وتسلياتنا والفوشار والذرة المشوية المملّحة وصورنا المبتسمة الفورية- باتت تعجّ بدوريات عناصر الحرس الثوري المسلّحين والضباط بملابس مدنية وبيدهم اللاسلكي، وقد أطفؤوا ألعاب السفينة المقلوبة وقطار الرعب لكي يبثّوا الرعب الحقيقي في حياة الناس المقلوبة رأساً على عقب.

كان أكثر من ألف رجل وامرأة يرتدون ملابس سوداء ينتظرون سماع أرقامهم عبر مكبّرات الصوت المثبّتة على الأشجار، ودولاب الهواء، والسفينة المقلوبة، ومحطة قطار البهجة. الخشخشة ولغة الشخص الذي يصرخ ويسب ويلعن بصوت عالٍ، جعلا الفهم مستحيلاً. صرخ عبر مكبّر الصوت قائلاً لأحدهم: «اخرس وانكبّ هناك!»، وصرخ لآخر: «وهل أنت أصمّ؟ لقد قلتُ لك إن ابنك أُعدِم، وهذه هي أغراضه، اذهب قبل أن نعتقلك أنت الآخر أيضاً!».

وكان منهم من يقف قلقاً محتاراً في زاوية الفناء، مثل أبي، ويحدّقون إلى الرقم الذي في أيديهم؛ لم يكونوا يعلمون هل ذلك الشخص الذي يسبّ ويلعن عبر مكبّر الصوت من النافذة الصغيرة الوحيدة بصوت عالٍ ولحن خشن جداً، سيعْلمهم بميعاد الزيارة، أم سيعطيهم حقيبة ملابس

ابنهم السجين. كان أكثر من نصف الناس يجلسون ويضربون على رؤوسهم ويبكون. وبعد ثلاث ساعات، انضمّ أبي إلى الجالسين، وبدلاً من لقائهم بالسجناء، استلموا حقائب وسمعوا صراخاً يقول: «إقامة مراسم العزاء ممنوعة، ومكان الدفن غير معروف أيضاً!». فقط أتيحت الفرصة أحياناً لبعض الأشخاص من بين الحشد مرتدي السواد الجالسين أن يقولوا لبعضهم البعض وسط البكاء: «أطفالنا هناك؛ إما في خاوران أو في الصحراء!».

خيّم الصمت على البيت مرة أخرى مثل تلك الأوقات التي احترقت فيها حياتنا؛ وكذلك أعواد العزف والكتب وأنا.

هذه المرّة تحوّلت ألوان السعادة في بيتنا إلى لون الحزن الكئيب؛ لم يكن هناك أيّ داعٍ لارتداء ملابس العزاء، فقد أصبح العالم أسودَ، والأشجار سوداء، والسماء سوداء، والثلج أسود. الثلج الذي بدأ بالتساقط فجأة في منتصف قيظ الصيف، ولم يتوقّف إلا بعد مئة وسبعة وسبعين يوماً بلياليها... كانت قد مرّت فترةٌ من إشراقة أمي غير المتوقّعة أعلى شجرة البرقوق الأخضر، وقد باتت تشعر وتشمّ وتفهم كلّ شيء دون التفوّه بأيّ كلمة.

في صباح ذلك اليوم الذي عاد فيه أبي من طهران إلى المنزل بكتفين متدلّيتَين وعينين حائرتين مذعورتين؛ بدأ الثلج يتساقط من الغيوم السوداء بعنادٍ، لدرجة أنه لم يدع مجالاً آخر للشكّ لأمي وبيتا. خاصة عندما ظهرت في الصباح فراشة العثّ الكبيرة وهي ترفرف بجناحيها خلف نافذة غرفة نوم أمي. وعين بيتا اليسرى راحت ترتعش باستمرار، ونعقت مجموعة من الغربان بشكل جماعي حول منزلنا. عندما رأت بيتا فراشة العثّ البنية، لم تعد تشكّ في أنها روح سهراب التي جاءت إليهم لتودّعهم، ومع

ذلك تجاهلت كلتاهما هذه العلامات وحاولتا عدم التفكير بشكل سلبي، لكن توتّرهما اشتدّ ولم ترغبا في فعل أيّ شيء. لذلك جلستا في الإيوان وراحتا تنظران إلى السماء والثلج والعاصفة السوداء التي بلّلت تنّورتيهما وسوّدتهما.

عندما عاد أبي إلى البيت في منتصف الليل مبلّلاً متجمّداً من البرد، لم يقل شيئاً وهما أيضاً لم تسألاه عن أي شيء. حمل الحقيبة مباشرة إلى غرفة سهراب، ثم ذهب تحت دشّ الماء الساخن ولم يخرج إلا بعد ثلاث ساعات؛ ولمّا خرج، سمع صوت سكّان القرية المذعورين وهم يصرخون إنّ الثلج أدّى إلى انهيار أسطح منازلهم.

تساقط الثلج الأسود لمئة وسبعة وسبعين يوماً، وأصبح الأرز موحلاً في حقول الأرز، وتعفّنت حقول الباذنجان والطماطم، والتصقت أجنحة الفراشات واحدها بالآخر وتآكلت، وماتت الطيور المبلّلة بالماء من فرط الجوع، وولدت الأبقار عجولاً ميتة، وصرنا نراقب الموقد بالترتيب حتى لا ينطفئ، لأنه لم يعد هناك نفط وقد تبلّلت أعواد الثقاب من الرطوبة وتساقط منها الكبريت. وكنت أجلب كل يوم تحت تساقط الثلوج المستمر، بضع أكوام من الخشب من الغابة وأضعها في الإيوان، كنت أنظر إلى عائلتي في أثناء ذهابي وإيابي، كم أصبحوا شاحبين ومتجمّدين في أماكنهم؛ أنظر إلى الأشخاص الثلاثة اليائسين المغتمّين المتبقّين من عائلة كانت في يوم من الأيام تتكوّن من خمسة أفراد عامرين بالأمل والسعادة. تعفّنت جدران المنزل وامتلأت بالطحالب، وثُقب السقف الجملوني الصدئ، وكان صوت قطرات الماء المتساقطة من أسقف الغرف في الأواني المعدنية هو الموسيقا الحزينة الوحيدة التي كان يمكن سماعها في المنزل وسط أصوات البرق والرعد والانهمار البطيء ولكن المستمرّ للثلج. مع ذلك،

لم ينطق أيٌّ منهم ببنت شفة، لا أمي، ولا بيتا، ولا أبي، ولا العصافير المسكينة المبلّلة التي لجأت إلى إيوان منزلنا من الغابة.

كان الطقس قد تبلبل وراح يُخطئ في مواعيده، فغطّت الرطوبة والبرد المتزامن معها كلّ شيء، واسودّت أظفارنا وأصابعنا من كثرة البلل والرطوبة، وتورّمت. وفي اليوم الذي رأينا فيه صفحات المذكّرات والكتب التي اشتريناها مرة أخرى في هذه السنوات من الباعة الجائلين في شارع الثورة قد التصقت ببعضها البعض وتناثر حبرها، رحنا نفكّر كم هو جيّد على الأقل أن صندوق المخطوطات والكتب الخاصة بجدّنا الأكبر لا يزال في طهران وفي مكانٍ ما جافّ. وفي الليلة الأربعين بالضبط، حين كنا جميعاً نجلس في صمت حول موقد الحطب، ولم نعد نهتمّ بأيدينا وأطرافنا السوداء وبطوننا الجائعة، طرق الباب الخارجي رجلٌ يرتدي قميصاً أبيض وقد شاب شعره ولحيته الطويلة، ومرَّ بجانب العصافير دون أن يخيفها، ولم نكن قد نهضنا من أماكننا بعد حتى فتح هو باب المنزل بنفسه وأتى وجلس بجوار أبي أمام الموقد. كانت هناك ابتسامة باهتة قد ارتسمت على شفتيه البارزتين؛ ثم رفع يديه للصلاة نحو النار، وراح يقرأ: «الصلاة لك أيّتها النار، السلام عليكِ أيّتها النار! إن قول الحق لهو أفضل الأعمال الصالحة، وهو الرضا؛ الرضا للشخص الذي يريد الحقّ للحقيقة الأسمى، عسى أن تجلب لكِ أيتها النار، يا شعاع أهورا مزدا، رضا وثناء الخالق ومخلوقاته. أنيري في هذا المنزل؛ استمرّي في إنارته، اشتعلي في هذا البيت وباركي هذا البيت للأبد، إن قول الحق لهو أفضل الأعمال الصالحة وهو الرضا!».

قرأ الشيخ الطاهر هذا، ثم انحنى قليلاً ليعبّر عن احترامه وتراجع إلى الخلف، ولم يكد يصل إلى نافذة غرفة المعيشة حتى اختفى وامتزج

بظلام الليل، كنا مصرّين على صمتنا لدرجة أننا لم ننطق بحرف طوال الوقت الذي استغرقه ما حدث، واكتفينا بالتحديق إلى نار الموقد التي اضطرمت فجأة وراحت تتصاعد. ومن بعد ذلك لم تنطفئ نار موقدنا في الليالي الثلجية تلك كلّها؛ وكان الشيخ يأتي كل ليلة، مصطحباً معه في كل مرة عدة أشخاص آخرين، كانوا يجلسون بجوارنا بالملابس والهيئة ذاتها، ويردّدون الدعاء ذاته.

بعد عدّة ليالٍ، وفيما كانت مجموعة من الزرادشتيين ذوي الملابس البيضاء يتلون كالعادة صلواتهم للنار، وقعت عيوننا على الإيوان، حيث يقبع أحد سكّان القرية، وبرفقته زوجته وأطفاله الثلاثة المبتلّين، ينظرون إلينا من خلال نافذة الغرفة خجلين من طرق الباب. فتحنا الباب، وفيما كنا نسير بين الغرف ونتقدّم لمنحهم بعض مناشفنا وملابسنا الجافة إلى حدٍّ ما، رحنا نصيخ السمع إلى صلوات النار التي اعتدنا على سماعها، والتي كانت تُدفئ قلوبنا قليلاً. منذ تلك الليلة، بات سكّان القرية ينضمّون إلى المجموعة ذات الملابس البيضاء، فقد كانوا يلجؤون في جماعات عديدة حاملين قدورهم وبطانياتهم وموادهم الغذائية إلى منزلنا، باعتباره المنزل الوحيد المتبقي في رازان. فقد ثقّل الجليد المتساقط أسطح منازلهم وجعلها تسقط ركاماً، ونفقت أبقارهم وأغنامهم أو هربت إلى المرتفعات، وراحت دجاجاتهم وديوكهم المتبقية تعيش على الأشجار. كان بعض الناس يقولون إنهم قد شاهدوا الدجاج والديوك تثب من شجرة إلى أخرى مثل طيور الغابة، وتتزاوج مع الطيور البرّيّة. وقال آخر إنه رأى أبقاراً وأغناماً تعيش في كهوف على مرتفعات الغابات والجبال، وتلعق الأحجار الطبّية وتشرب من الينابيع المعدنية الساخنة بدلاً من تناول العشب.

بعد بضعة أسابيع، لم يعد هناك مكانٌ آخر للنوم ولا طعام للأكل؛

وعندما شعرت العصافير بغريزتها بالتهديد، خرجت من إيوان منزلنا ورحلت. في ذلك اليوم، ذهب خمسة شبّانٍ جائعين إلى الغابة بالأقواس والسكاكين، وعادوا في اليوم التالي ومعهم شاة وبعض الأرانب وخنزيران برّيّان ومئة عصفور. أشعلوا ناراً في الإيوان وشووها وأكلوها.

اعتاد الناسُ الوجودَ الغريب لذوي الملابس البيضاء الذين كانوا يأتون في الميعاد نفسه ويختفون في توقيت آخر كل يوم؛ وبوصولهم، كان الجميع يصمتون في اتفاق غير معلن وينصتون إلى صلواتهم، وما إن يختفوا حتى يبدأ الجميع بالثرثرة سريعاً وبصوت عالٍ كالعادة. كان أحدهم يبحث عن مكان للنوم والآخر يشكو من الجوع، وآخر يبحث عن ابنه الذي لم يكن معروفاً تحت أي سرير أو خزانة قد نام. ومع أن الجميع كانوا يبذلون قصارى جهدهم في عدم سرقة متعلّقاتنا الشخصية، إلا أنه ذات يوم عندما رأت بيتا حذاء الباليه الوردي الخاص بها في قدم أحد الأطفال، فقدت أعصابها وصرخت على الجميع قائلة إنها لم تعد قادرة على تحمّل كل ذلك الصخب والتنقّل والفضول؛ فصمت الناس وطأطؤوا رؤوسهم، وعندما قامت بيتا بعد ساعة من البكاء والصراخ والتذمّر، بشتم الأطفال الفضوليين والثلج الأسود وقتَلَتي أنا وسهراب والأرض الموحلة والثلّاجة الفارغة، انتزعت حذاءها من قدم ذلك الطفل وعادت إلى غرفتها. وعاد الناس مجدّداً بالسرعة ذاتها وبمهارتهم الموروثة، إلى الشجار والثرثرة بصوت عالٍ حول مكان النوم والطعام المتبقي. من بين هذا الحشد كان عيسى، حفيد السيدة حميرا، هو الوحيد الذي كان ينظر بصمت إلى الجميع، وبضمنهم بيتا، ولم يتفوّه بحرف، دون أن يعرف أنه بعد سنوات، وأمام لهيب النار، سيقضي وطره من بيتا، ثم يخونها ويتزوّج بدلبر، الفتاة الشقراء التي تقبع الآن نائمة في ذلك الجانب، وينجب منها خمسة أطفال.

بعد مرور بعض الوقت، وفي اليوم الذي أوشك فيه المنزل على الانهيار بسبب صخب الناس المستمر وتحرّكهم، تتبّعت ذوي الملابس البيضاء ورأيتهم جميعاً يختفون بالقرب من أنقاض معبد النار القديم - المكان الذي كان يعتقد السكّان المحليون أنه منذ قرون عدة كان مقبرة الزرادشتيين الهاربين من المناطق الإسلامية. أمسكت بطرف ثياب الرجل المسنّ ذاته الذي كان أول من جاء إلى منزلنا، وسألته: «ماذا تريد منا؟». بدا وكأنه كان ينتظر هذا السؤال منذ فترة طويلة، فأجاب: «الأمل، والسعادة والازدهار». الأشياء الثلاثة تلك التي اختفت من منزلنا منذ مدة طويلة. بعد أن قال هذا اختفى، ولم يعد مرة أخرى لا هو ولا رفاقه.

كاد نسل العصافير والخنازير البرية والأرانب أن ينقرض، لولا أن السماء أصبحت صافية تدريجياً في اليوم السابع والسبعين بعد المئة، وحلّت الغيوم الرمادية محلّ الغيومِ السوداء، وتحوّل الثلج الأسود والأمطار إلى مطر خفيف، وأخيراً توقّف المطر عند غروب الشمس. وكأن آذاننا التي اعتادت هزيم الرعد وضربات الثلج وقرقعة الماء في القدور المعدنية لمئة وسبعة وسبعين يوماً بلياليها باتت ثقيلة، ولم تعد ترغب في تصديق صوت صياح الديك على شجرة في غابة قريبة، أو صوت العصافير التي زقزقت معاً فجأةً، وحلّقت تحت ضوء الشمس الباهت. كان الهواء قد أصبح نقيّاً وخفيفاً كاليوم الأول من الخلق.

ركض الناس صوب الإيوان والفناء صارخين، ثم هتفوا ورقصوا ثنائياً -رجالاً ونساءً- واستعرضوا رقصهم الشعبي واحتضنوا بعضهم البعض؛ ولكن حتى الآن لم يتمكّن أي شخص من العودة إلى منزله عبر وادي رازان، لأن الثلج كان قد تساقط بكثرة لدرجة أن ملامح الأرض لم تكن واضحة. فاضطرّ الناس إلى الانتظار مجدداً، وبعد شهر ظهرت أرضٌ جديدة أسفل

طبقة الجليد السميكة، ولكنّها كانت قد فقدت طبيعتها، وتحوّلت إلى مستنقع أسود كبير يحيط برابيتنا من كلّ جهة ويجتاح كلّ شيء. انتظر الناس مرّة أخرى، لعشرين يوماً كاملةً، ثم بدأ بعضهم يذهبون يوماً بعد يوم من الرابية باتجاه الوادي، وجرّبوا الأراضي التي تشرق عليها الشمس بكامل سطوعها ليتفحّصوا الطرق. وفي النهاية عندما عاد النهر إلى مجراه القديم وعادت ألوان الشجر إلى ألوانها السابقة، وتحت أشعة الشمس الذهبية، أعادت الطبيعة إليهم كلّ شيء كانت قد أخذته منهم أسفل الجليد الأسود، وأصبحت الأرض تحت أقدامهم موثوقة مرة أخرى. فأمسك الرجال أيدي زوجاتهم وأطفالهم، وانطلقوا مع آخر قدورهم وأوانيهم المتبقية إلى الوادي، حتى يبدؤوا حياتهم من جديد؛ دون أن يقدّم واحدٌ منهم حتى امتنانه. تلك هي طبيعتهم، إذ إنهم كما يعطون دون أن يطالبهم أحد، يأخذون ما يرونه مناسباً أيضاً، تماماً مثل الأرض، مثل الهواء، ومثل الماء.

وشيئاً فشيئاً، انطلقت الدجاجات والديكة مع فراخها الغريبة والعجيبة، وكذلك الأبقار والأغنام مع صغارها المولودة حديثاً من الغابة والجبال إلى رازان. أزالت الشمس تدريجياً اللون الأسود عن الطبيعة، فظهرت الألوان الخضراء للنباتات مجدداً، وبات صوت غناء الرعاة وعزفهم على الناي يصل بعد ظهر كلّ يوم إلى بستاننا مجدّداً مع النسيم؛ وارتفعت تحت أشعة الشمس الحارقة آخر الأبخرة السوداء والسامة للأرض إلى السماء مثل أرواح الأجيال الهائمة، منضمّةً إلى السحب.

لا أعلم، أكانت حالة إشراقة شجرة البرقوق الأخضر هي التي جعلت من أمي شخصاً آخر، أم كان الثلج الذي تساقط لمئة وسبعة وسبعين يوماً، أم أنه بسبب موت سهراب، أم صلوات الزرادشتيين ذوي الملابس

البيضاء؟ خرجت أمي فجأة من قوقعتها، وأصبحت نشطة ومتحمّسة؛ ودون أدنى ابتسامة على شفتيها البارزتين اللتين بقيتا جميلتين، كانت تسير ذهاباً وإياباً من أقصى البستان إلى الطرف الآخر، ومن نهاية المنزل إلى الطرف الآخر، مثل الزرازير البرية التي تقفز جيئة وذهاباً من جانب إلى آخر، وباتت تزعجنا جميعاً بأوامرها: يجب غسل النوافذ السوداء، ويجب التخلّص من الملابس السوداء، وينبغي خياطة الملابس الجديدة، ويجب فصل البطانيات والملاءات والمراتب التي بقيت سليمة عن البطانيات والملاءات والمراتب الرثّة، وحرقها. ويجب إحضار كلّ السجاد المنسوج يدوياً في كاشان ونائين من العلّيّة والغرف إلى الفناء لتتشمّس -إذا لم تتلف بعد- لتجفيفها، وأما الكتب وجميع أعداد مجلّة الفردوسي، ومجلّة الأبيض والأسود، وأسبوعية «خوشه» و«كتاب الجمعة» الأدبية، وصحيفة آيندكان التي نجت من نهب الجرذان والملالي والثلج الأسود في صناديق العلّيّة، فيجب إحضارها إلى الإيوان، لتجفّ تحت أشعة الشمس.

وبينما كان أبي يفصل المجلّات الرطبة بعضها عن البعض الآخر، بحُزن، وينشرها على أرضية الإيوان تحت أشعة الشمس، قال: «ينبغي على الأقل أن تبقى هذه لأطفالك». آه.. يا لأبي المسكين الذي لم يكن يعرف أنه باستثناء الأسماك عديمة الذاكرة فإنه لن يبقى أحدٌ من نسله!

كان يجب طلاء الجدران مرة أخرى، وسدّ ثقوب الجملون بشمع الأشجار وصمغها. وكان على شخص ما أن يذهب للبحث عن الخيول التي هربت إلى الغابة وإعادتها. وكان يجب زراعة أزهار الكانوميلس، والياسمين الصفراء، وأشجار الرباطية والورد الجوري. وكان يجب إصلاح الجدران المتعفّنة والنوافذ الصدئة والأبواب المتآكلة؛ ولكن على الرغم من هذا كلّه فإن الشيء غير المتوقّع الوحيد كان الصوت. إذ مع

توقّف هطول الثلج وجفاف ألواح المنزل الخشبية، رحنا نسمع الأصوات شيئاً فشيئاً. خررت، خررت، خررت... لقد جاءت حشرات الأَرَضة، التي بدت بطونها ملتصقة بظهرها خلال فصل الشتاء من فرط الجوع، لتعويض خسارتها، وباتت منتشرة في كلّ مكان: في الأرائك والأبواب والنوافذ وأرفف المطبخ وخزائن الكتب الفارغة والأسقف. وفي اليوم الذي بات يُسمع فيه دبيب الأَرَضة عبر أعمدة الجدران، لم يعد بإمكان أحد تحمُّل هذا الوضع؛ وأدركنا أنه مع كل ما يجب فعله وما لا يجب فعله والإصلاحات، لم يعد من الممكن إنقاذ المنزل. كان أبي هو الذي قدّم أعظم تضحية في حياته، عندما قال إنه مستعدّ للذهاب إلى طهران واقتراض أموال من جدّي أو جدّه لإصلاح المنزل بالكامل؛ حينئذٍ تنفّسنا جميعاً الصعداء وسقطنا على الأرض العارية. إلا أن أحداً منا لم يضحك.. كان الضحك لا يزال مبكراً جداً على شفاهنا.

على الرغم من أن كلمات أبي كانت مشجّعة، فإنّ مشكلة نقص الأموال حُلَّت بسهولة أكبر مما كنا نظنّ جميعاً، عندما جاءت روح عفّت إلى غرفتي. في تلك الليلة عندما جاءت عفّت -التي لم أكن قد رأيتها من قبل- قالت إن على بعد عشر خطوات فقط من منتصف معبد النار المدمّر إلى الغابة، سنصل إلى صخرة كبيرة عليها علامة سلحفاة محفورة في الزاوية اليسرى السفلى منها. وإذا تحرّكنا اثنتي عشرة خطوة أخرى من الصخرة باتجاه الجنوب فسنجد صخرة أخرى تشبه الكرسي. بالجلوس عليها والنظر شرقاً حيث شروق الشمس، سنرى شجرة «زلكوفا نيرية الأوراق» طويلة ومعمّرة في الغابة. وإلى الجنوب منها، وفي عمق مترٍ واحد تحت تلك الشجرة، تنتظرنا جرّةٌ ملأى بالمسكوكات الذهبية من أسلافنا الزرادشتيين. وعندما سألتها لماذا تقول هذا لي؛ أجابت ببساطة:

«لأن والدك هو من عليه مساعدة سكّان القرية، وأن يمدّ لهم العون لبناء المنازل والمدارس».

لم تكن عفّت قد اختفت تماماً في الظلام عندما عدت إلى المنزل وأيقظت أمي وأبي وبيتا، وأعطيت كل واحدٍ منهم مجرفة؛ وبعد ساعاتٍ قليلة، وفي حالة من عدم التصديق، أخرجنا جرّةً ملأى بالعملات الذهبية والمجوهرات الساسانية من داخل قبر قديم من بين عظام وأوعية فخار، ووضعناها على أرضية غرفة الجلوس التي كانت لا تزال رطبة، وبينما كان أبي يفكّر في مشكلة بيعها وعواقب ذلك، قالت بيتا وهي تحمل قلادة مرصّعة بالأحجار الكريمة: «تحت كلّ متر من التربة في هذه البلاد يوجد كنز قديم».

كان أبي يعلم أن وزارة الاستخبارات، بقيادة عدد من الملالي الكبار في طهران وقُم، وضعت أيديها على جميع الكنوز التاريخية والأثرية، وسجنت المستكشفين الآخرين بسرّية تامة أو قضت عليهم، وراح مسؤولوها يتقاسمون الكنوز القديمة في ما بينهم. لهذا اضطرّ إلى أن يخاطر ويذهب إلى طهران بنفسه ليبيعها بمساعدة العم خسرو وجدّي، ووالد جدّي. بالطبع لقد كان محظوظاً لأن جدّي ووالد جدّي، اللذين أحبّا التراث الثقافي وآثار إيران القديمة كثيراً، لم يسمحا بحدوث مشكلة البتّة، وإنما صرفا من أموالهما واستبدلا الكثير من تلك الثروة التي لا تحصى بجزء من ميراث عائلتهما وممتلكاتهما ومدّخرات عمريهما.

ولكن مع ذلك، كان لا يزال هناك خطر؛ وكنا جميعاً قلقين بشأن مستقبل هذا الكنز الأثري الذي كنا نحتفظ به في بيت جدنا. خاصةً أنه منذ فترة أرسلت بلدية طهران عدّة رسائل مفادها أنهم يريدون شراء منزلنا، ولأنهم واجهوا الرفض، هدّد رئيس البلدية بفعل ذلك عن طريق القانون.

وبعد فترة، تلقّى أهلي رسالة من البلدية تفيد بضرورة بيع المنزل للبلدية من أجل بناء طريق سريع بدلاً من ذلك. حتى فكرته كانت كابوساً بالنسبة لنا؛ إذ كنا نعشق هذا المنزل الكبير المكوّن من ثماني عشرة غرفة نوم، بأروقته وممرّاته وزخارفه الخشبية، إضافةً إلى كونه جزءاً كبيراً من تاريخ عائلتنا وبلدنا. وفي النهاية وباستشارة عمي وأبي وجدتي وجدّي ووالد جدّي، توصلنا إلى استنتاج أنه يجب علينا أخذ زمام المبادرة. ولذلك اتصل العم خسرو بمراسل موثوق فيه كان يعرفه منذ سنوات؛ وبعد أسبوع، وبحضور مجموعة من الصحافيين، تبرّعوا بذلك الكنز الزرادشتي وبجزءٍ آخر من تراث العائلة إلى متحف كنوز إيران الوطنية، بصفتها تراث العائلة. التقط المصوّرون صوراً عديدة للقلادات والأساور والتيجان والعملات الأخمينية والساسانية واحدةً تلو الأخرى، وكتبوا عنها في تقارير مفصّلة. والآن بتنا واثقين جميعاً أن سرقة هذه القطع الأثرية لم تعُد أمراً سهلاً، على الرغم من أننا كنا نعلم أن لصوص الآثار كانوا متواطئين مع القادة السياسيين والاقتصاديين والدينيين، ولذا فليس هناك شيء مستحيل بالنسبة لهم.

في وقت مبكر من صباح يوم عادي، وفيما الشمس تشرق على الزهور، استيقظت رازان على صوت المركبات الثقيلة التي لم ترَها من قبل، ورأت صفّاً من شاحنات الأخشاب ومواد البناء خلف سيارة أبي، مع شاحنتين صغيرتين مليئتين بعمّال البناء المهرة وعربة كتب، قد دخلت القرية. ولستّة أشهر عمل سكّان القرية والعشرون عاملاً الذين جاؤوا من المدينة تحت أشعة الشمس الحارقة، حتى أصبحت رازان مكاناً يثير الحسد حتى عند عمّال المدينة أنفسهم؛ مكاناً لا يملّ أبي ولا أهالي القرية من النظر إليه: أزقة وشوارع مرصوفة، مع منازل ريفية كبيرة وقوية، طُليت جدرانها بألوان

طبيعية من الجصّ الأبيض والأزرق اللازوردي والترابي، ونهر أصبح الآن جارياً في قناة صخرية لم يعد من الممكن أن يفيض بسهولة، وقنّ دواجن كبير، وحمّامات دافئة تفوح من مائها رائحة أعشاب الغابات العطرة. انبهرت أعين الجميع بتنسيق الزهور في الشوارع والأشجار المثمرة في البساتين وحقول الأرز الكبيرة المقسّمة إلى مربّعات صغيرة بانتظام. وقد وصل الأمر إلى أن عدداً من العمّال وقعوا في حب فتيات رازان الفاتنات وتزوّجوهن. كانت أيام رازان السعيدة قد حانت، وراح الناس يعملون بطاقة وأمل، تاركين ذكريات الأبناء غير العائدين من الحرب في أعماق أذهانهم، وراحوا يرقصون في احتفالات بناتهم؛ وفي الوقت نفسه كانوا يبنون مدرسة، ويعملون مثل أسلافهم في معامل نسج الحصير والفخار ونسج الكليم والبسط، وفي مصنع القماش. في كل هذا التطوير، لم يفكّر أبي في إنشاء طريق البتّة، لم يكن يريد أيّ طريق يصل رازان بالمدينة. ربما لو كان الأمر بيديه لرغب في تدمير الطريق ذاته الذي خلّفته الشاحنات على التراب والعشب والمراعي أيضاً. وقد وظّف أبي ثلاثة عمّال من بين عمّال المدينة ممن تزوّجوا في القرية وبات بإمكانهم القراءة والكتابة، ليصبحوا معلّمين في رازان. والآن من أعلى رابيتنا بدت رازان بكلّ أسرارها وذكرياتها وأحلامها أكثر جمالاً وتلألؤاً من أي وقت مضى؛ ولكن بينما كان أبي ينظر من الإيوان بوجه راضٍ إلى الجهود المُسكِرة للحياة، لم تبتسم شفتاه ولو لمرّة واحدة. ربما كان مثلي ومثل الآخرين، يتساءل في كل مكان من حوله: لماذا لا توجد أخبار عن سهراب؟

# الفصل السادس

لم ترِد أخبار عن سهراب لأنه كان ينتظر؛ كان ينتظر أن ينتهي تنفيذ أحكام الإعدام، وقد انتهت فعلاً. يقول البعض إن ذلك كان في الخامس من مهر عام 1367(*)، والبعض الآخر يدّعي أنها نُفِّذت بعد ذلك. لكن أياً كان فقد انتهى الأمر وقُتل خمسة آلاف رجل وامرأة ومسنّ وشابّ وطفل في سجون طهران وكرج ومشهد وبعض المدن الأخرى، بتهمة انتماءاتهم السياسية والدينية فقط. وعندما ماتوا جميعهم في النهاية وأصبحت جثامينهم طعاماً للغربان والكلاب الضالّة في البرية، لم يقفوا مكتوفي الأيدي؛ بل انطلقوا.

أرواح خمسة آلاف سجين سياسي وديني من البراري وضواحي طهران وخاوران نهضت من أماكنها، ونظرت إلى الأجزاء المتناثرة من جثامينها المتعفّنة الممتلئة بالدود والرائحة الكريهة، فقد كانت في أفواه الغربان والكلاب تنتقل هنا وهناك. انطلقت بشعورٍ طافح بالكراهية الجماعية، إذ كانت تريد رؤية قاتلها عن قرب. كان بإمكانها في خلال جزءٍ من الثانية أن تكون في بيت الخميني وغرفة نومه -الشخص الذي وقّع على أحكام

(*) يوافق: 27 سبتمبر 1988 م. (م).

هذه الإعدامات- ولكنها قرّرت جميعها، دون أيّ كلمة، أن تسير في طريق الأيام غير البعيدة من حياتها الشخصية. ولهذا السبب انطلقت مجموعاتٌ من الأرواح التعيسة والحزينة من براري جنوب طهران وغربها وشرقها، ولاقت بعضها البعض الآخر عند مفترق طرق شارع «وليعصر». كانت الأرواح الحزينة تضع أيديها في جيوبها، وقد سرق بعضهم السيجار من المارّة وراحوا يدخّنونها في الطريق وهم يسيرون باتجاه ساحات «وليعصر» و«ونك» و«تجريش» وكذلك شارع جماران. كانت الأرواح تنظر إلى النساء والرجال الذين يمرّون بينهم دون أن يشعروا بهم حتى. وإلى الأطفال الذين يمكن أن يكونوا أطفالهم، وإلى المحلّات التجارية المزدحمة، والشوارع الملأى بالباعة المتجوّلين، ومسرح المدينة، وسينما القدس، وسينما إفريقيا، وحديقة ساعي العامة، وحديقة ملت. كم كانت الحياة حيّةً وصاخبة من دونهم؛ وملأى بغزل البنات والجوز بجانب دور السينما، وملأى بمتاجر بيع الملابس، والمكتبات ومحلّات الذهب. يا للصبيان الذين لا يزالون يغازلون ويقعون في الحب بنظرة واحدة ويلاحقون الفتيات ويعطونهن أرقام هواتفهم! كم كانت أشجار دلب شارع وليعصر مهيبة حتى الآن؛ وكم كانت طهران ملأى بالغربان والكلاب!

تسكّعت الأرواح كثيراً وابتلعت هواء الحياة إلى رئاتها التي لم تكن تمتلكها، حتى حلَّ الظلام، وشيئاً فشيئاً صرفوا النظر عن رؤية وجه قاتلهم؛ وأدركوا أنهم حزينون جداً فلم يعودوا يرون أن النيل من قاتلهم سيجعلهم يشعرون بحال أفضل. وفي مسار طريقهم، وهم ينظرون إلى وجوه البشر الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة، اتخذ كلٌّ من الحياة والموت شكلاً آخر بالنسبة لهم؛ وبات الحنين واليأس وجهان لعملة واحدة لقلوب الأرواح.

وشيئاً فشيئاً حلَّ الهدوء على المدينة؛ فخرج العشّاق اثنين اثنين من المطاعم ودور السينما، واختفوا في الأزقّة المتداخلة. انطفأت أنوار الدكاكين، وأشعل المشرّدون، الذين ينامون على قطع الورق المقوّى، النيران هنا وهناك، وتجمّعوا بعضهم حول البعض الآخر. أصبحت طهران فارغة، وتصاعدت روائح الأطعمة الساخنة من البيوت، وتسرّبت أصوات الدردشات المبهمة في جنح الليل من ثقوب النوافذ؛ وفجأة ضاقت صدور الأرواح كلّهم لدرجة أنهم انفجروا باكين. بدأت خمسة آلاف روح حزينة بالبكاء معاً وهم يصعدون إلى ميدان ونك. ذرفوا الدموع.. انفجروا باكين.. بكوا لأن قلوبهم البريئة تفتقد تناول العشاء مع أحبائهم؛ افتقدوا حساء قورمه سبزي، ومرقة قيمة بادمجان ووجبة زرشك پلو مع الدجاج(*)، افتقدوا الضحك بلا هموم بجانب أحبائهم، وتقبيلهم قبل قول «ليلة سعيدة». فسالت دموعهم وانهمرت حتى صارت فيضاناً.

كان المارّة القليلون المتأخّرون عن الحافلات الأخيرة ينظرون إلى السماء المرصّعة بالنجوم فوقهم، ويتساءلون من أين أتى هذا الفيضان. فقط مفترشو الأرض المدمنون والمجانين المشرّدون من رأوا بأعينهم الداخلية أن سيل الدموع ازداد، وسار أمام خمسة آلاف روح باكية وحزينة، فقد كانوا يتقدّمون مثل جيش مهزوم في أنحاء شارع وليعصر، ويستندون أحياناً إلى أشجار الدلب القديمة ويتنهدون، وعرج السيل باتجاه ساحة

(*) قورمه سبزي: من أنواع المرق المعروفة في بلاد فارس. مكوّنة في العادة من السبانخ والكزبرة والبقدونس والبصل مع قطع لحم؛ وفي بعض الأحيان تُزيَّن بحبات الرمان. وتؤكل عادة مع الأرز.
مرقة قيمة بادمجان: مرقة الحمص مع لحم الضأن والبصل ومزيج من البهارات الخاصة والباذنجان، وتؤكل مع الأرز أيضاً.
زرشك پلو: أرز مع حبات البرباريس المعروفة باسم زرشك وهي تشبه الزبيب ولكنها حامضة؛ وهذه الوجبة تعدّ رمز المطبخ الإيراني. (م).

تجريش وشارع جماران، واجتاز جسر النهر الجافّ، ومرَّ من تحت أقدام الحرّاس ورجال الأمن الذين يرتدون الملابس المدنية، ودخل الفناء وصعد السلالم، وبلّل السجاد ووجد طريقه مباشرة إلى غرفة نوم الخميني، وصعد من قوائم سريره الشخصي الذي يتسع لشخصٍ واحد، ووصل إليه، حيث كان لا يزال ينام نوماً مضطرباً في الساعة الثانية والدقيقة الثانية والثلاثين بعد منتصف ليلة صيفية عادية. كان يمرّ بكابوسٍ متكرّر؛ فقد كان يحلم أن الآلاف من أهالي الذين أُعدِموا قد التفّوا حوله في ساحة آزادي(*)، ومزّقوه إلى قطع بمخالبهم وأسنانهم وأظافرهم بوحشيةٍ لم تسمح لقطرة دم واحدة أن تسقط على الأرض.

فزَّ من نومه مذعوراً، وشعر بعرق الكابوس اللزج على أصابع يديه وقدميه وشحمتي أذنيه؛ استدار على الجنب الآخر، وحكّ لحيته الكثيفة الطويلة، وجلس في مكانه مرعوباً برؤية قميصه الواسع وفِراشه ووسادته وقد ابتلّت كلّها. إذ خشي أن يكون دمه حقاً هو ما بلّل المكان كلّه وجعله دبقاً. غمس إصبعه في البلل ولعقها بلسانه؛ كان مالحاً ولزجاً قليلاً، ولم يكن مذاقه مذاق الدم، بل كان أسوأ من ذلك. مذاقه كان مذاق الدموع؛ نهض من السرير شاحب اللون، ووضع قدميه ذات الستة والثمانين عاماً على السجادة المبتلّة، فغرقتا حتى الكاحلين بالدموع. أشعل الضوء بالتحسّس على الجدران في الظلام، ورأى أن الغرفة بأكملها غارقة في الدموع، انقبض قلبه رعباً من الموت، وصرخ، فأصيب الحرّاس بالذعر، وتوقّفت الأَرَضة عن مضغ السقف الخشبي، وهربت اليمامات المطوّقة الناعسة من المكان. دخل ثمانية حرّاس ناعسين المنزل بأسلحة جاهزة لإطلاق النار، وتتبّعوا تدفّق الدموع من غرفة روح الله الخميني، ومشوا

---

(*) آزادي تعني: الحرية. (م).

كثيراً ومشوا حتى وصلوا إلى ميدان ونك، بجوار الأزقّة الخلفية حيث ينام مفترشو الكراتين من المشرّدين والمدمنين، عند أسفل نوافذ المنازل مع بقايا روائح العشاء الدافئة في البيوت.

على الرغم من أن الأمر استغرق ثلاثة أيام بلياليها حتى أزالوا بقع الدموع بدقة وبهوس شديدين من أطراف منزل شارع جماران؛ زقاق الزعيم المغلق، إلا أنّ الخميني ظلَّ يرى بقع الدموع الكبيرة حتى الساعة العاشرة وعشرين دقيقة من الليلة الثالثة عشرة لشهر خرداد من العام التالي حين مات، في زوايا المنزل الغريبة. كان يغمس إصبع يده اليمنى الصغير في البقع على أمل أن تكون شيئاً آخر، ويتذوّقها ثم يصرخ بغضب وذعر. وذات مرة عندما مدّ يده ليأخذ نظّاراته من على الرفّ ابتلّت بالدموع، فصرخ بصوتٍ عالٍ لدرجة أنه لم يستطع التكلّم لمدة ثلاثة أيام بسبب التهاب حلقه، وألغى لقاءاته بمؤيّديه المعمّمين من مدينة قم، وهرب من الخوف إلى مخبئه السري الذي لم يكن قد اكتمل بناؤه بعد.

وهكذا سلكت الأرواح الحائرة الحزينة طرقاً مختلفة مع بزوغ فجر اليوم التالي؛ فعاد بعضهم إلى المدن والقرى لدى عوائلهم، والبعض الآخر بقوا في شوارع طهران لتذكُّر آمال أجواء الثورة الملتهبة وأحلامها، حتى ترى، بأمّ أعيُنها مرة أخرى، يوم سقوط النظام، النظام الذي قتلهم ببساطة كقتل ذبابة. وأما المجموعة الأخيرة سئمت كثيراً من أحداث الدنيا وبدأت بالسموّ والبحث في عالم الأرواح. كان سهراب ينتمي لهذه المجموعة الأخيرة.

# الفصل السابع

بدأت الأبواب تصدر صريراً؛ أُلقيت الأحذية والنعال في الحديقة، قُذف زجاج النوافذ بالحصى، انطفأت الأنوار واشتَعَلت، وفُتحت الستائر وأُغلقت، ومرّت من أمام أعين الحرّاس المحدّقة والمذعورة آثار أقدام على الثلج المتساقط للتوّ، وذهبت ناحية فناء المنزل ودرجه، ثم فتحت باب المنزل وأغلقته. رفعت يدٌ عباءته من خزانة الملابس وألقت بها من النافذة إلى الفناء؛ وفكّت يدٌ أخرى عمامته وألقت بها مباشرةً داخل المرحاض وسحبت السيفون. في منتصف الليل عندما كان الحرّاس جميعهم يرصدون المكان كلّه بحذرٍ كامل، وبينما كانت بتول تؤدي صلاة الوحشة في غرفة نومها من شدّة الخوف، سمعوا أشخاصاً يمشون في الإيوان، ويتهامسون، وتحرّكت الملاءة الموجودة على الكرسي والتي كانت مخصصة لأيام إلقائه الخطب فقط، وتقعّرت وكأنّ شخصاً ما يجلس عليها. وذات ليلة وضع أحد الحرّاس الشباب -وهو يرتعد خوفاً من الأصوات الواضحة حوله والتي كانت تقول أسفل الأشجار وخلف نباتات البقس: «قاتل.. قاتل.. قاتل!»- إصبعه على الزناد وأطلق وابلاً من النيران على زهور البطونية والياسمين؛ إلا أن الحرّاس الآخرين هدّؤوه

قائلين: «شششششششش». حتى في منتصف الليلة التي رُفعت فيها نظّارة روح الله الخميني عن الرفّ فوق رأسه ودارت في الهواء وألقيت أمام عينيه الضعيفتين تماماً على الأرض وتحطّمت، لم يُبدِ أيّ شخص أدنى ردّة فعل، لأنه لم يكن قد صدر أيّ أمرٍ بعد.

التزم الصمت، إذ كان قد اعتاد الصمت والجلوس أمام مرآة عظيمة وإعطاء الأوامر للآخرين طوال هذه السنوات، بعد أن أصبح قائداً عظيماً لجمهورية إيران الإسلامية. كان قد اكتسب ثقة كبيرة بنفسه، بتحدّثه إلى الآخرين أمام المرآة، فأصبح جريئاً لدرجة أنه كان يشعر أن بإمكانه غزو الجبال والسهول والسماوات ونشر راية الإسلام المحمدي النقي في جميع أنحاء العالم. مع ذلك، كان لا يزال مصرّاً على التزام الصمت. ولو أن الأرواح لم تتجاوز الحدّ في تلك الليلة، ولم تلقِ بجسده النائم على الأرض، ولم تجرّه في امتداد غرفة النوم على سجادة كرمان المنسوجة يدوياً، ولو لم تنقله عبر غرفة المعيشة لرميه من الطابق الثاني إلى الأسفل، لما كان الحرّاس أبدوا أيّ ردّ فعل، ففي منتصف تلك الليلة بالذات كان الخميني مذعوراً للغاية وصرخ وأثار الجلبة، لدرجة أن عناصر الحرس الثوري في شارع جماران أيضاً سمعوا صوته، فجرَوا مهرولين ودخلوا، ورأوا أن حرّاسه الشخصيين الثمانية قد أمسكوا بقدميه وهم يرتعدون خوفاً ويسحبونهما. وفي النهاية حين أطلق عنصران من الحرس الثوري النار على القوات الخفيّة، تمكّن الحرّاس من سحب جسده العجوز المتجعّد من النافذة إلى الداخل. في تلك الليلة، عندما أدرك الخميني أن الباقين قد رأوا أثر البلل الأصفر الممتدّ من سرواله، انفجر باكياً؛ ولأول مرة ترك الجميع يفهمون كم أن صاحب ذلك الوجه العابس المتعجرف القاسي دائماً، مرعوبٌ ووحيد.

وبعد مرور ساعة سمع حرّاسه الشخصيون الثمانية أنه يتحدّث بصوت عالٍ في غرفة نومه؛ اعتقدوا أن لا بدّ أنه يتحدّث إلى المرآة كالعادة. في بعض الأحيان كان صوته يعلو ويصرخ ويثير الجلبة، وأحياناً يدوي صوت بكائه المتقطّع مثل عواء في أرجاء غرف منزل جماران القديم التي لم ترَ النور. وفي النهاية عندما خرج في الساعة الثانية عشرة ظهراً من اليوم التالي، من الغرفة، بعينين غائرتين ووجهٍ متعرّق ويدين وقدمين مرتجفة مع حزمة غير مرتّبة من الأوراق، أدرك الجميع أنه قد تحطّم شيءٌ ما في وجوده، أكبر من وسائله وأثاث غرفة نومه التي أُلقيت هنا وهناك. وفي اليوم ذاته، جثا ثلاثة مهندسين على ركبهم أمام الخميني لِسماع أوامر بناء قصر تحت الأرض؛ لم يجرؤ أحد على الكلام أمام التصاميم الغريبة التي كان يرسمها أمام أعينهم باستعجال وعصبية وخوف. إذ منذ اللحظة الأولى كان الديكتاتور قد قال لهم: «يُمنع طرح الأسئلة».

على عكس ما نُشر في الصحف والإذاعة والتلفزيون في تلك الأيام، وحتى الإشهارات على اللوحات الإعلانية التي يبلغ ارتفاعها 20 متراً في شوارع «وليعصر»، و«التوحيد»، و«الثورة»، فإن العديد من الجنود الذين تطوّعوا للذهاب إلى ساحات الحرب لم يكونوا مناضلين ولا يحبّون تصدير الإسلام، ولا من محبّي الثورة ولا الخميني. كانوا مجرّد شباب بسطاء ووطنيين لا يريدون أن يقع أيّ شبر من بلادهم في أيدي العدو. عندما تجاوز عدد القتلى عشرة آلاف، ثم خمسين ألفاً، ثم مئة ألف، اختار الشهداء أشخاصاً من بينهم ليصطحبوا الأرواح الهائمة للقتلى السياسيين الذين كانوا يجوبون شوارع طهران أحياناً تخليداً لتطلّعاتهم الثورية، كي يذهبوا إليه ويعطوه الإنذار الأخير. وعندما قابلوا الخميني أخيراً وجهاً

لوجه في غرفة نومه في منتصف الليل من شهر بهمن، حين كان يهطل الثلج، أعطوه رسالة التحذير بكلّ وضوح: «إما أن تموت الآن أو تبني قصراً من المرايا نمنحك تصميمه يوماً بعد يوم. وإذا توقّفت يوماً عن العمل، فسوف تموت».

وهكذا حدث أن عشرات العمّال عملوا ليل نهار في الحفر تحت قبو البيت ليتقدّموا نحو الجبل. وفي الأماكن التي يأمر المهندسون بالتقدّم فيها، كان الخميني يأتي ويلوّح بإصبعه السبابة في الهواء، ويصرخ عليهم أن يتوقّفوا. وفي الأماكن التي يقول فيها المهندسون إنه عليهم التوقّف عن الحفر بسبب احتمال خطر سقوط الصخر من الجبل، كان الخميني يقدّم خططه المربكة ويأمرهم بالمضي قدماً. استغرق الأمر سنة كاملة حتى حفروا أخيراً مساحة مناسبة لقصر المرايا في قلب الجبل وأعماق الأرض؛ وقد بلغت مساحته عدة مئات من الأمتار المربّعة، بارتفاع يصل إلى ثلاثين متراً في بعض الأماكن ومتراً واحداً في أماكن أخرى. ولكن خلافاً لما اعتقده المهندسون، فإن العمل لم ينتهِ، ليس هذا فحسب بل إن الجزء الأصعب منه كان قد بدأ لتوّه. ومع أن العمل كان يبدو أنه يتقدّم يوماً بعد يوم، فقد اتضح بعد مدة أنه يزداد سوءاً وفوضى. أصاب الارتباك والضجر الجميع، حتى الخميني نفسه. إلا أن جشع الآخرين ودوافعهم المادية ساعدتهم على الاستمرار في العمل الطاحن واستنزاف الجهود؛ غير أن الخميني الذي لم يكن لديه دافع سوى البقاء على قيد الحياة، أصبح مرتبكاً وهرماً يوماً بعد يوم. بُنيَ المنزل متراً بعد متر، بتعليمات دقيقة أُعطيت للخميني لحظة بلحظة من قبل لجنة أشباح الناجين من الحرب والسجناء السياسيين. كان مدخل القصر ممرّاً طويلاً وضيّقاً ولولبياً، وكان على المهندسين والعمّال في بعض أجزائه الانحناء لعبوره، وفي أجزاء

أخرى كان يصل ارتفاعه إلى ثلاثين متراً. كانت المرايا في كل مكان؛ على السلالم والجدران والأسقف والدرابزين، والممرات. حتى المرايا المهشّمة تحت الأرجل، التي كانت تصدر أصواتاً مزعجة بعناد، لم تدع أحداً ينسى، حتى للحظة، تذكّر المرايا. بُنِيَت سلالم تؤدي إلى الجدار الصخري للجبل، وكذلك ممرّات تصل إلى السقف بمنحدر خفيف. شيّدوا سبعة طوابق متداخلة، بناءً على نزوات فورية للجنة الأشباح، فكان العمّال يعتقدون أنهم في الطابق الثاني عندما يجدون أنفسهم في الطابق الرابع، وحين يعتقدون أنهم يهبطون من الطابق الخامس إلى الطابق الأول، كانوا يصلون إلى طريق مسدود في الطابق السابع. وضعوا نوافذ على أرضية المنزل وأبواباً على السطح؛ وأعمدة على هذا الجانب وذلك الجانب، لم يتصل الجزء العلوي منها بأي مكان. ونُصبت اثنتا عشرة مدفأة جدارية، واحدة منها فقط كانت مفتوحة على الهواء الطلق، والأخرى كانت تصل إلى غرفة نوم ليس لها باب البتّة. رُبطت المواسير معاً، وانتهت البقية إلى الجبل. في إحدى غرف النوم، بُنيت غرفة نوم أخرى، في داخلها غرفة نوم ثالثة، وفي أرضيّتها بابٌ يُفتح على الطابق السفلي ولكن ليس له درج. كما أنهم بنوا ممرّاتٍ متعرّجة متداخلة لا يستطيع أحدٌ أبداً تخمين ما الذي يوجد في نهايتها.

المرايا؛ كانت المرايا في كل مكان، وتجعل أي شخص يُفاجأ بمواجهتها. وشيئاً فشيئاً سيطر الخوف على الجميع؛ إذ كانت تُسمع أصوات مرعبة تطلب المساعدة لتجد طريق الخروج من قصر المرايا، طوال الليل والنهار. قال بعض العمّال إنهم رأوا أشباحاً بلا رؤوس أو أقدام مصابة في المتاهات المظلمة في الممرات والسلالم. وفي أحد الأيام رأى أحد العمّال روح أخيه الشهيد، وبكى بفرح شديد حتى تجمّعت أرواح أخرى

حوله ووضعت أذرعها على كتفيه وواسته. وشيئاً فشيئاً أُشيع بين سكّان المدينة أنه إذا كانوا يبحثون عن أثر لشهدائهم أو مفقوديهم، فعليهم الذهاب إلى هناك بصفة عمّال. وقد بات سماع صوت الضحك والبكاء الصادر من الزوايا المظلمة والغامضة لقصر المرايا، أمراً طبيعياً؛ كان الناس يأتون من جميع أنحاء البلاد ويصطفّون في طوابير طويلة أمام منزل جماران تحت الثلج والمطر ليجري تعيينهم عمّالاً، حتى لو كان الأمر بلا أجر، وذلك لمقابلة أحبائهم من الشهداء سراً. وفي وقت لاحق أمسك الحرّاس عدة نساء جرى توظيفهن، وقد تنكّرن بملابس رجالية لرؤية أزواجهن الشهداء ولتذكّرهم ومغازلتهم في الزوايا المظلمة والغامضة وليحبلن منهم. في البداية، كان الحرّاس والمهندسون والخميني يشعرون بالسعادة، فقد ظنّوا أن الناس الثوريين الشغوفين يأتون ليقدّموا احترامهم لقائد الثورة العظيم ويثبتوا حبهم له؛ ولكن عندما وصل خبر لقاء العمّال بإخوتهم، وأبنائهم، وآبائهم، وأزواجهم الشهداء، إلى الخميني وحرّاسه الخاصين الثمانية من الحرس الثوري، بدؤوا في اختيار العمّال بشكل انتقائي. منذ ذلك الحين كان على العمّال ملء استمارات طويلة ومفصّلة، ليثبتوا أنهم ليسوا من ذوي الشهداء أو أقاربهم. غضبت الأرواح الناجية من الحرب التي كانت قد أصبحت هادئة بعض الشيء وسعيدة برؤية أهلها وأقاربها، مرة أخرى بسبب هذه العراقيل. لذلك فإنّ واحداً من المهندسين -وكان قد شوهد لآخر مرة في أحد الممرات الطويلة والضيّقة- اختفى من دون أن يراه أحدٌ مجدداً؛ وبعد مدة، عُثر على جثة أحد الحرّاس الخاصين الثمانية معلّقة من باب ينفتح من السقف ورأسه معلّق ورباط سلاحه ملفوف حول رقبته. وشيئاً فشيئاً، ولكيلا يضيع أو يختفي أحد آخر ربطوا الأماكن كلّها بالحبال الملوّنة والفسفورية ذات الأجراس؛ ولكنهم سرعان ما أدركوا أنها عديمة

الجدوى، لأن الحبال كان يصل واحدها إلى الآخر في بعض الأماكن، وتتقدّم بموازاة بعضها لتعود مرة أخرى إلى مكانها الأول في نقطة غامضة. وشيئاً فشيئاً انخفض عدد المهندسين والحرّاس المذعورين، ولم يعرف أحدٌ هل أنهم لم يعودوا إلى العمل، أم أنهم لم يعودوا من العمل؟ شوهد آخر مهندس ذات يوم وهو يفتح نافذة مقابل جدار الجبل ويحدّق إلى مرآة على بعد خمسة سنتيمترات أمام عينيه. وعندما سأله الخميني، الذي كان يسير بفانوسه ببطء من جانب إلى آخر، في عتمة الممرات والغرف والسلالم غير المبنية، عما كان يفعله، أجاب المهندس دون أن يلتفت إلى الوراء: «أفكّر في أعمال الأمس».

استمر الأمر على هذا النحو لمدة طويلة، وتساءل الخميني مستغرباً لماذا لم يزره أحد من مجلس الوزراء، لكنه أدرك الحقيقة رويداً رويداً: لم تعد البلاد بحاجة إليه. لم تكن هنالك حرب، ولا أي شخص يزاحمه في السياسة أيضاً. كانت جميع الأصوات قد كُتمت، وعاد الناس إلى منازلهم من الشوارع وساحات القتال؛ وقد حان وقت البناء والإعمار. ربما كان بإمكان بقية المسؤولين السياسيين ضبط الأمور وتسويتها. لهذا السبب بات الخميني يشعر بالوحدة يوماً بعد يوم، وفاجأته المرايا والصمت والظلام في كل مكان. وعندما اختفى المهندس الأخير، لم يجرؤ أي مهندس على العودة لمواصلة بناء القصر، واختفى العمّال أو لم يعودوا إلى العمل البتّة، واضطرّ الخميني تدريجياً إلى تكريس ساعات من يومه شخصياً لبناء قصر متاهة المرايا. ولأول مرة في حياته البالغة سبعة وثمانين عاماً، كان عليه أن يمسك بيديه المرتعشتين فأساً، وأن يقطع مرآة بالماس وينشر الخشب، ويرشّ مسحوق البنسلين على جروحه بمفرده. ومع أن الأيام الأولى كانت مرهقة وصعبة بالنسبة إليه، إلا أنه قد أصبح

مفتوناً تدريجياً بانعكاس صورته في المرايا، وبصوت الآلات في صمت القصر المتداخل، لدرجة أنه نسي العودة إلى المنزل في منتصف الليل. فتنته رائحة نشارة الخشب، ولأول مرة منذ ألف عام، تذكّر أنه منذ سنوات طويلة كان يحلم أن يصبح نجّاراً.

مرّت الأيام والليالي والأسابيع، واستمرّ في وضع الحجر على الحجر والمرايا بجانب المرايا، وتمديد الأسلاك، وتركيب ألواح الخشب على الدرج، وراح يأكل من طعام الخدم المذعورين، الذين كانوا يتركونه في أنحاء مختلفة من متاهات القصر وهم يربطون حبل الفوسفور ذا الأجراس بخصورهم. وفي النهاية، قُطعت علاقته بالعالم والسياسة ومرؤوسيه، فقد غرق في نفسه. وشيئاً فشيئاً، راح يغوص كثيراً في الممرات والمرايا والسلالم الحلزونية والغرف المتداخلة، فلم يعد يجد طعاماً، لأن الخدم لم يجرؤوا على الدخول إلى تلك البقع البعيدة المظلمة.

وصل إلى نقطة لم يكن فيها لا كهرباء، ولا سلالم، ولا ممرّ، ولا صالة، ولا غرفة، ولا حتى جدار. مكان مثل الفراغ، وعندما كان يفكّر بشكل صحيح، لم يستطع أن يشعر بالأرض تحت قدميه. كان الظلام في كل مكان والهواء يتدفّق بصعوبة. ومهما حاول جاهداً، لم يستطع أن يلمس أيّ جدار. استولى عليه الذعر وأدرك أنه وصل إلى نهاية الطريق. ومع ذلك، لم يتوقّف عن المحاولة. تقدّم لاهثاً بأنفاس متقطّعة وبجسده الشائخ المعوج في الاتجاه الذي كان يعتقد أنه اتجاه الضوء والسلالم، ولكنه لم يصل إلى مكان ما. في بعض الأحيان يسطع ضوءٌ خافت من بعيد يُمكّنه من رؤية ما حوله قليلاً، فقد كان يظهر له تارة في الانعكاس الخافت لهذا الضوء البعيد ذكريات غامضة عن طفولته؛ ولكنه لا يكاد يخطو بضع خطوات نحوها حتى ينسى كل شيء. فبدأ بالتدرّب لأنه أراد أن يبقي ذهنه

قوياً، صار يكرّر لنفسه أسماء جدّه، وجدّته، وأعمامه وعماته وأخواله وخالاته بصوت عالٍ، حتى وصل إلى أسماء أبناء أعمامه وعماته وخالاته، وفجأة تذكّر عندما كان عمره عشر سنوات فقط كم كان يحبّ ابنة خالته ذات الذراع ناصع البياض كالبلور، والتي كانت تكبره بخمس سنوات. ففي سن العاشرة، فاجأها عندما استيقظت من النوم وراحت يدها تبحث عن وشاحها حول وسادتها بعينين ناعستين. ومهما حاول لم يتذكّر قطّ أنه رأى يداً جميلة مثل يدها؛ وعندما رأته يختلس النظر من بين ثنايا الباب، نادته وضحكت له، ولكنّه ارتعب كثيراً لدرجة أنه فرَّ هارباً. مهما حاول لا يتذكّر اسمها؛ فكّر في خاطره أنه ربما قد يكون اسمها أقدس، لأنه يتذكّر أن اسم أختها كان أكرم. وبشعور من الخجل والاستنكار، راح يتذكّر ذكريات بعيدة ضبابية، وأنه في اليوم ذاته مارس للمرة الأولى العادة السرية تحت طبقة كثيفة من البخار في الحمّام. ثم وبينما كان يسير في الظلام وكأنه في حلقة مفرغة ويحاول العثور هنا وهناك متلمّساً الفراغ، على جدار ما، فكّر في قرارة نفسه أنه ربما يكون اسمها فاطمة، لأنه تذكّر أن اسم شقيقها كان علي.

راح يمشي وهو يتحسّس الفراغ في الظلام ويصبّ اللعنات على نفسه، فكم أصبح هرماً بلا ذاكرة، ثم حاول أن يتذكّر وجه ابنة خالته، فمن المؤكّد أن وجهها كان جميلاً ناصع البياض مثل الثلج. وربما كانت عيناها زرقاوين أيضاً أو عسليتين. أياً كانت، فهو يتذكّر جيداً أنها لا تشبه البتّة زوجته بتول.

وبينما كان يسير في الفراغ ويستشيط غضباً، فجأة اعتقد أنه وصل إلى بابٍ ما، ولكن عندما مدّ يده، كانت أمامه مرآة مسطّحة وباردة. فواصل طريقه مرة أخرى؛ لم يكن يعرف أين ترك نعليه، فقدماه قد تخدّرتا على المرايا الباردة. ثم وصل إلى مكان شعر فيه أنه في ردهة ما، فنادى نفسه

بصوت عالٍ: «روح الله». ذهب الصوت بعيداً بعيداً ولكنه لم يعد. لمس الأنحاء بيده ولكنه لم يجد أي جدار، وأخيراً اصطدمت قدمه بشيء ما. كان هناك درج أمام قدمه، فنزل منه حتى وصل إلى غرفة، رغم عدم وجود باب لها يفتح للخارج فقد قادته إلى غرفة جديدة. وبعد اجتياز العديد من الأبواب والعديد من الممرات والعديد من السلالم، لمست يداه أعمدة كثيرة، ونوافذ مع أنها كانت تُفتح إلا أنها لا تسمح بدخول أي ضوء إلى الداخل.

وفي الظلام الدامس، نادى اسمه مرة أخرى: «روح اللللله»؛ ذهب الصوت بعيداً وبعيداً وعاد مرة أخرى. وفي هذه المرة شعر أنه في قاعة كبيرة، إذ في النهاية اصطدمت قدمه بسلالم، وهذه المرة صعد منها. فسار كثيراً ودخل عبر الممرات والقاعات والسلالم والمتاهات اللولبية والغرف حتى عاد إلى رشده فجأةً، وشعر أنه في المكان ذاته الذي بدأ منه تقدّمه؛ أي في أحلك مكان قد رآه في حياته كلّها. بلا أبواب، بلا جدران، بلا نوافذ، بلا ضوء. حتى عندما كان يفكّر جيداً، لم يستطع أن يشعر بالأرض تحت قدميه؛ ولم يعد بإمكانه تذكُّر اسم بنت خالته، فكيف بوجهها! أراد مرة أخرى أن يختبر صوته على الأقل؛ إذ كان لا يزال صوته هو ذاته. وهذه المرة صرخ بكلّ قوّته البالغة من العمر سبعة وثمانين عاماً: «روح الله». ذهب الصوت وابتعد؛ ورجع بانعكاس طفولي: «أجل؟».

ومن مكان مجهول أضاء ضوءٌ خافت جسمَ طفلٍ يبلغ من العمر عشر سنوات كان يتكئ على المرآة أمامه وينظر إليه. سأله الطفل: «من أنت؟»، فأجاب الخميني الذي بدت صورته في المرآة تمنحه الثقة والقوة مرة أخرى، قائلاً: «أنا الشخص الذي أكونه. الشخص الذي صوَّت لي ملايين الناس. الشخص الذي أدار حرباً لمدة ثماني سنوات. الشخص الذي

يصدّر الإسلام إلى جميع أنحاء العالم». فضحك الطفل وسأل: «لماذا؟»، فقال الخميني: «لأن الإسلام يجب أن يكون عالمياً». سأل الطفل مرةً أخرى: «لماذا؟»، فأجاب الخميني قائلاً: «لأن الإسلام هو الدين الأكمل والأخير». سأل الطفل مرة أخرى: «لماذا؟»، فقال الخميني بغضب: «من دون لماذا؛ فعقلك غير ناضج وإلا ستفهم أن هذا السؤال ليس له إجابة». ولكن هذه المرة أيضاً سأل الطفل بهدوء ولكن بعناد: «حقاً لماذا؟».

قطّب حاجبَيه الكثيفين. حين كانت نظراته تقع على المرآة كان يصبح حاسماً وجريئاً من جديد، ولكن بمجرّد أن رفع عينيه عن المرآة وحدّق إلى الطفل، الذي كان يتكئ بلا مبالاة إلى المرآة وينظر إليه، لم يرَ نفسه سوى شخص غبيّ ومتلعثم لا يمكنه شرح حتى أعظم طموحات حياته التي قتلت آلاف الأشخاص وشرّدتهم إلى بلدان أخرى. صمت الديكتاتور للحظة، وتأمل في «لماذا» الطفل الصبيانية، وفجأة ارتخى تقطيب جبهته، كما لو أنه قد أدرك شيئاً ما واستغرب فهمه. ولكن يا للأسف، لم يكن قد بقي وقت كثير الآن لشرح ما فهمه فقط في الثواني الأخيرة من حياته. فأصيب بجلطة دماغية في تلك اللحظة ذاتها، وتوفي؛ لأنه في اللحظة ذاتها تماماً كانت واحدة من عينيه على نفسه في المرايا المكثّرة، وعينه الأخرى على الصبي. وأدرك أنه زعيم جبار في المونولوج، ولكنه في الحوار، ليس أكثر من صبيٍّ ملتحٍ غير عقلاني وعنيد ومدّعٍ.

في آخر لحظة من حياته تمتم الدكتاتور جملة واحدة ثم مات، فقد قال: «لقد استغرق الأمر سبعة وثمانين عاماً لأدرك في اللحظة الأخيرة أن القاعدة الفكرية والمنطقية للمونولوج تختلف اختلافاً جوهرياً عن الحوار».

وبعد ثلاثة أشهر، عثر على جثّته أولئك الذين أبرموا عقداً بقيمة مئتي

مليون تومان مع ابنه أحمد قبل دخولهم القصر، واستخدموا جي بي إس، الخاص بالأقمار الصناعية، والبوصلة، واللاسلكي والحبال الفوسفورية. ومع ذلك، استغرق الأمر ثلاثة أشهر للعثور على جثّته المتعفّنة المتحلّلة، وقد انعكست صورتها على ظلام المرايا. وفي النهاية، أرشدتهم الرائحة الكريهة إلى مكانه؛ وهي الرائحة نفسها التي تنبعث من كل الطغاة في نهاية المطاف.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

# الفصل الثامن

ومثل أيّ ديكتاتور آخر، مات الخميني دون أن يعرف كيف تلاعبت ثورته والإسلام الذي ظلَّ يتشدّق به، بحياة الناس؛ ليس أناس المدن فحسب، بل سكّان الجبال والسهول الذين لم تطأ أقدامهم المدينة لسنوات طويلة، ولم تكن لديهم طرقٌ معبّدة توصلهم إلى المدن أصلاً، ولا خرائط ليعرفوا أين تقع العاصمة، ولم يعرفوا القراءة كذلك ليتمكّنوا من قراءة الخرائط.

ذهب متطوّعو حرسَي الصحة والتعليم في عهد الشاه إلى القرى النائية لتعليم القراءة والكتابة، في حين أن الحرس الثوري ذهب إلى هناك في أثناء الثورة لتجنيد الشبان. في عام 1979 عندما ذهب متطوّعو حرس التعليم إلى المدينة -وقد كانوا يذهبون إلى هناك لسنوات عديدة، كما أنهم باتوا جزءاً من سكّان رازان، بل إن أحدهم قد عقد قرانه بإحدى فتيات القرية- للحصول على رواتبهم السنوية لم يعودوا مرة أخرى، عندئذٍ شعر السكّان بالخطر. لم يكن أحدهم يعلم ما قد يكون هذا الخطر، ولكن أن يذهب خمسة معلّمين ولا يعودون مرة أخرى، فهذا لن يكون علامة جيّدة في حد ذاته. كبرت ابنة المعلّم الصغيرة، وذات صباح، من أيام 1986، عمَّ

صوت الجلجلة في أرجاء القرية، فهرع السكّان النائمون والخائفون إلى ساحة القرية، فرأوا دخول أحد المعلّمين الخمسة السابقين بمركبة موحلة إلى القرية وهو يلوّح بيده للجميع. في البداية لم يتعرّف إليه الناس؛ كان الرجل الذي يقف أمامهم مع ثلاثة رجال مسلّحين آخرين يجلسون في سيارتَي جيب، يرتدي زيّاً موحّداً أخضر اللون، كما الآخرون، وعلى أكتافهم بنادق طويلة وكبيرة ولهم لحى كثيفة غطّت وجوههم. نزل المعلّم وهو يضحك بصوت عالٍ من سيارة الدفع الرباعي الخضراء وتوجّه نحو السكّان، وصافح أحدهم وعندما كان على وشك أن يهمس بهدوء: «أنا بهرام»، سأله أحد زملائه: «أخي حسين، هل وصلنا أخيراً؟!».

فأجاب بهرام الذي بات اسمه الآن حسين: «لقد وصلنا أيها الإخوة!»، ثم التفت إلى السكّان مرة ثانية وقال: «هؤلاء هم إخوتي المقاتلون!».

فتساءل الناس مندهشين من هذا الحضور والكلام الغريب والعجيب: «إخوة؟ مقاتلون؟!»، فضرب بهرام رجلاً مسنّاً على كتفه بقوة وأجاب قائلاً: «مقاتلو الإسلام والحرب! إخوة في الدين!».

هتف السكّان بصوت واحد مذعورين: «حرب؟!». نظر حسين إليهم غير مصدّق وقال: «الحرب بين إيران والعراق؟ ألا تعلمون؟ الثورة الإسلامية؟ الإمام الخميني؟!».

وهكذا حدث أنه في ظلّ صمتنا المتعمّد بخصوص نقل أخبار طهران لأهل رازان، وصل خبر الثورة الإسلامية عام 1979 إلى القرية بعد سبع سنوات من وقوعها، عن طريق المعلّم الذي أصبح الآن أحد عناصر الحرس الثوري الملتحين الحاملين للسلاح؛ وبالتزامن مع ذلك أعلن عن إعدام واحد من أولئك المعلّمين الأربعة الآخرين بتهمة انضمامه إلى منظّمة مجاهدي خلق، واستشهاد آخر في اليوم الأول من ذهابه إلى ساحة

الحرب، وخيانة الثالث للإسلام والدولة وهروبه إلى خارج البلاد، ورجم الرابع مع امرأة أحبها وهي لم تطلّق رسمياً بعد من زوجها السابق، بأمرٍ من قاضٍ شرعيّ.

كل هذا السيل من المعلومات المخيفة للسكّان البسطاء، الذين كان التحدي الأكبر في حياتهم هو التوازن والتعايش مع قوى الطبيعة وكذلك الخارقة للغابات والسهول المحيطة، قد أربكهم وشوّشهم، فلم يعرفوا ماذا يجب أن تكون ردّة فعلهم وعلى أيّ شيء تكون ردّة فعلهم أصلاً؛ على الثورة؟ أم على الإسلام؟ أم على الحرب أم على الأحكام الشرعية التي جرى تعريفها لهم قبل ذلك بشكلٍ مختلف؟

وعلى الرغم من أن إقامة حسين ورفاقه من الحرس الثوري في رازان لمدة أسبوع جعلت زوجته وابنته تشعران بالاطمئنان قليلاً، ولكنها لم تقلّل من استغراب الناس وشعورهم بالذعر مما حدث في المدينة في غيابهم. أخبرهم حسين بإيجاز أنه قبل ثماني سنوات، خرج الناس إلى الشوارع وهم يهتفون: «الموت للشاه والموت لأميركا»، وفرَّ الشاه وعائلته من إيران، وعاد آية الله العظمى الإمام روح الله الموسوي الخميني إلى إيران من منفاه الفرنسي، ووصل النظام المقدّس للجمهورية الإسلامية إلى السلطة بدلاً من النظام البهلوي الاستبدادي، وأن ثمانية وتسعين بالمئة من الناخبين صوّتوا لجمهورية إيران الإسلامية، وأُعدم قادة النظام السابق جميعهم، واعتُقل باقي المعارضين للجمهورية الإسلامية وأُرسلوا إلى السجون، وأمر الإمام الخميني بأن يُمنح السكن والمياه والكهرباء مجاناً لجميع الإيرانيين، وينبغي على النساء ارتداء الحجاب، كما أمر زعيم الثورة العظيم بقطع العلاقات كافة مع الولايات المتحدة والدول الاستكبارية الأخرى. وقال إن العراق غزا إيران والآن كلّ الشباب والرجال وحتى

الأطفال يقاتلون في جبهات الحرب دفاعاً عن النظام الإسلامي المقدّس. في غضون ذلك، سأل رجلٌ مسنٌّ مرّةً واحدة فقط: «أين يقع العراق أصلاً؟ ومن هي أميركا؟!».

لو كان حسين ورفاقه يعلمون أن صوت نواح كويتي پور، منشد الحرب، عند غنائه أنشودة «لم تكن موجوداً يا محمد/ لترى أن المدينة قد تحرّرت/ وأن دماء أصحابك/ قد أثمرت الآن» ستؤثّر سريعاً وتنفذ إلى القلوب البسيطة والساذجة للقرويين، فيصطفّ جميع مراهقي القرية مشدوهين كالمسخ ليتجرّعوا قبل الآخرين من عصير الشهادة، لما كان أرهق نفسه ورفاقه على هذا النحو وهو يتكلّم سبعة أيام بلياليها عن منجزات الثورة والنظام الإسلامي المقدّس للمستضعفين والفقراء.

كان صوت نواح آهنكران وكويتي پور حزيناً ومؤثّراً للغاية بحيث لم يصل شريط الكاسيت إلى القسم الثاني حتى وقف المراهقون وأكبرهم في السادسة عشرة من عمره بعيون شوّهها البكاء، واصطفّوا في طابور حتى يربط حسين على جباههم الأشرطة الخضراء التي قد كُتب عليها «حرباً حرباً حتى النصر»، «يا ثار الله»، «طريق القدس يمر من كربلاء»، «الموت لأميركا»، ويضع أرجلهم في الجزمات العسكرية الواسعة بافتخار الحرب والتي لن تخرج من أرجلهم حتى يوم شهادتهم.

كانت لأغاني حسين وأصدقائه وأحاديثهم عن إمدادات إمام الزمان الغيبية تأثيرٌ قويّ وفعّال على الخطوط الأمامية للحرب، لدرجة أن عدداً من المراهقين القرويين البسطاء الذين لم يروا طريقاً أسفلتياً في حياتهم، فضلاً عن السيارات والمدن والمدافع والأسلحة، قد صدّقوا أنهم لو ناموا بوضوئهم منتعلين البسطار وهم صُيّام لأربعين ليلة، فسيرون بأعينهم إمام الزمان آتياً لاستقبالهم وهو يمتطي حصاناً أبيض ويحقّق أمانيهم الكبرى.

وفي ما بعد، ثلاثة من هؤلاء المراهقين الذين كانوا لا يزالون في الجولة الثانية من صيام الأربعين يوماً، وبعد أن فقد كلٌّ منهم ما لا يقل عن خمسة عشر كيلو غراماً من الجوع، تمزّقت أجسادهم إلى أشلاء إثر قذائف الهاون العراقية قبل أن يتمكّنوا من تحقيق حلمهم بلقاء إمام الزمان وإخباره أن رغبتهم الوحيدة هي النجاة من هلاك الحرب.

وفجأةً، أصبح العالم مكاناً سامّاً ومريباً لسكّان القرية، إذ لم تمرّ بضعة أشهر على مجيء حسين إلى القرية حتى عاد مرة أخرى، ولكن هذه المرة عاد بلحيةٍ أكثر كثافة ووجه شديد الصرامة ورفقاء ليس لديهم الوقت للتحدّث مع الشباب والمراهقين لإقناعهم بميزات الثورة والإسلام. في منتصف الليل الممطر ذاته شقّوا طريقهم من بين طرق الغابة المختصرة والأشواك والمستنقعات وهم مبتلّون وملطّخون بالأوحال وقد اعتراهم الجوع والغضب، توجّهوا مباشرة إلى المنازل وطرقوا الأبواب بأخماص بنادقهم، وتحت تهديد السلاح قادوا كل ذكر وقع في أيديهم، إلى سياراتهم ذوات الدفع الرباعي الموحلة وأخذوهم بعيداً.

بعد سماع الصوت المدوّي للطلقات الأولى التي خرقت هدوء ليل رازان محطّمةً قلوب الناس البسيطة من الخوف، حلَّ الصمت فجأة على العالم. لم تتحرّك العصافير من أماكنها، وأخفت الكلاب ذيولها وسط قوائمها الخلفية، ولم تخرج من خلف البيوت؛ وارتخت تيجان الديوك وتدلّت من رؤوسها، وتوقّفت الأبقار والأغنام عن إنتاج الحليب من فرط الخوف.

منذ الوهلة الأولى التي وضع فيها حسين ورفاقه أقدامهم في القرية، وفاجؤونا نحن وجميع السكّان بقدومهم وحتى بعد بضعة أشهر حينما عادوا مرة أخرى، لم يتبقَّ في القرية أيّ شاب أو مراهق يستطيع تحمّل ثقل

البندقية على كتفه. ولم يتبقَّ في القرية سوى أولئك الذين هرّبتهم النساء، وظلّوا يعيشون خفيةً حتى الآن في الغابة، وباستثناء النساء اللائي كنّ يذهبن لرؤيتهم من حين إلى آخر ويعدن ببطون منتفخة، لم يكن أحد يعلم أماكن تخفّيهم. وكان عيسى أحد هؤلاء الشباب وقد هرّبته جدّته، وعاش حتى انتهاء الحرب في الغابة؛ والشخص الآخر كان سهراب.

ونحن الذين كنا قد هربنا من طهران طوال هذه الفترة ولجأنا إلى هذا المكان شعرنا بخيبة أمل شديدة أكثر من الآخرين؛ إذ في لحظة واحدة، فشلت تطلّعاتنا إلى العيش في بيئة آمنة وهادئة، مع قدوم حسين وأزلامه بغتة إلى بيتنا ليأخذوا سهراب معهم، تمكّنّا من تهريبه إلى الغابة قبل بضع دقائق فقط من مجيئهم وأنكرنا وجوده. ومع أنه كان من الواضح من نظرة حسين وأزلامه أنهم لم يصدّقونا، ولكننا في ذلك الوقت كنا لا نزال نفكّر أنه ربما بين غمضة عينٍ وانتباهتها يغيّر الله حالاً إلى حال؛ إلا أن ذلك لم يحدث.

لم يكن أحد يعلم متى ستنتهي هذه الحرب النهمة، فقد كانت تلتهم الشباب الذين يفتحون الطريق برمي أنفسهم على الألغام؛ رفعت النساء أيديهن للدعاء بألّا ينجبن حتى نهاية الحرب، أو أن ينجبن فتيات فقط، لأن كل رجل كان يذهب لم يكن ليعود مرة أخرى، بل إنهم لم يكونوا يسلّمونهم جثامينهم قطّ. بعد عام واحد فقط من التجنيد، وفدت مجموعة من النساء المتلحفّات بالعباءة والرجال المسلّحين التابعين لمؤسسة الشهيد والجرحى القدامى، ومعهم عدد من أكياس الأرز وعلب الزيت النباتي وساعات جدارية، فقد أرسلهم حسين إلى القرية لمقابلة العائلات، وقبل إخبارهم بنبأ استشهاد أبنائهم وأزواجهم وإخوانهم، قدّموا لهم الحلوى بوجه بشوش وابتسامة عريضة. فلمّا وضع الناس الحلوى في

أفواههم، قالوا بجرأة يشوبها الوقاحة: «أبشِروا! لقد التحق أبناؤكم بالأئمّة الطاهرين وسيُحشرون معهم!». أصيب الناس بصدمة شديدة لدرجة أنهم لم يكونوا يعرفون أيبتلعون الحلوى التي قد وضعوها في أفواههم أم يبصقونها في وجوههم. ثم انفجروا بالبكاء، وصرخوا وخدشوا خدودهم وارتدوا الملابس السوداء، وفجأةً بات العالم الذي كان ملوّناً قبل مجيء حسين، أسود اللون بالكامل. ولكن عندما قلب موظّفو مؤسسة الشهيد الحقائب والصناديق الخلفية للسيارات، لإعطاء قلائد الشهداء المعدنية لعائلاتهم، أدركوا عندئذٍ أنهم نسوا إحضارها معهم. لذلك سرعان ما استعادوا المؤن منهم وقالوا إنهم قد جاؤوا بالخطأ، ومن أجل الاعتذار أهدوهم ساعات الحائط فقط. وضغطوا على دوّاسات سياراتهم بسرعة، واختفوا وراء الأجمات والأشجار. كما أنه ولسنوات طويلة لم يظهر حسين حتى دخل رازان ذات يوم وبيده المنشار الكهربائي.

تبقّت فقط الساعات التي أعطتها مؤسسة الشهيد إلى عائلات الشهداء، على الجدران المأساوية، لتذكّرهم مع مرور كلّ ثانية أنه مهما مضى من الوقت ودقّت الساعات في كلّ أرجاء القرية في الوقت ذاته، فلن يعود إليهم رجالهم وشبابهم مرة أخرى. وبعد بضعة أشهر، وفي أحد الأيام الاعتيادية توقّفت جميع الساعات التي جُلبت إليهم من قبل مؤسسة الشهيد والجرحى، على رأس الساعة التاسعة والدقيقة الرابعة والعشرين وثلاث ثوان، في الوقت ذاته الذي وطئت فيه قدم رجل حزين بحقيبة ظهر ملأى بقلائد الشهداء، دروب القرية.

وعلى الرغم من أن حسين لم يدخل القرية لسنوات عديدة، وحتى إنه لم يسأل عن زوجته وابنته، إلا أن خياله لم يبتعد عن القرية؛ فبعد فترة وجيزة من تجنيد حسين وأزلامه للرجال، والدخول المشؤوم لطاقم مؤسسة

الشهيد، تحقّق منام الطفل القروي. فقد ترجّل شخصٌ معمّم من سيارة الدفع الرباعي العسكرية، في ساحة القرية، وفي يده مكبِّر صوتٍ معدنيّ كبير، ودخل مباشرة إلى التكيّة، ولوّث بحذائه الموحل درج الساقنفار(*) وصعد أعلاها. والتفت إلى القرية، ونفخ عدة مرات في المكبّر، ثم صاح: «يا أمة منبع الشهداء يا سكّان قرية رازان، انتبهوا من فضلكم! يا أمة منبع الشهداء يا سكّان قرية رازان، انتبهوا من فضلكم! بناءً على أوامر القائد العظيم للثورة الإسلامية، فمن الآن فصاعداً يجب فحص جميع الكتب والأشرطة الصوتية والخطب، حتى لا يبقى أيّ أثر من الأعمال المناهضة للثورة والإسلام. ولهذا الغرض يتعيّن الآن على جميع سكّان القرية تسليم كلّ شريط مسجّل أو كتاب بحوزتهم في منازلهم لإثبات إسلامهم!».

وفي كلّ مرة كان الناس يسمعون فيها «يا أمة منبع الشهداء»، كانت نياط قلوبهم تُقطّع، إذ يتذكّرون أبناءهم الذين لم يعودوا من الحرب، وبمجرّد أن سمعوا ذكر كلمة «الكتب»، نظروا تلقائياً ودون إرادة إلى منزلنا، المنزل ذاته الذي جرّت الطرقُ والممرات غير المرئية سكّانَه إلى رازان في صباحٍ ضبابيّ من عام 1979 يعمّ به الشعور بالأمان والهدوء القديمين. كان منزلنا المبني حديثاً يقع على الرابية الوحيدة المطلّة على القرية، ويلفت أنظار كلّ وافدٍ جديد، ولم يكن في مأمنٍ من نظراتهم، أو ربما كانوا قد جاؤوا أصلاً ليأتوا هنا. وكالمرّة السابقة داهموا بستاننا ومنزلنا فجأة، ولكن بما أننا كنا قد سمعنا صوتهم عبر مكبّر الصوت، فقد تمكّنّا فقط من تهريب سهراب عبر الغابة مع كيسَيْ خيشٍ من الكتب السياسية، وبعد عدّة دقائق لوّثوا

---

(*) التكيّة: مكان ديني تقام فيه مراسم العزاء.

ساقنفار: (في مازندران) مبنى خشبي بجوار الحسينيات والمساجد، وهو عادة وقف لأبي الفضل العباس وهو أخو الإمام الحسين، وقد استشهد معه في واقعة الطَّفّ.

السجّاد القديم المنسوج يدوياً ببساطيرهم الموحلة. وألقوا بقية الكتب في أكياس الخيش دون أن يقلبوا صفحاتها حتى، ثم أخذوها معهم. فقط عندما ركبوا سيارتهم الجيب قال المعمّم دون أن ينظر إلى أبي: «بعد ساعة تعالوا إلى الساحة!».

وبعد ساعة كنا جميعاً في ساحة رازان -باستثناء سهراب وأمي التي رفضت أن تغطّي شعرها بالمنديل قبل خروجها من البستان- مع سكّان القرية، وننظر إلى المعمّم الذي كان واقفاً في القسم الخلفي من سيارة الجيب، ومن دون أن يكون بحاجة إلى مكبّر الصوت إلا أنه كان يصرخ فيه قائلاً: «كتب ضالّة، كتب ضدّ الله وضدّ القرآن!»، ثم وهو يخرج كتب أبي حزمةً حزمةً من داخل كيس الخيش ويرميها على الأرض أردف قائلاً: «لقد تفضّل القائد العظيم للثورة قائلاً إنه علينا تنفيذ ثورة ثقافية؛ وألّا نسمح أن تسمِّم الكتب الشيطانية أفكار شعبنا الساذج». وبعد ذلك ألقوا مع بقية عناصر الحرس الثوري الآخرين الكتب حزمةً تلو الأخرى إلى وسط الساحة، وأخرج أحد عناصر الحرس الثوري الذي كان أصغرهم سناً، من السيارة غالوناً من النفط بلا مبالاة وسكبه على الكتب. ثم وقف ثلاثة عناصر آخرين وقد سحبوا عتلات تلقيم بنادقهم، وأحاطوا بالكتب في مواجهتنا. نظرت إلى أبي الذي كان قد احمرّ وجهه بالكامل، وأزعجني صوت اصطكاك أسنانه، وألقيت نظرة على بيتا، التي كانت تمسك بيد أبي وتضغط عليها وتقرض أظفارها. عندما سكب العسكري اليافع، الذي لم يكن قد نما شاربه بعد، النفط على الكتب، ارتفع صوت الآهات من بين مجموعة الناس التي لا تعرف حتى القراءة والكتابة، دون إرادة منهم، لأنهم في الوقت ذاته سمعوا صوت آهات الكتب البريئة. أدار الناس وجوههم إلى أبي بقلق، إذ كان موضع ثقتهم واهتمامهم منذ مجيئه.

وهو يصرخ بلا سبب في مكبّر الصوت، لعلّ صوت غضبه وكراهيته يجعل جلد سحالي الغابات البعيدة تتورّم أيضاً، حدّق المُلّا إلى عيني أبي وقال: «لقد استشهدنا.. وصنعنا ثورة.. وأقسمنا بالقرآن إننا سنحمي دماء الشهداء الطاهرة، ولن ندع العدو يتسلّل إلى بيوتنا... كي لا يتسلّل الشيطان إلى قلوب أناسنا البسطاء. ونيابة عن قائد الثورة العظيم أحرق الآن هذه الكتب المضلّلة، كي نتذكّر أنه قد قيل في صدر الإسلام، لسنا بحاجة إلى أيّ كتاب سوى كتاب الله، فهو هادينا وحامينا من أيدي الشياطين».

وبعد ذلك أخرج علبة الكبريت ذات علامة «توكّل» وتأرجحت يده في حركةٍ بطيئة في الهواء، ستبقى في ذهني إلى الأبد، وأشعل عود الثقاب، ثم ألقاه على الكتب. دبّت النار بصوتٍ خفيف، ثم انتشرت بين الأوراق، وأحرقت قبل الجميع الأوراق الصفراء المصنوعة من التبن والنشارة التي كنت أعشق رائحتها. أتذكّر جيداً كيف اشتعل قلب دانكو(*) المتقد، ثم اشتعلت النار في ثوب لوسي التي كانت تحتضن بيير بقوّة، وتحاول بذعر أن تنجو بروحها من النار بين صفحات رواية «حب وحرب» لمؤلّفها رومان رولان. بعد ذلك رأيت كيف أن النار انتقلت إلى أجساد العشّاق الملتفّة بعضها بالبعض الآخر: بيير وناتاشا، هيثكليف وكاثرين أرنشا، سكارليت أوهارا وريت بتلر، إليزابيث والسيد دارسي، أبلار وإلواز، تريستان وإيزولت، سلامان وأبسال، ويس ورامين، وامق وعذرا، زهرة ومنوشهر، شيرين وفرهاد، ليلى والمجنون، آرثر وجيما، والوردة الحمراء والأمير الصغير قبل أن تسنح لهم الفرصة ويشمّ بعضهم مجدّداً ويقبّل البعض الآخر، ويتهامسون للمرة الأخيرة قائلين: «أحبّك!»(**).

---

(*) دانكو: قصة قصيرة للأديب الروسي مكسيم غوركي.

(**) **ناتاشا**: من شخصيات رواية «الحرب والسلام» للروسي ليو تولستوي. **كاثرين** =

آه... يا ريميديوس الجميلة وملاءاتها البيضاء والأجنحة الهشّة لفراشات ماوريسيو بابيلونيا(*) الصفراء، وارتجاج الماء المستمر بفعل مجذافي زورق هكلبري فين(**) الخشبي؛ إذ امتزجت كلّها بالنار واحترقت وأبيدت جميعها؛ وكأنها لم تكن موجودة من الأول قطّ. كما لو أن البشر لم يكونوا بحاجة إلى الحب منذ الأزل، ولا إلى الحقيقة، ولا إلى التاريخ، ولا العبرة، ولا المغامرة، ولا المعرفة. وكأن البشر لم يكونوا يريدون شيئاً قط.. أو ربما كانوا يريدون الصمت فقط؛ مكاناً هادئاً صغيراً يريحهم من زحام المزعجين حيث لم يكونوا يدَعون المرء وشأنه في أعماق غابات مازندران النائية - التي يقال إنها صمدت مئتي سنة أمام هجمة الأعراب

---

= **أرنشا**: من شخصيات رواية «مرتفعات ويذرنغ» للكاتبة البريطانية إيميلي برونتي. **سكارليت أوهارا وريت بتلر**: من شخصيات رواية «ذهب مع الريح» للأميركية مارغريت ميتشل. **إليزابيث والسيد دارسي**: من شخصيات رواية «كبرياء وتحامل» للبريطانية جين أوستن. **أبلار وإلواز**: من شخصيات حكاية حب فرنسية حقيقية في القرون الوسطى. **تريستان وإيزولت**: من أبطال قصة حب أسطورية حزينة. **سلامان وأبسال**: من أبطال قصة حب أسطورية إغريقية كتب عنها حنين بن إسحق، وابن سينا ونصير الدين الطوسي. **ويس ورامين**: من أبطال قصة حب فارسية كلاسيكية. وقد ألّف فخر الدين أسعد الجورجاني ملحمتهما الشعرية في القرن الحادي عشر؛ وقد ادّعى أصلاً ساسانياً لهذه القصة، لكنها تُعتبر الآن من أصل سلالة بارثية، ربما من القرن الأول الميلادي. **وامق وعذرا**: من شخصيات ملحمة شعرية كلاسيكية فارسية لها أصل إغريقي انتقلت إلى بلاد فارس عن السريانية في فترة الساسانيين. **زهرة ومنوشهر**: من أبطال ملحمة شعرية تحمل الاسم نفسه للأديب الإيراني إيرج ميرزا وقد اقتبس قصتهما عن أسطورة ڤينوس وأدونيس الرومانية. **شيرين وفرهاد**: من أبطال ملحمة شعرية فارسية اهتم بها الكثير من الشعراء الإيرانيين من ضمنهم الفردوسي والنظامي. **آرثر وجيما**: من شخصيات رواية «الذبابة»، للبريطانية إثيل فوينيتش. **الأمير الصغير**: رواية للكاتب الفرنسي أنطوان دو سانت إكزوبيري.

(*) ريميديوس و ماوريسيو بابيلونيا: من شخصيات رواية «مئة عام من العزلة».

(**) شخصية في رواية تحمل الاسم نفسه للأميركي مارك توين.

في صدر الإسلام.. أو ربما كان البشر بحاجة فقط إلى زاوية هادئة وفارغة ليكونوا بأمان من عنف الآخرين وإيذائهم وجهلهم. تماماً مثل أبي الذي كان صوت اصطكاك أسنانه يقضم شرايين روحي ويقطعها حتى الآن. استعرّت النار وأنارت وجه المعمّم ولحيته ووجوه مرافقيه الثلاثة من الحرس الثوري، فقد كانوا أقرب الجميع إلى النار، وراحوا يدفئون أنفسهم بحرارتها. لم يتفوّه أحدٌ بأيّ شيء، حتى المعمّم، حتى الناس وأبي. كانت النار تستعر من بين الأغلفة الفنية السميكة والورقية وتصدر صوتاً لفت أنظار الجميع إليها. وتأججت في أوراق تاريخ الحضارة المكوّن من أحد عشر مجلداً لويل ديورانت، ومجموعة الفلسفة لأفلاطون ذات الخمسة أجزاء بغلافها الأزرق، وتاريخ جهانكشا الجويني، وتاريخ البيهقي، والطبري، وكتاب إي جنغ(*)، والأبله(**)، بجوار مئة عام من العزلة، ونينا، وربيكا، والناب الأبيض، وكيف سقينا الفولاذ، وسمعت بأذني صوت بكاء ربيكا الوحيدة، واعتراض الكولونيل أوريليانو بوينديا وهو يقول لأورسولا(***) بنفور: «حتى أنا بكلّ استبدادي لم أفعل هذا الأمر». ورأيت آرثر بورتون الثوري من رواية الذبابة وهو يهاجم مرات ومرات القسيس والنظام الكنسي، ومع هذا لم يكفّ عن نضاله. كانت «مزرعة

---

(*) كتاب التغيّرات أو إي جنغ، أحد أبرز وأهم خمسة كتب في التراث الفلسفي الصيني، فقد كان يعتمده الصينيون في الأزمنة الغابرة في قراءة الطالع. وهو يعبّر عن الفلسفة وعرض الكون للثقافة الصينية الكلاسيكية. وتتمثّل فكرتها الأساسية في تفسير الخصائص والقوانين المتأصلة في التشغيل الطبيعي، وتفسير تناوب الين واليانغ لوصف كل شيء في العالم. (م).

(**) **الأبله**: للروائي الروسي فيودور دوستويفسكي. **نينا**: للروائي الأذربيجاني ثابت رحمان. **ربيكا**: للأديبة البريطانية دافني دوموريه. **الناب الأبيض**: للروائي الأميركي جاك لندن. **كيف سقينا الفولاذ**: للروائي السوفييتي نيكولاي أوستروفسكي.

(***) شخصيتان من رواية «مئة عام من العزلة»، للكولومبي غارسيا ماركيز.

الحيوانات»(*) تحترق، وقد تصاعد أنين البقر والحمير والخنازير والكلاب والخيول، وانتشرت رائحة لحمها المشوي في جميع أنحاء رازان؛ إلا أن المعمّم ومرافقيه الثلاثة من الحرس الثوري لم يشعروا بذلك قطّ.

الشيخ والبحر، السمكة السوداء الصغيرة، تلخون، ألدوز والغربان، رياح الشرق رياح الغرب، تراجيديا آنتيغون، لمن تقرع الأجراس، هاملت، الكوميديا الإلهية، الأرض اليباب، الأحمر والأسود، زوربا اليوناني، مهابهاراتا، كُلستان، المثنوي المعنوي للرومي، ديوان حافظ الشيرازي، ديوان الحلاج، الجريمة والعقاب، الغريب، الأمير احتجاب، البومة العمياء، القصر، الإغواء الأخير للمسيح(**)، وجميع تلك المئات من

---

(*) رواية للروائي الإيرلندي جورج أورويل.

(**) **الشيخ والبحر**: للروائي الأميركي إرنست همينغواي. **السمكة السوداء الصغيرة، تلخون، ألدوز والغربان**: ثلاث قصص من الفولكلور الإيراني-الأذربيجاني للأديب الإيراني الراحل صمد بهرنجي. **رياح الشرق رياح الغرب**: للروائية الأميركية بيرل باك. **تراجيديا آنتيغون**: أسطورة يونانية للمسرحي الإغريقي سوفوكليس. **لمن تقرع الأجراس**: للروائي الأميركي إرنست همينغواي. **هاملت**: مسرحية لشكسبير. **الكوميديا الإلهية**: للإيطالي دانتي أليغييري. **الأرض اليباب**: قصيدة طويلة للشاعر الإنجليزي توماس س. إيليوت. **والأحمر والأسود**: للروائي الفرنسي ستندال. **زوربا اليوناني**: للروائي اليوناني نيكوس كازانتزاكي. **مهابهاراتا**: ملحمة الهند الكبرى، وهي نصٌّ رئيسي من نصوص الهندوسية. أحداثها محاولة لمناقشة الأهداف الإنسانية (أرثا أو الغرض، كاما أو المتعة، دارما أو الواجب، موكشا أو التحرر) ضمن تقليد راسخ يحاول تفسير العلاقة بين الفرد والمجتمع والعالم، وطبيعة الذات، وأعمال الكارما. **كُلستان**: أو روضة الورد، وهو كتاب مكتوب بأسلوب النثر المسجوع، ألّفه سعدي الشيرازي في عام 656 هجري قمري. **الجريمة والعقاب**: للروائي الروسي فيودور دوستويفسكي. **الغريب**: للفرنسي ألبير كامو. **الأمير احتجاب**: للروائي الإيراني هوشنك كُلشيري. **البومة العمياء**: للروائي الإيراني صادق هدايت. **القصر**: للأديب التشيكي فرانتس كافكا. **الإغواء الأخير للمسيح**: للروائي اليوناني نيكوس كازانتزاكي.

الكتب التي كان كلّ واحد منها جزءاً من جسم عائلتنا وروحها المكوّنة من خمسة أشخاص؛ أيدينا، وقلوبنا، وشعرنا، وماضينا، وأحلامنا، وعيوننا، وأفواهنا...

وعلى هذا المنوال، وبعد حرق آلات تار أبي التي كانت بمنزلة آذاننا ووعينا وروحنا، وبعد إحراقي أنا، وحرق الكتب أصبحنا الآن من دون يدٍ ولا رِجلٍ ولا لسان. لم يكن بإمكاننا تحمّل صوت أنين وصراخ شكسبير ومولانا الرومي، وحافظ الشيرازي، وكنفوشيوس، وزرادشت، وبوذا، والخيّام أكثر من هذا، وشرعنا نطوي طريقنا تجاه البيت، بينما رأيت بنفسي كيف أننا طوال سيرنا من ساحة القرية إلى الزقاق وصعودنا الطريق المرتفع لبستاننا، ابيضّت خصلة من شعر أبي الأسود، ولمدة سبعة أيام لم يتكلّم أيٌّ منا بعد هذا الحادث في البيت. حتى أمي، التي كانت تقف في إيوان المنزل، كانت تذرف الدموع طوال المدة التي ملأت فيها نار الكتب ودخانها وادي رازان، وأوصل النسيم إليها رواية «الريش» المحترقة للأديبة شارلوت ماري ماتيسن؛ وكان سهراب يراقبها من أعلى شجرة بعيدة. وفجأة خلا البيت من زحام الناس المحبوبين؛ وساد الصمت. وبات كلّ شيء مثل حفرة.

وبعد سبعة أيام من الصمت، دخل أبي إلى غرفة المعيشة وبيده مجموعة من الدفاتر ذات أربعمئة صفحة بيضاء وأقلام «بيك» زرقاء وسوداء وحمراء، وقال لنا جميعاً: «ابدؤوا بالكتابة!». ورحنا ننظر إليه وكأنه قد فقد عقله ومشاعره؛ ولكن احتراماً له أمسكنا بالدفاتر ذات الصفحات البيضاء والصفراء ورحنا نتطلّع إليه، فأضاف قائلاً: «اكتبوا؛ اكتبوا كل ما تتذكّرونه. شخصيات الروايات، غرامهم، حروبهم، سلامهم، مغامراتهم، كراهياتهم، خياناتهم... اكتبوا كل ما تتذكّرونه من الكتب!».

بعد ذلك، ولمدة أربعين يوماً بات عملنا الكتابة من الصباح حتى المساء. كانت الأيام تمرّ وكنا نضغط بأقلامنا على جباهنا في صمت وكآبة لكي نتذكّر من أيّ مقطع ومن أي كتاب نبدأ. وفي النهاية، عاد الناس إلى الحياة شيئاً فشيئاً، وكذلك عادت المغامرات وقصص الحب. ومع إحياء شخصيات الروايات، والكتّاب، والشعراء، والفلاسفة، والمتصوّفين، والملحّنين والرسّامين، عادت الأصوات والأغاني والهمسات والدندنات والضحكات إلى البيت تدريجياً. وامتلأ البيت من جديد بالنور، وأصبح مسكوناً بالشعر والرقص؛ وعادت الموسيقا وعاد الشعر والأمل. وتذكّرت بيتا أبياتاً من ديوان الرومي، وراحت تقرأ بصوت عالٍ وبحماس:

لسنا من أهل الصلاح ولا ثملين جذلين
لسنا هنا ولسنا هناك لنقول أين نحن
فنحن مثل الحلاج لا نخشى المشنقة
ونحن مجانين قد ذُبنا في حبّ الله.

وتذكّر سهراب جملةً من مزرعة الحيوانات وكتب: «جميع الحيوانات متساوية، لكن بعضها أكثر مساواة من البعض الآخر». ثم تذكّرت أمي سكارليت أوهارا وقالت: «غداً يوم آخر». وكتب أبي اقتباساً من تشارل بودلير: «يجب أن تكون دائماً في حالة سُكر. هذه هي القضية الوحيدة التي تهمّ. لكن بماذا؟ بالنبيذ أو الشعر أو الفضيلة. الخيار لك. ولكن فقط كن في حالة سكر».

على الرغم من أنه بعد ذلك اليوم، وحتى قبل اعتقال سهراب المفاجئ، عادت بشارات الفرح والأمل شيئاً فشيئاً إلى المنزل، ولكننا جميعنا أدركنا كم أن أمل أبي في تسجيل هذا التراث الإنساني العظيم في دفاتر الملاحظات ذوات الأربعمئة صفحة من النوع الرديء أمرٌ عبثيّ. وبينما كانت رؤوسنا

منكبّة على الكتابة ليلاً ونهاراً، نكتب بسرعة ملخّصات للروايات وكتب تاريخ إيران القديمة والأفكار الصوفية والفلسفية وأبيات الشعراء العظماء، كنا نرى كيف يتسلّل اليأس إلى كلّ جزء من كياننا. ونحن نكتب كلمة تلو الأخرى، كنا ندرك أنه خلافاً لاعتقاد أبي، تتراجع الثقافة والفكر والفن بقوة السلاح والسيف والرصاص، وتبقى عقيمة لسنوات وتصاب بالخرس. من يعلم، فربما تماماً مثل المئتي عام تلك التي أصبحت معروفة بقرنين من الصمت(*).

(*) إشارة إلى كتاب بحثي يحمل الاسم نفسه للمؤلّف عبد الحسين زرينكوب، وهو عن تاريخ إيران في القرنين الأوّلين بعد الغزو والهيمنة العربية في صدر الإسلام.

# الفصل التاسع

فكّرت الأمّهات مع أنفسهن: «عندما نموت، سينعتون أطفالنا المشرّدين والوحيدين باليتامى، ولكن عندما يموت أطفالنا لن يطلق أحدهم اسماً علينا نحن الأمهات المسكينات والوحيدات». لذلك أطلقن اسماً جديداً على أنفسهن: «الأمهات اليتيمات»، الأمهات اللواتي أصبحن يتيمات بأبنائهن.

وفجأةً توقّف قلب رازان، بظاهرها الجميل والعامر، عن الخفقان، في وقت كان سكّانها قد بدؤوا ينسون تدريجياً قضية المجيء الخاطئ لموظّفي مؤسسة الشهيد؛ لأن القرية في ليلة وضحاها صارت تملك مقبرة كبيرة، مقبرة باتساع الذكريات، والأماني والآمال. مقبرة بعظمة الماضي، والحاضر والمستقبل. بعد أيام وأشهر من عاصفة الثلج الأسود ونهاية الحرب وعدم وصول أي خبر عن الجنود الذين ذهبوا إلى جبهات الحرب، لم يأتِ أحدٌ من مركز المقاطعة أو طهران لعرض المساعدة على أهالي القرية، ولا تذكّروهم أصلاً. ولو لم تأتِ روح عفّت إلى غرفتي الخشبية أعلى الشجرة، وتنجد سكّان القرية بالتراث الزرادشتي، لبقيت رازان خرابة حتى الآن. انتهت الحرب وهؤلاء الذين كانوا قد جاؤوا من

الجبهات، وراحوا يبحثون في المدن عن نصيبهم ومناصبهم وغنائمهم، لم تسنح لهم الفرصة ليفكّروا بالقرى، لا سيما تلك القرية النائية جداً والتي لن يطأها أحد سوى الطيور التائهة والأشخاص الهائمين؛ إذ لم تُسجَّل حتى هذا الحين على الخريطة الشاملة للبلاد. ومن بين أخبار تهنئة المناصب الجديدة ومراسم أداء اليمين وشراء عقارات المدينة وبيعها وبنائها وهدمها، كان نصيب أهالي رازان هو أخبار القتلى والمفقودين وأسرى الحرب فقط.

في هذه الأثناء، وفي يومٍ من الأيام قَدِم رجلٌ بعينين حزينتين وحقيبة ظهر كبيرة؛ أدخل قبضتيه الكبيرتين في الحقيبة وسلّم القلائد الصدئة الخاصة بالجنود بيد العرّاف قارئ المرايا الثاني، وأراد أن يذهب دون أن يقول وداعاً، تماماً كما قد جاء دون أن يلقي التحية. وبما أن قارئ المرايا كان يتذكّره منذ سنوات عديدة، سأله لماذا قد أتعب نفسه ليسلّم هذه القلائد؟ فأجاب الرجل ذو العينين الحزينتين الذي لم يكن يتصوّر أن شخصاً آخر ربما يتذكّره في هذه الأنحاء: «القصة تفوق مدى صبرك هذا». ثم واصل طريقه، إلا أن قارئ المرايا اقتفى أثره بخطا ثقيلة وهادئة، وسلّم سيجارة اللف الخاصة به للشخص الغريب، وقال: «على الأقل خفِّف من تعبك بهذه!». وفي الوقت نفسه نظر إلى عيني ذاك الغريب وأردف: «الآن تبدو عيناك حزينتين مثل عيني ذاك الشخص الذي قتلته». وقف الغريب في مكانه، لم يُفاجأ لسماع هذا، دخّن سيجارة اللف بهدوء وعقب انتهائه دهسها بقدمه؛ وبينما كان قارئ المرايا لا يزال يقف بجانبه، سار خطوة واحدة، ثم عاد وقال: «في بعض الأحيان لا ينتقل الميراث من الآباء إلى الأبناء، بل من جاهل إلى جاهل آخر».

لم يكن الأهالي يعرفون ماذا يفعلون بقلائد الهوية الصدئة؛ إذ لم

يمضِ وقتٌ طويل على فرحة البيوت حديثة البناء وزفاف بناتهم. ربما صحيح ما يشاع أنه بعد كل حفل زفاف ثمة حداد. كانوا قد أخذوا منهم أبناءهم الشباب، وأعطوهم قطعاً من الحديد بدلاً منهم. لذلك انطلقوا وبيدهم ما وصل لهم من آخر تذكارات أبنائهم باتجاه قطعة أرض واسعة، وحفرت كل واحدة من الأمهات ركناً ووضعت فيه قطعة من الملابس، أو حذاء أو دمية قماشية أو خشبية، ثم أهالت عليها التراب، وعقدت القلائد مع أجراس ذهبية صغيرة بشتلات أشجار ذقن الباشا، فقد كانوا يربطونها بأقدام الصغار وفقاً للعادات الشعبية في الطفولة ليتحكّموا في بُعد أطفالهم وقربهم، وغرسوا الشتلات عند القبر. وبعد سنوات عدة، كانت القلائد والأجراس المتدلية في وسط النورات الزهرية ذات اللون الأبيض والوردي لأشجار ذقن الباشا، وعطرها المحيّر، تجعل الأمهات يتذكّرن شباب رازان على نحو أفضل: درينغ، درينغ.. درينغ، درينغ.. كنا لا نزال نركض في أطرافكم بأقدامنا التائهة؛ ولكن لم تكن ولا واحدة من الأمهات تعلم أن الأمر سينتهي على هذا النحو، وأنهن يوماً ما قريباً جداً سيذهبن برفقة أبنائهن.

كان الابن الأخير لحفيد عمدة القرية، والذي يبلغ من العمر خمس سنوات، هو من وقعت عيناه لأول مرة على روزا، فقد كانت تمرّ في ساحة القرية دون حجاب، وبقميص زهري محلّيّ الصنع يكاد يصل إلى أسفل ركبتيها. كانت تسير دون أن ترى أحداً، شعر السكّان بالخوف، واعتقد البعض أنها قد جنّت بسبب موت سهراب، وظنّ البعض أنها ربما تمشي متسرنمة في أثناء النوم، لأن خطواتها كانت هادئة وحذرة، ولم تكن تنظر في أيّ اتجاه إلا أمامها.

عندما رأى شيوخ القرية روزا تذهب إلى نهاية القرية بفستان مورّد

حاسرة الرأس، اعتقدوا أنه من الأفضل ألّا يتدخلوا في شؤونها، وبدلاً من هذا، استمروا في احتساء الشاي في المقهى. لم يكن في نهاية طريق تلك القرية أي شيء، لا قرية ولا ريف؛ كانت هناك غابة فقط، غابة لا نهاية لها، تؤدي إلى غابات متوغّلة ورطبة، قيل عنها إنها بلا رجعة. لم تكن روزا بعيدة كثيراً عن الساحة عندما فكّر الشاب اليافع الوحيد الذي تأثّر بشعارات الحسين الإسلامية وأزلامه، واعتبر نفسه من عناصر البسيج، في الذهاب وراءها ليأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر، ويذكّرها أنه مهما كان مدى جنونها فليس لها الحق في السير في بلد إسلامي أمام أعين الرجال الأجانب بهذا الشكل الفاضح. لم يكد الشاب البسيجي يخطو عدة خطوات من مكانه حتى رأى إحدى الأمهات اليتيمات تسير خلف روزا وتتبعها؛ لم تكن المرأة تعرف إلى أين تتجه ولا لماذا كانت ذاهبة، كانت تعلم فقط أنه عليها الذهاب، وأنه الأمر نفسه الذي رغبت بفعله منذ فترة طويلة. جعلتها قوةٌ ما غير راغبة في النظر إلى ما حولها، أو خلفها، أو إلى المنزل أو إلى البستان حيث كانت تعيش فيه في فقر منذ وقت ليس ببعيد، مع ابنها الوحيد الذي استشهد الآن. كانتا على وشك الخروج من ساحة القرية حين سارت خلفهما باقي الأمهات اليتيمات واحدةً تلو الأخرى بشوقٍ وافر.

ارتبك السكّان وركض أزواج الأمهات نحوهن لإنقاذهن من جنونهن العابر، ولكنهنّ واصلن طريقهن إلى غابات مازندران المتوغّلة وهنّ في تلك الحالة: لم يكن على وجوههن حتى ابتسامة خافتة. وكان يقال إن تلك الغابات هي المكان الذي توجد في أعماقه المظلمة فراشاتٌ زرقاء لامعة لم ترَ النور قطّ، وتضيء الطريق للمفقودين؛ والمكان الذي تسيطر عليه الأرواح البريئة القديمة للغابة.

شرع السكّان بتعقّبهن بسرعة كبيرة، لكنهم ساروا لمدة ثلاثة أيام بلياليها في ظلام الغابات الرطبة والمغطّاة بالحزازيات، ولم يصلوا إلى أيّ مكان، فقُسّموا إلى عدّة مجموعات، ولكن لم يعثر ولا شخصٌ واحد حتى على أيّ أثر لهن، وكأنّ الأمهات اليتيمات جميعهن أصبحن فجأة حزازيات وتشبّثن بالأشجار القديمة في غابة هيركاني. وكأنهن قد تحوّلن إلى فراشات زرقاء مضيئة، ترفرف على طول الطريق فوق الرجال وتنثر على أكتافهم وشعرهم غبارها الذهبي الأزرق، مما يصرف حواسهم عن استكمال البحث. وكأنهنّ تحوّلن إلى نسيم صباحي بارد يداعب وجوههم وأذرعهم من بين الضباب، لإيقاظهم في الوقت المناسب للبحث في تلك الغابة التي كانت أشجارها سامقة للغاية وأغصانها وأوراقها كثيفة، لدرجة أن ضوء الشمس لا يصل إلى الأرض من خلالها. وشيئاً فشيئاً، أصبحت الأرض كالمستنقع، وراحت أقدامهم تعلق فيه أكثر مع كلّ خطوة، وتتشبّث العلقيات بأيديهم وأقدامهم، وتنزلق سحالي أبو قرع وتزحف من بين أقدامهم كما لو كانت تيّارات ماء باردة تدغدغهم.

وبعد ثلاثة أيام من المشي المتواصل، وفي بداية اليوم الرابع، انقشع الضباب أمام أعين سكّان القرية الناعسة المتعبين والجائعين، وبينما كان جميعهم مرتعبين لرؤية آخر نمر مازندراني أمامهم في غابة هيركاني، نظر إليهم النمر اليافع ذو الجثة الضخمة بعينيه الحزينتين على نحوٍ بدا كأنه يشعر بآلامهم. وَجّه الشاب البسيجي السلاح الوحيد الذي حصل عليه من حسين وأزلامه -من أجل الدفاع عن الإسلام والثورة ضد هجوم محتمل من قبل منظّمة مجاهدي خلق- صوب النمر؛ إلا أن العرّاف قارئ المرايا وقف أمامه، ثم اقترب من النمر، واختفى كلاهما في الضباب. وبعد مضيّ ساعة، عاد قارئ المرايا إلى السكّان وأخبرهم إنه جاء ليعبّر عن تعاطفه

معهم لفقدان زوجاتهم، ولتحذيرنا من أنه بعد الآن لا نستطيع دخول عالمه المظلم الصامت. ويقول لنا إنه لا جدوى من المحاولة أكثر من هذا، كما أنه قد كفّ عن محاولة العثور على أنثاه منذ سنوات.

عندما عاد السكّان ورؤوسهم مطأطئة إلى القرية، تقدّمهم البسيجي الذي قتل أنثى النمر قبل بضع سنوات، ركضاً من الخوف، ولكن عندما حلَّ الصباح في اليوم التالي، لم يرَه أحدٌ، ولم يُعثَر على جثّته البتّة. فقط عثروا على بندقيته التي قد سحق النمر ماسورتها بأنيابه، ومضغ أخمصها، ملقاةً على الأغصان العالية لشجرةٍ ما. لم يزد السكّان سرعتهم، ومنذ ذلك الحين لم يعد أحدٌ يتذكّر ذلك الشاب البسيجي اليافع.

ولكن خلافاً لما يعتقده الناس، لم يكن النمر هو الذي مزّق البسيجي إلى أشلاء؛ وحده البسيجي يعلم أن جنّ الغاب هم من عاقبوه لانتهاكه قوانين الطبيعة وقتل آخر أنثى نمر متبقية في مازندران دون سبب، فقد كانت أنثى النمر هي الوحيدة، ولم تسنح لها الفرصة لتضع حملها ليستمر جيل النمور المستمر منذ آلاف الأعوام. في الليلة الماضية، تذكّر الشاب البسيجي اليافع والدم ينزف من جروح رقبته على الضباب، كيف أنه قبل بضعة أعوام مضت كان قد أطلق النار على رقبة أنثى نمر حامل، وبينما كان صدر أنثى النمر يصعد ويهبط مضطرباً في أثناء الشهيق والزفير، راح يسلخ عنها جلدها الجميل ويُملّحه، ثم تركه ليجفّ تحت أشعة شمس الصيف الحادة.

لقد جاء في جميع الكتب القديمة أن الجنّ ينتقمون لأنفسهم بالطريقة ذاتها التي قد تعرّضوا للأذى بها، لذلك لم يكن غريباً ما حدث في الليلة الماضية، ذلك أن جلد الشاب اليافع كان قد نُزع منه بواسطة اثني عشر جنّياً تائهاً في الغابة، ومُلِّح، وبعد ذلك نُشر حتى اليوم التالي، ليجفّ تحت

أشعة الشمس الصيفية الحارقة. ورأى كيف قام الاثنا عشر جنّياً التائهون أنفسهم بتقطيع لحمه وعظامه إرباً إرباً، وحملوها إلى رازان، ورموها أمام كلاب القرية. الشيء ذاته الذي كان قد فعله البسيجي بلحم أنثى النمر الحامل وعظامها، فقد تفاخر بعمله واستعرض ذلك أمام شباب القرية الآخرين. كان البسيجي وهو ميّت يرى الكلاب تهاجم جسده الممزّق وتنهشه وتلتهمه باستثناء كلب واحد فقط كان يعيش في حيّهم، فقد تقيّأ بعد ساعة كلّ ما قد أكله، على طول الممرّ المائي خلف منزل البسيجي. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى تحوّلت فضلات الكلب إلى سماد، نمت عليه أجمات النعناع البري العطرة اليانعة؛ وذات يوم ذهبت والدة البسيجي كالعادة إلى ذاك الممرّ المائي خلف المنزل، واقتلعت عدة أجمات من النعناع البري تلك، وطحنتها مع كثير من الثوم والملح، ثم مزجتها باللبن. وبينما كانت الأم العجوز، التي لم تكن تدري أي شيء، تتناول وجبة الدَّلار(*) الشهيّ، اغرورقت عيناها بالدموع بسبب ذكرى ابنها، ورفعت رأسها إلى السماء وتنهّدت بعمق قائلة: «كم هو فارغ مكان ابني، فليرحم الله روحه! كان يعشق اللبن وخاصة الدَّلار». منذ ذلك اليوم، كان الشاب البسيجي يعرف أن الله سيسامح فقط ذلك الجزء من وجوده الذي قد دعت أمه من أجله ليبقى، ولكن ليس باقي جسمه الذي كان لا يزال ملعوناً من قبل النمر وجنّ الغاب!

وبعد أيام عاد الرجال إلى القرية، بينما كانت لا تزال الأعشاب، والأزهار، والفطر وأوراق الغابة الذابلة، تُداس تحت الخطا الهادئة

---

(*) أحد أنواع الأطعمة في إقليم مازندران وهو يتكوّن من اللبن الرائب والنعناع البري والثوم والملح وبعض الأعشاب.

للأمهات اليتيمات، وتطير الأبواغ، والفراشات، واليعاسيب في الهواء من حولهن. لم تكن الأمهات يفكّرن في أيّ شيء، بل استمررن في سيرهن ليل نهار، وعندما وضعت الفراشات الزرقاء المضيئة بيوضها في ثنايا شعرهن، ونسجت العناكب الطائرة شباكها، ووخزت اليعاسيب شحمات آذانهن، لم ينتبهن إلى ذلك؛ وعندما شربن مع السناجب والوعول والثعالب لم يلاحظن الحيوانات أيضاً. لم ينظرن حتى إلى النمر الذي كان يتجوّل حولهن كلّ ليلة مثل الروح الحامية، حتى إنهن سمحن للأرواح التي كانت تحوم منذ القدم في الغابة بإصدار الضجيج حولهن في الليل، وأن تثرثر عفاريت الغابة بتفاخر. وسمحن للأمطار الموسمية أن تبلّلهن وأن تحاصرهن عاصفة الأوراق. لم تكن الأمهات ليهتممن بأي شيء أو لأي شخص، لأنهن كنّ ينظرن فقط إلى أبنائهن الشهداء الذين كانوا يسيرون أمامهن بتلك الأجراس الصغيرة المربوطة حول كواحلهم؛ فحيثما كان أبناؤهن يجلسون كنّ يجلسن هناك أيضاً، وحيثما كانوا يشربون الماء كن يشربن أيضاً. تجنّبن المدن ومررن بالقرى والمصايف، وكان عددهن يقلّ أكثر فأكثر في كلّ قرية ومصيف؛ فعسى أن يضعن أنفسهن وذكرياتهن المؤلمة وسط الغرباء، وعسى أن يصبحن ضعيفات فاقدات القدرة من فرط الإرهاق ويمسين فريسة لبنات آوى والمناجذ آكلة اللحوم. وربما يتسمّرن منتصباتٍ ويتحوّلن إلى جذوع أشجار ليمُتْن واقفات حداداً على ذكرى أبنائهن، تحيط بهنّ الطحالب والأوراق واليراعات الوامضة. من يعلم؟! فربما يتسلّقن أعلى الأشجار برفقة أبنائهن وينضممن إلى ظلال النجوم وروح الغابة الحزينة. استمرّت الأمهات في مسارهن حتى وجدت روزا نفسها وحيدة في النهاية.

كانت المرأة الوحيدة في وسط الحشد التي عانت الوحدة منذ البداية

أيضاً. لم يكن سهراب يمشي أمامها منذ البداية كي تريد الآن إيجاد مكان لتقضي ليلتها فيه. كانت قد بدأت بالسير لأنها أرادت أن تتوه، إذ لم تكن تريد الجلوس في منزلها حديث البناء، والنظر إلى الجدران التي دُهنت حديثاً، والأثاث الجديد والستائر الجديدة، وتتخيّل كيف قُتل سهراب، وكم عانيتُ أنا في أثناء احتراقي.

لم تكن تريد أن تفكّر في المستقبل وتتخيّل المصائب الأخرى التي يمكن أن تصيب هوشنك وبيتا لاحقاً؛ وإنما أرادت الهروب من نفسها ومن مصيرها؛ كانت تريد ألّا يكون لها وجود حيثما كانت. وبطريقة غامضة كانت تريد أن تصل إلى الحالة ذاتها التي انتابتها حين كانت أعلى شجرتي البرقوق الأخضر والبلّوط. كانت تريد أن ترى نفسها من المكان الشاهق، من العُلا، ومن بعيد.

وهكذا واصلت طريقها لأيام وأسابيع بلا توقّف، حتى توقّفت أخيراً ظهيرة ذات يوم مشمس ولطيف من تلك الأيام المعتادة، في منطقة جبلية نضرة بعيدة جداً عن البحر والغابة والبشر؛ كانت قد وصلت إلى مكان لا تعلم أين يقع، ربما كانت قد وصلت إلى أذربيجان أو كردستان، فقد شعرت بعد أشهر عدّة بحرارة الشمس على جسدها. هزَّ النسيم شعرها الذي نسجت العناكب في ثناياه خيوطها، التي كانت يراعات الليل تنيرها ليلاً. جلست في النهاية أسفل شجرة أنجيلي(*) العتيقة التي حوّل الخريف أوراقها إلى اللون الأحمر والأصفر والبرتقالي. وفي المكان نفسه غطّت في سباتٍ عميق، ولم تعرف كم مرَّ من الأيام حين استيقظت بسبب ضغطة يد كانت تربّت على كتفيها بهوادة؛ بصعوبة فتحت عينيها، وما رأته بدا

---

(*) أو شجرة الخشب الحديدي واسمه اللاتيني parotia persica، وموطنها المناطق القريبة من بحر قزوين وكذلك غابات أذربيجان.

غامضاً وباهتاً، فكان على ما يبدو مجرّد سائح، بحقيبة ظهر كبيرة ووجه لوّحته الشمس وله عينان زرقاوان. قال إنه يتجوّل طوال هذه السنوات في الجبال والغابات ومراعي آسيا؛ لم يسأل روزا عن أيّ شيء، لم يسألها حتى كيف لوجهٍ بهذا الشباب أن يكسوه شعر أبيض، ولكنه تحدّث عن نفسه، وقد قال إنه منذ عامين قد انجذب لطبيعة إيران، وإنه تعلّم الفارسية خلال هذه المدة.

وفيما راح ينصب خيمته، ويعدّ البطاطا المشوية والذرة على النار، واصل حديثه بلا توقّف. قال إنه فهم معنى الحياة مع رهبان ممارسي اليوغا في سهول الهند وجبالها. كما إنه تعلّم الفروسية في مراعي قيرغيزستان الخضراء، وأدرك كيف ينسجم مع الطبيعة وسط بدو القرغيز قاطني الخيام، وتعلّم القناعة وسط سكّان جبال بامير الثلجية في طاجيكستان، وتعلّم النظر إلى أعماق التصوّف والعرفان مع دراويش باكستان والعراق، وفي إيران اكتشف عظمة الصمت وسكون الصحراء العتيقة.

وبعد مرور أسابيع وشهور من الصمت، راحت الكلمات تتخذ مكاناً لها في عقل روزا شيئاً فشيئاً عن طريق ثرثراته، وتصبح ذات مغزى مرة أخرى. فقد تسبّبت رغبتها العارمة في الصمت في أن يجِفّ لسانها وتصبح شفتاها يابستين وتصابان بالانتفاخ. أعادتها كلمات الرجل تدريجياً إلى عالم الأحياء. بدا وكأن عينيها اللتين قد جفّتا في محجريهما، عادتا رطبتين مرة أخرى، وبعد أشهر تحرّك بؤبؤاها إلى هذا الجانب وذاك. ألقت نظرة ورأت الرجل الغريب وتذكّرت نفسها رويداً رويداً. نهضت، وفكّرت بذعر: إن كانت هي روزا، فأين هوشنك وبيتا وبهار؟ نظرت إلى قدميها. كانت حافية، وقد أصيبت أصابع قدميها وكعبيها بكدمات غائرة. جلست وأمسكت بقدمها اليمنى؛ وراحت تتذكّر الألم للتوّ. عندئذٍ جلس

السائح بجانبها وبيده صحنان معدنيان وقطعة خبز؛ لم يكن الرجل مصرّاً أن يجعلها تحرّك حبالها الصوتية. ربما كان هذا كافياً بالنسبة لها أنها بعد أسابيع من الوحدة والصمت، وجدت أخيراً شخصاً يمكنها أن تتخذه ذريعة لتستعرض لغتها الفارسية؛ وبعدما لعقت روزا قاع صحنها المعدني، مدّت له صحنها بحذر، وطلبت الطعام مرّةً أخرى، وبعدما أكلت، كان الرجل قد فرش حقيبة نومه، وارتفع شخيره أيضاً. نظرت روزا إلى النار ثم إلى السماء، فخالجها طيفٌ من الذكريات؛ كانت النجوم قريبة منها، وعندما خلدت إلى النوم لم تكن متأكّدة مما إذا كان ضوء النجوم قد تسبّب في دفئها أم أنها شرارات النار الأخيرة. مرّت الأيام والأسابيع وكانت روزا تتوقّف من حين إلى آخر، وتسأل نفسها هل هي نفسها من تطوي الجبال والسهول وراء هذا الرجل الغريب، أم لا؟ الرجل الذي أمدّها بحقيبة نوم وبنطال وحذاء ومعطف دافئ في اليوم الأول؛ الرجل الذي كان يبتسم للأضواء الخفيفة التي ترمش في شعرها في الليل، قبل أن يقول لها «عمت مساءً»، وينام من فرط الإرهاق ويستيقظ قبلها في صباح اليوم التالي، وبعد ممارسة اليوغا لفترة طويلة، يعدّ الإفطار. رجل مثلها تماماً لم تكن لديه الرغبة في عدّ الأيام، ولا أن يعرف في أي منطقة من أي مقاطعة أو بلد يقضيان وقتهما؛ رجل أراد فقط أن يضيع في قلب الطبيعة وبعيداً عن البشر. مثلها تماماً.

في الأيام الأولى، ظلَّ الرجل يختبر لغته الفارسية بلا انقطاع، ويثرثر باستمرار؛ وراح يصف ذكريات كثيرة عن القرى، والقبائل، وممارسي اليوغا، والصوفيين، والرعاة والمجذوبين في البلاد التي مرَّ بها، ولكنّه ذات يوم توقّف فجأة عن الثرثرة. اختار الصمت بهدوء واطمئنان على نحوٍ لم تشكّك روزا مطلقاً بنيّته ولم تشعر بالقلق تجاهه. ولأيام وليالٍ

عديدة، استمتعا بالصمت في أثناء تناول الطعام معاً، والتنزّه مترافقَين معاً ومشاهدة شروق الشمس وغروبها، حتى اليوم الذي أدركا فيه أنهما دخلا تركيا عن غير قصد. وراحا يضحكان من فكرة أن على هذه الكرة الأرضية يُقتل الناس لمجرّد تخطّيهم الحدود من هذه الناحية أو ذاك الجانب بمقدار خطوة واحدة، وكيف أنهما وصلا إلى دولة أخرى عبر الجبال عن غير قصد وبهذه البساطة. استمرّا بالضحك حتى تساقطت الدموع من أعينهما، ثم سحب ذاك السائح الذي ابتعد عنها قليلاً سحاب بنطاله وبدأ في التبوّل، لئلا يبلّل نفسه من كثرة الضحك. ولهذا وبعد الصمت الطويل باتت تلك الضحكة الرابط المشترك للعلاقة بينهما. ومنذ ذلك اليوم، كانا يضحكان في مواقف سخيفة، فقط من خلال تبادل النظرات، دون أن يقولا شيئاً. وفي المناطق الجبلية التركية كانا يشعران بنفسيهما حرّين من كل قيد ومحظورات، لدرجة أنه ذات يوم خلع السائح ملابسه دون أن يبالي بها، ثم غطس في عين الماء الدافئة التي كان قد عثر عليها. فشعرت روزا -التي لم تكن قد رأت حتى ذلك اليوم جسد أي رجل باستثناء جسد هوشنك، وخاصة تحت الضوء الخافت الذي دخل من النافذة إلى الغرفة- بالإحراج وأعادتها ذاكرتها إلى ذكرياتها البعيدة الباهتة. نظرت إلى يديها اللتين كانتا تحرّكان الطعام على النار وتعدّانه، وفكّرت أن هاتين اليدين قد اعتادتا في السابق إعداد طعام أفراد عائلتها فقط. نظرت إلى حذائها ذي الرقبة، كيس نومها، وبلوزها ومعطفها، وراحت تفكّر أنها لم تكن تملك مثل هذه الأشياء في أي وقت مضى. وقعت عيناها من بعيد على ذاك السائح مرة أخرى، واقشعرّ كيانها كلّه من ذاك الشعور الدافئ، والمألوف: أي الخجل.

نهضت من مكانها، بجسد مرتجف ووجهٍ محمرّ من الخجل، انطلقت

وابتعدت. وفي وقت العصر، عثر عليها السائح بين الصخور على ضفة النهر وقد سقطت في مكانٍ ما مغمىً عليها من كثرة الصراخ والبكاء ولطم نفسها.

استيقظت روزا عندما حلَّ المساء، فوجدت نفسها بجانب السائح وتحت خيمته محاطة بصوت جريان النهر؛ كان جسدها منهكاً، وعندما مرّرت أصابعها على خدّها، تألمت مواضع ندبات أظفارها، إذ كانت قد خدشت بها نفسها، ولكن بسبب الضوء الشاعري الذي كان قد استشرى من يراعات الليل المضيئة على شعرها تحت سقف الخيمة القصير، شعرت بالهدوء. بدا الأمر وكأن ألم جسدها قد خفّف أوجاعها العاطفية الشديدة، إذ كانت تشعر وكأنها مثل بالون قد فرغ فجأة. شعرت بدفء السائح الذي كان يرقد داخل كيس نومه بجوارها، وفكّرت كم شهراً مرَّ وهي تسير مع هذا الرجل، ومع هذا فهي لا تعرف اسمه حتى؟ كانت تعرف فقط أنه إيطالي، وأن أباه كان متسلّق جبال وقد تجمّد في جبال الألب وأسلم روحه، وعثر الرعاة على جثمانه المتجمّد بعد سنوات عدّة.

أغمضت عينيها وشمّت رائحة مألوفة: رائحة الثقة الدافئة الممتعة. تقلّبت في مكانها حتى ترى وجه الرجل الغريب، وعندما رأت الخطوطَ التعبيرية، التي كانت مستقرّة بهدوء على وجهه، ومع كلّ نفَس، كانت لحيته الطويلة التي وخطها الشيب ترتعش ببطء، أدركت أنها حتى الآن لم تكن قد رأت وجهه. كانت هناك ابتسامة لطيفة على شفتيه جعلتها تعتقد فجأة أنه ربما كان مستيقظاً ويتظاهر بالنوم؛ عند هذا التفكير، بات الخجل يسري في جسدها كلّه، وسرعان ما دسّت نفسها في كيس نومها، ولكن مع استمرار صوت النوم الرتيب ذاته، خدّر شعور دافئ جسدها. شكّت في وفائها لهوشنك، وهذا شيء لم تكن قد جرّبته من قبل قطّ؛ كرهت نفسها ودسّت نفسها في كيس نومها أكثر، وغفَت وهي تفكّر في هوشنك.

كان لا يزال منتصف الليل عندما فزّت من النوم؛ ربما كان صوت يمامة أو بومة في تلك الأنحاء بالقرب منها هو ما أيقظها. أخرجت رأسها من كيس نومها وراحت تتطلّع إليه، كان لا يزال غافياً كالطفل، ولم يتقلّب أثناء النوم حتى. رغبت في لمس لحيته وشعره الممزوجين بالشيب، ولمستهما، كانت لحيته ناعمة، وطويلة بمقدار طول خصلات شعرها الأسود. لمست شعرها، وقد أمسى لزجاً وخشناً بفعل المشي لأشهر تحت الشمس والمطر والرياح، وبفعل وجود خيوط العناكب وبيوض الحشرات واليراعات فيه. نهضت من مكانها ووجدت شامبو، وصابوناً، ومنشفة، وطقم ملابس جديدة بين أغراض الحقيبة التي كان السائح قد اشتراها لها. ذهبت صوب النهر. كان الجوّ حاراً، ولكن مياه النهر كانت منعشة؛ وعندما غمرت المياه الباردة جسدها بأكمله، لم تتذكّر رغم محاولاتها متى استحمّت آخر مرة. تركت المياه العذبة الباردة تغسل شعرها، وتداعب ثدييها العاريين اللذين بقيا يافعين، وتتوغّل بين فخذيها الصلبين. دفعها شعور غير مسبق للاعتذار لأول مرة لجميع البيوض والحيوانات التي كانت تعشش في شعرها طوال هذه الأشهر ورافقتها خلال هذه المدة، وسلّمتها للنهر. كان الظلام لا يزال قائماً عندما خرجت من المياه؛ منحها كيس النوم الدافئ شعوراً بالخدر والاسترخاء، فجلست القرفصاء وتركت الرائحة النظيفة تحيط بها. ولكن رغم محاولاتها لم تستطع النوم. فراحت تفكّر: أيّ مصيبة حلّت بي؟ فتقلّبت مرّة أخرى ونظرت إلى الرجل. أدنت وجهها إليه كثيراً لدرجة أنها شعرت بحرارة أنفاسه. في البداية بدت شفتاه البارزتان، ورموشه، وجبهته العريضة جميلة بالنسبة لها، وودّت أن تنظر إليه كثيراً حتى يخطفها النوم، إلا أن الرجل فتح عينيه ببطء.

في ما بعد، عندما راحت تعيد النظر في تلك اللحظات مراراً وللمرة المئة، شعرت بالخجل من نفسها لأن عيني الرجل اليقظتين القريبتين جداً لم تُخيفاها. نظر كلٌّ منهما إلى الآخر؛ لدقائق طويلة، وكانت روزا هي التي مرّرت أصابعها أخيراً على خدّ الرجل وداعبته. وأيقظ إحساسٌ مجهول جسدها كلّه وجعل روحها جريئة. لم تكن ترغب في أن تسمح لمخاوفها وهواجسها أن تسيطر عليها. ولأول مرة، شعرت أنه ليس لديها ماضٍ. عانقت الرجل، وأحيا هو جسدها الذي كان لا يزال صلباً ويانعاً. امتزجا وجعلت رائحة الأمان والثقة الدافئة المنبعثة من أنفاسهما الهادئة التي راحت تتسارع أكثر فأكثر، سقفَ الخيمة القصير باتساعِ سماء المنطقة الجبلية ليلاً وجمالها. قبّلا وداعبا كلٌّ منهما الآخر، وسمحت روزا لأصابع الرجل الذكورية والخبيرة أن تكتشف زوايا جسدها، وأن يشمّها ويقبّلها ويفترسها. عانقا أحدهما الآخر بإحكام وتدحرجا عاريين معاً، وسقطا خارج الخيمة على العشب البارد وتحت سقف النجوم والقمر. واجتازا مراحل لم تفكّر بها روزا من قبل قطّ.

وبينما كانا يقبّلان كلٌّ منهما الآخر ويكتشفان جغرافية أجزاء جسديهما، تجاوزا الشعور بالخجل، وعبرا مرحلتي الخوف والقلق، وتحرّرا من ذهنيهما، واستسلما أخيراً للإيقاع الوحشي لرغبتيهما وجسديهما وأنفاسهما التي باتت تتسارع أكثر فأكثر، وأرشدهما إلى المنطقة الجنوبية من جذعيهما. تدحرجا على الأعشاب، وسحقا أجمات النعناع البري وأزهار أذن الفأر(*)، وفي غمرة المياه الصافية للنهر نسيا نفسيهما؛ وسمحا للماء أن يغسل الماضي والذكريات ويجرفها معه بعيداً. كان الرجل قد انغمس في أنوثتها

(*) يعتبر البعض زهرة أذن الفأر رمزاً للصداقة والحب الصادق. ويرد ذكر هذه الزهرة في عدد من الأساطير.

كوحشٍ مفترس، وأخذت المرأة تغرز أظفارها في ظهره الصلب بشهوة. ولاحقاً عندما فكّر كلٌّ منهما، في إحدى زوايا قلبه، بذكريات تلك الليلة الوحشية والمتمرّدة، لم يتذكّرا عدد المرات التي شعر فيها كلٌّ منهما ببلوغ النشوة في جسده: ثلاث مرات؟ عشر مرات؟ كان عدد المرات كثيراً، وفي كثير من الأحيان، كانا يستيقظان فجراً وجسداهما متشابكان مبلّلان مثل سمكتين زلقتين مقطوعتي النفس، ولم يتمكّنا من تخيّل انفصال هذين الجسدين. مراراً وتكراراً انغمس كلٌّ منهما في الآخر، غاصا، تحررا، وسمحا للشمس أن تقوم بعملها؛ أن تشرق ويحلّ الظهر ثم الليل. وفي النهاية وجدا نفسيهما في ذروة إشراقة الحب.

# الفصل العاشر

لم يكن قد تبقّى أحدٌ كي يستمتع بالبيت حديث البناء ذي غرف النوم الخمس، وغرفة المعيشة، وصالة الاستقبال، والمطبخ الرحب، ولكي يجلس في الليالي بجوار لهيب المدفأة الجدارية الكبيرة، ويحتسي الشاي، ويتصفّح أحياناً كتاباً أو مجلّة، وينصت للصوت المرح لأفراد الأسرة المنشغلين بتعقّب أحلامهم. كلّا، لن يعود هذا المنزل منزلاً لأحد أبداً.. مع أن أرائكه الجديدة ذات اللون الأخضر المخملي كانت تجعل انعكاس ألوان الغروب في غرفة الاستقبال أكثر جمالاً، ومع أن مكتبته الكبيرة كانت قد امتلأت من جديد بالكتب الحديثة، ومع أن الحدائق كانت في غاية الجمال، فقد زُرعت فيها بشكل منسّق زهور الكانوميلس، والفورسيتيا، والزنبق البنفسجي، فلا تملّ العين منها. كان المنزل حديثاً للغاية لدرجة أن رائحة الطلاء الجديد ما زالت تفوح منه، ولم تكن الأَرَضة قد اخترقت أيّاً من أركانه الخشبية على الإطلاق. ولأول مرة بات المنزل يحتوي على سخّان مياه يمكنهم إشعاله متى رغبوا، ليغسلوا الأطباق بالماء الساخن، ويمكثوا في الحمام وحوض الاستحمام الخزفي متى شاؤوا، دون الخوف من أن تصير المياه باردة. ولكن هل تبقّى شخصٌ أصلاً؟ كانت اللوحات

الخطّيّة لأبي وجدّي، ذات الأطر الحديثة والسجاد القديم قد نجت من الثلج الأسود، والمطر، والفئران؛ وعلى الرغم من أنها تزيّن أرجاء المنزل مع الستائر الحريرية الجديدة، ولكنّها تجعل أبي وبيتا يتقزّزان حدّ التقيّؤ في أيام الحداد المكرّرة هذه. اشمأزّا من كلّ هذا الجمال عديم المالك؛ جمال دون متفرّج. إذ كان رحيل أمي بمنزلة رصاصة الرحمة لكليهما.

في ذلك اليوم، وخاصة في الصباح عندما رتّبت أمي الفراش، وأزاحت الستائر، حتى يسطع ضوء الشمس على السجاد، وتتشكّل انعكاسات خافتة من الألوان والأضواء، ذهبت إلى المطبخ وأشعلت أسفل إبريق الشاي. كان أبي قد ذهب كعادته صباح كلّ يوم، ليقطف الزهور اليانعة من الحديقة، ويضعها في المزهريات الخزفية والكريستالية الفاخرة الجديدة. وفي أثناء انتظارها غليان المياه في إبريق الشاي، كانت أمي قد ذهبت إلى غرفة الاستقبال التي زُيّنت حديثاً بالستائر والأرائك الخضراء، وعُلّقت فيها لوحات أجداد أبي وأسلافه بناءً على إصراره، ودون أن تجمع الستائر، جلست على الأريكة المواجهة للبستان، ورأت أبي من خلف الباب الزجاجي الكبير وهو يقصّ أزهار الروز بمقصّ البستنة، وفي الوقت ذاته يدندن أغنية كاروان لـ«بنان». كم أصبح كلّ شيء هادئاً، وجميلاً، وجديداً، بسبب رقصة الضوء الخافت الذي كان يترقرق بين ثنايا الستائر الخضراء؛ كان كلّ شيء من البستان، والمنزل، ورازان قد نجا من بؤس الموت، وكأنه لا يزال يمكن للمرء أن يعيش، ويمكن عدم التفكير في بهار وسهراب، وتقبُّل حقيقة الموت. راحت أمي وهي جالسة بالوضعية ذاتها على الأريكة ناظرةً إلى أبي من خلف الباب الزجاجي، تفكّر في أنها ربما قد تتخذ قراراً لتكسر أخيراً طلسم الحزن في المنزل، وتضحك اليوم بصوت عالٍ. ففي النهاية وعلى الرغم من كل شيء ما زالت الحياة مستمرة،

ومهما يكن فالشمس كما هي، وهوشنك وبيتا لا يزالان موجودين، وما زالت الليالي المقمرة في غاية الروعة والشاعرية، لدرجة أنها ترغب في أن تذوب بين أحضان هوشنك الرجولية، وأن تنصت إلى صوته الدافئ الأجشّ وهو يغنّي لها:

آه، يا آلهة الدلال

تعاطفي مع قلبي!

فكّرت في شعر سهراب: «مات شخص بالأمس/ وما زال خبز القمح جيّداً/ وما زال الماء يجري إلى الأسفل/ وتشرب الجياد». استقرّت ابتسامة خافتة على شفتيها، وتماماً في الوقت ذاته، سار أبي من الحديقة الأمامية للمنزل إلى حديقته الخلفية ليقطف فرعاً من الروز الأصفر، نهضت أمي عن الأريكة القطيفة الخضراء ذات المقابض المنحوتة من خشب الجوز، ومرّت على السجادة المَحيكة يدوياً ذات اللونين الأخضر والكريمي في غرفة الاستقبال، ودلفت إلى غرفة المعيشة، ثم ذهبت إلى الإيوان، ونزلت سبع درجات من السلّم بهدوء حتى وصلت إلى الفناء ذي الأرضية الموزاييك، ومن هناك أطلقت ساقيها على أول درج مكوّن من مئة وخمس وسبعين درجة، كانت نهايته تتصل بباب البستان، وقد كان محاطاً من كلا جانبيه بورود الكانوميلس، والفورسيتيا، والوزال، ورعي الحمام. وعندما انتهى الدرج، ما لبثت أصابع قدميها أن ابتلت بندى الصباح على البرسيم، ونباتات أناريجه(*)، والحشيش، وشعرت أن ذهنها بات يخلو تدريجياً من الأسماء، ومن الأشياء التي كانت تسعدها قبل هذه الدقائق القليلة الماضية. حاولت أن تفكّر في شيء ما، ولكن بمجرّد أن خرجت قدماها من بوّابة البستان الحديدية، ودخلت الزقاق الترابي لبستان

(*) من الأعشاب العطرية الخاصة بإقليم مازندران.

القرية، حتى توقّف كلّ شيء في ذهنها فجأة؛ حلَّ الصمت، وبات ذهنها خاوياً. وهي تمرّ من ساحة القرية، حيث راح السكّان يرمقونها بدهشة وأفواه فاغرة، أدركت أنها لا تستطيع أن تفكّر في فراغ ذهنها، وإنما يمكنها السير فقط.

وهكذا، عندما دخل أبي المنزل بباقة من الأزهار الحمراء والصفراء والبيضاء، وسمع صوت أزيز الماء والبقبقة، وكان يفيض إلى خارج الغلّاية الموضوعة على نار الموقد، داهمه قلقٌ مفاجئ. أطفأ الموقد، ووضع باقة الأزهار على خزانة المطبخ الجديدة، وذهب إلى غرفة النوم ليبحث عن أمي، ثم مرَّ على الغرف الأخرى، وأيقظ بيتا من نومها وسألها عن مكان أمي. وبعد ذلك ذهب إلى الإيوان وصاح باسمها الذي كان دائماً ما يعتقد أنه الاسم الأكثر شاعرية في الحياة، صرخ عدة مرات: روزا.. روزا.. روزا!

لم توضع هذه الباقة في أيّ مزهرية، بل ذبلت في مكانها على خزانة المطبخ؛ ولم تسمح بيتا لنفسها حتى ذلك اليوم الذي غادرت فيه المنزل، بلمس الأغصان والأوراق اليابسة التي كانت تستحيل غباراً لتمتزج مع الهواء بأدنى لمسة. منذ اللحظة التي نادى بها أبي أمي، لم ينهض من كرسي الإيوان لثلاثة أيام، وعندما نهض من مكانه، كان شعره قد ابيضّ تماماً؛ ابيضَّ كالثلج. تماماً مثل شعر أمي بعد إشراقة شجرة البرقوق الأخضر.

تخلّى أبي عن البستنة وصنع إطارات اللوحات، وكلّ ما كان يمكنه فعله هو الجلوس على الكرسي الهزّاز الذي كان يوماً ما يجلس عليه في الإيوان مع سهراب وأمي وبيتا ويستمعون إلى صمت الطبيعة، وقد كان يخرقه أحياناً خوار بقرة أو سجع يمامة ما. مرّت الأشهر، ورغم أنني كنت أزورهما كل يوم، لم أستطع التعرّف لا على أبي جيّداً ولا على بيتا. لم يعد

لدى بيتا الوقت الكافي حتى للتفكير في أمنياتها المنسية أو نفض الغبار عن حذائها الوردي الخاص بالباليه؛ إذ كان عليها أن تملأ مكان الجميع بمفردها: فكانت تطهو الطعام، وتحافظ على نظافة المنزل، وتتحدّث عن الكتب، وتضع شريطاً للمطربة مرضية أو بنان في جهاز التسجيل، وتهتمّ بالبستنة وتتلو الشعر بصوت عالٍ:

في بعض الأحيان
ما يقودنا إلى الحقيقة
يخلو منها
لأن الحقيقة وحدها
هي التي تحرّرنا
وهذا من سعدنا
ربما،
أن ما نريده،
إما لا يمكن تحقيقه
أو يضيع من بين أيدينا(*).

كانت تغسل الصحون، وتغنّي، وفي الوقت نفسه تتحدّث عن خطط كانت تعلم مسبقاً أنها لن تحدث أبداً. كانت تشعر أنه ليس لديها أيّ خيار سوى الثرثرة، وإلا فإن الصمت قويّ جداً لدرجة أنه يمكنه ببساطة هزّ جميع أعمدة ذلك المنزل القوي المبني حديثاً وتدميره على رأسيهما.

في النهاية بينما كانت بيتا تنظر من المطبخ إلى عشب البستان الطويل، والأشجار غير المقلّمة، والأرض غير المحروثة في صباح يوم مألوف، وفي الوقت ذاته تغسل الأطباق، دارت في خاطرها هذه الفكرة: بما أنه قد

(*) للشاعرة الألمانية مارغوت بيكل Margot Bickel.

خلا البيت من صخب أفراد العائلة، يستحسن أن أجلب الضجة والحياة إلى البستان.

ولهذا ذهبت إلى القرية حتى تعيّن بستانياً؛ أشار الناس إلى بيت عيسى قائلين إنه قد يكون هو الشاب الوحيد الذي نجا بصعوبة من الحرب، ويمكنه أن يقوم بأعمال بستان تبلغ مساحته خمسة هكتارات. عندما مرّت بيتا بساحة القرية، وولجت في أحد الأزقة بين البساتين المؤدية إلى بيت عيسى، لم تكن تعرف أنها ستدخل سريعاً إلى بيتٍ -مع أنه لم يُطرق بابه منذ سنوات- ما زالت الوقائع التي جرت فيه حديثَ الناس المستمر، إذ لم تنجح الثورة، وأحداث الحرب، والتعبئة العسكرية، واستشهاد الشبان، وهطول الثلج الأسود، ومسخ الأمهات اليتامى أيضاً، في جعل الناس ينسون هذه الوقائع.

إن قَدَر بعض الأشخاص ممزوجٌ بطبيعة الموت، وبتلك البساطة فإن قَدَر البعض الآخر مرتبط بالغنى، والفقر، أو المرض الخَلقيّ. لم يكن لعيسى أمّ؛ فقد ماتت عند ولادته. ولم يعد لعيسى أب أيضاً؛ إذ دخل أبوه نار رازان، واحترق خلف قارئ المرايا الأول. ولا أخت لعيسى؛ فأخته عفّت، تلك التي أتت إلى غرفتي أعلى الشجرة وأرادت أن تحلّي بعضاً من ذكريات الماضي المريرة في أفواه أهل القرية بإشارتها إلى موضع الكنز، أصيبت بالغرام الأسود الجنوني، حين لمحت راعياً بنظرة واحدة كان يمرّ من رازان ببضع مئات من الأغنام، وماتت من فرط حبّها له.

ماتت أم عيسى، القابلة الوحيدة لرازان ولكلّ قاطني الغابة النائية، عند ولادته؛ لأنها نكثت وعدها الذي كانت قد أعطته لجنّ الغابة منذ سنين. في هذه الأيام ربما يظنّ الأحداث من شبان رازان أن هذا الكلام ما هو

إلا خرافة، ولكن كبار السن يؤمنون به كيقين الشمس؛ لأنهم قد شاهدوا الواقعة بأم أعينهم. كانت لپروانه -أم عيسى- القدرة على المداواة والتوليد منذ نعومة أظفارها، وهي القدرة التي كان الجنّ قد منحوها إياها؛ لأنه ذات يوم رأت أم پروانه -حميرا خاتون- جنيّةً صغيرة في فناء بيتها وهي تشرب من ماء البئر. كان كل ما في الجنية الصغيرة مثل الآدمي سوى قدميها؛ فقد كان لها حافران، كما أن جسدها كان مغطّى بالشعر كاملاً، وكانت قذرة تُشمّ منها رائحة عفن الموتى من عدة أمتار. وعلى الفور سمَّرتها حميرا خاتون في الأرض بالمسمار الذي كان في يدها، وبما أن الجنية الصغيرة كانت تخاف من الحديد مثل أسلافها، لم تستطع حتى أن تلمس المسمار. مضت بها حميرا خاتون إلى الحمّام في ذلك اليوم، وغسلتها، وأزالت عنها القذارة وقمل شعرها، وألبستها رداءً نظيفاً، وركّبت في قدميها حدوتي مهر صغير. وهكذا حدث أن الجنية التي باتت تُدعى «جنية» في البيت منذ ذلك الحين فصاعداً، أصبحت جارية، وطاهية لحميرا خاتون التي كان لها في ذلك الوقت ستة أولاد وبنت، وعلى الرغم من ذلك كانت بمفردها تقوم بكلّ أعمال البيت، وحقل الأرز.

بما أن حميرا خاتون كانت تعلم أن والدة الجنية تبحث عنها، لم تعد تسمح لها بالخروج إلى الفناء؛ وهكذا ظلّت أم الجنية الصغيرة تذهب من هذا البستان إلى ذاك البستان، ومن هذا الفناء إلى ذلك الفناء، ومن صهريج الماء هذا إلى ذاك تبحث عن ابنتها، حتى مرّت في ظهيرة يوم عادي من أيام الصيف من جانب نافذة قبو حميرا خاتون، ورأت ابنتها وهي تخلي فرن المطبخ من الرماد. حينئذٍ جلست أم الجنية هناك، وبكت بحرقة، ثم ذهبت تستشير جنّ الغابة وتسألهم كيف تستطيع أن تنقذ طفلتها من يد الإنسية؟

وجد أحدهم حيلة؛ ومن ثم بدأت آلام الصداع في رأس حميرا خاتون.

ظنّت في بادئ الأمر أن آلام الصداع نتيجة لفح الشمس، والعمل الكثير في حقل الأرز، ولكن في ما بعد، حين زادت آلام صداع الرأس يوماً بعد يوم، ولم تنقطع ولو لدقيقة واحدة؛ جاؤوا لها بقارئ المرايا الأول الذي سألها: «كيف هو صداعك؟»، فأجابته حميرا خاتون: «إنه بالضبط وكأنّ أحدهم يطرق على رأسي بجاروف نحاسي باستمرار». ردّد قارئ المرايا بعض الأوراد، وما إن نصب مرآته في مواجهة السيدة حميرا؛ حتى رأى جنياً في المرآة وهو يطرق بالجاروف النحاسي على رأس المرأة. وبينما كان يُبخّر الحجرات ويردّد الأدعية، أخبر قارئ المرايا السيدة حميرا بالأمر، وقبل أن يغادر ركّز بصره في عين الجان داخل المرآة، واستعان ببعض الطرق التقليدية لدفع الجن، ولكنه في النهاية قال: «لقد أخضعتْكِ لعمل سحري فلا يبطل إلا على يديكِ أنت وحدك».

وهذا ما كان، إذ أمسكت حميرا خاتون بيد الجنية الصغيرة في منتصف تلك الليلة وألقت بها في الفناء، وبدأت تضربها بالمكنسة دون سبب، وبمجرّد أن علا صوت ضربات المكنسة بحدّة، لم يكن لدى أم الجنية الصغيرة حيلة فظهرت، وقالت مسرعةً: «إنك تعرفين كل مكائدنا جيداً! كنت أريد أن أبرم معك صفقة؛ حتى تعيدي إليّ ابنتي، ولكنْ يبدو أنك الآن من جلبتني كي تبرمي معي صفقة!».

وعلى الفور دخلت حميرا خاتون في صلب الموضوع: «إن كنت قد جئت من أجل ابنتك، عليك أن تهبي سبعة أجيال من بنات عائلتي القدرة على المداواة».

حين سمعت الجنية هذا الكلام قالت للمرأة: «افتحي فمك!». فتحت المرأة فمها، وبصقت الجنية بداخله، وقالت: «من الآن فصاعداً وحتى سبعة أجيال سيكون لمن هي من بناتك، أو حفيداتك، القدرة على المداواة

عن طريق بصاقهن». ثم أردفت قائلة: «والآن عليك أن تفي بوعدك». لكنّ السيدة حميرا لم تفِ بالعهد، وإنما قالت: «لديّ شرط آخر، وهو أن تكون بناتي اللاتي يولدن حتى سبعة أجيال أفضل قابلات رازان، وكل مناطق الأحراش، وأطراف الغابة؛ حتى يصبحن جميعاً ثريّات، وأعلى شأناً من أزواجهن».

وفي هذه المرة قالت الجنية التي لم يكن لديها خيار آخر: «ناوليني يديك!». ففعلت المرأة، وبصقت الجنية ثانيةً على يديها، قائلة: «تفضّلي؛ ها نحن ذا! من الآن فصاعداً ستصبح بنات الأجيال السبعة من بعدك أفضل قابلات هذه الأنحاء، وستزداد أموالهن لدرجة أنهنّ لن يتمكّن من تخزينها».

لمّا سمعت حميرا خاتون ذلك، اقتلعت الحدوتين من حافري الجنية الصغيرة بالكمّاشة، وما إن أمسكت الجنية بيد ابنتها حتى قالت: «لكن بما أنكِ لم تفي بعهدك، تذكّري أنني من الآن فصاعداً سأناصبكِ أنتِ والأجيال السبعة من بعدك العداء. تذكّري إن أطلعتهن على ما يملكن من مقدرة، فإن هذا الطلسم سيبطل. عليهن أن يدركن قوّتهن بأنفسهن».

ثم أنزلت سروالها القذر ذا الرائحة الكريهة وبالت على حافة بئر الماء؛ وظلّت حميرا خاتون التي لم تكن تضاهيها قوةً، واقفةً في مكانها، ونظرت إلى الجنية، وبولها الذي انساب، وسال حتى وصل إلى ماء البئر. بعد ذلك اختفت الجنية وابنتها في لمح البصر.

ومنذ ذلك الحين حتى هذا اليوم وإلى سبعة أجيال من بعد ذلك، لم يعد هناك من يستخدم مياه تلك البئر التي كان ماؤها يزداد عاماً بعد عام حتى فاض وصبّ في الفناء والحديقة والبستان، وأصاب النباتات بالسحر وسمّمها كلّها، وهكذا أصبح العداء الأول للجنّ إشكالياً مع عائلتها.

ولكن لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى أدركت پروانه ابنة حميرا خاتون الوحيدة أنها ليست فقط قادرة على أن تلمس أسنان الناس المسوّسة وتخفّف آلامها أو تقلعها دون وجع، بل إنها أيضاً يمكنها معالجة آلام الروماتيزم والاعوجاج في ركب كبار السن من النساء والرجال والقضاء عليها للأبد. لم يكن قد بلغ صيتها المسامع بعد حتى أدركت أنها تستطيع مساعدة النساء على الولادة دون ألم، لذلك لم يمضِ وقتٌ حتى انتشر اسمها من هذه القرية إلى قرى الأرياف والسهول البعيدة، في الوقت الذي كانت لا تزال فيه صغيرة لدرجة أنها كانت تبلّل فراشها ليلاً وتحتضن دميتها المصنوعة من خرق القماش لتخلد إلى النوم.

لم تكن قد بلغت الحادية عشرة من عمرها بعد حينما كانت قد ولّدت مئة طفل؛ أرادت حميرا خاتون التي بلغت أمانيها وأصبحت غنيّة، أن تطهو طعاماً بنيّة النذر بهذه المناسبة وتوزّعه على الناس، ولكن في الليلة ذاتها دخل أحد الجان غرفة ابنتها. وما إن رأته پروانه التي كانت قد سمعت قصصاً متناثرة من أمها وجدّتها عن جان الغابة، حتى تعرّفت عليه وسألته: «وماذا تريد أنت مني بعد؟»، فأجاب الجان: «الالتزام بالتقاليد! على البشر توليد طفل واحد منا لقاء كل مئة طفل يولّده من البشر». ولم تكن پروانه قد ردّت عليه بعدُ حين رأت نفسها تعبر ثقب الجدار، وتجتاز السقف، ثم تحلّق أعلى أشجار الغابة، بينما كان الجان يمسك يدها ويسحبها خلفه. وفي النهاية عندما هبطا على أرض الغابة تحت ظلال الأشجار الكثيفة، فرقع الجان أصابعه؛ وبطرفة عين أُضيء المكان الذي كان يبدو مرعباً مظلماً مثل ظلمة ليلة القبر الأولى، بعشرات الشموع والمشاعل. ورأت پروانه عشرات من الجن الصغير والكبير، بوجوهٍ سوداء بشعة، وشعرٍ أشعث، وأرجل أشبه بالحوافر، منشغلين بأمر ما، فقد كان أحدهم يغزل خيطاً غير

مرئيّ، والآخر يتكئ على شجرة ويحفظ بعض الأوراد القديمة من كتيّب غير مرئي، ويكتب أحدهم ببول طفل الجان تعويذة الحيرة والشرود، والآخر يعدّ طعاماً في قدر كبيرة تسببت رائحته الكريهة في أن تشعر پروانه بالغثيان. وفي الوسط وعلى الأرض كانت ثمة جنية قذرة وبشعة على وشك الإنجاب قد تمدّدت وهي تصرخ. وفجأة رقّ قلب پروانه التي كانت قد تعهّدت في سريرتها طوال الطريق بأنها لن تساعد الجن، فتقدّمت وبمجرّد أن وضعت يديها على بطن المرأة التي في طور الولادة، ولدت الطفل دون أيّ ألم. تعرّفت الوالدة الجنية التي كانت بالجوار ذاته على وجه پروانه ويديها القادرتين على صنع المعجزة، وتذكّرت وعدها لحميرا خاتون، ولكنها لم تقل شيئاً. وعندما انتهى العمل وعادت پروانه إلى بيتها، رفع الجان زاوية سجادة غرفتها ووضع أسفلها بضعاً من قشر البصل وقال: «وهذه أجرتك، إذا استطعت السيطرة على نفسك ولم تخبري أحداً بهذا السرّ، فستجدين تحت السجادة مسكوكة ذهبية واحدة عندما تستيقظين كل صباح؛ ولكن إذا أخبرت أيّ شخص عنها فستُعاقَبين بشدّة، كما أنك لن تحصلي على أي شيء سوى البصل». قال الجنّيّ هذا واختفى.

مضت عدة سنوات على هذا النحو، وقبل أن تقع پروانه في الحب، بات لديها عشرة أفدنة من حقول الأرز، وعشرين هكتاراً من بساتين الحمضيات، ومئاتٍ من الدجاج، والديكة، والبط، والإوز، وجرّة ممتلئة بالعملات الذهبية القاجارية التي لا يعلم أي شخص عن مكانها شيئاً، حتى أمها. كانت پروانه في السادسة عشرة من عمرها فقط حين وقعت في غرام قربان ابن عمدة القرية؛ استمرّ حفل زواجهما سبعة أيام بلياليها، ولم يكن قد انقضى سوى عام واحد على ولادة ابنتهما عفّت حين فزّ قربان هلعاً بسبب كابوس ما في منتصف الليل، إذ كان قد رأى في منامٍ أن زوجته

ماتت وهي تنجب ابنهما. تحسّس في الظلام جهة پروانه لكن لم يرَ أثراً لها، فانتابه الخوف أكثر، وصار يبحث ولا يجد شيئاً؛ وكأنها قد تبخّرت تماماً وذهبت مع الريح. قبيل الفجر، وبعدما كان قربان قد غلبه النعاس وغفا لبضع دقائق من شدة الإرهاق والغضب، رأى پروانه نائمة في مكانها المعتاد، فثارت غيرته؛ ولهذا في الصباح ذاته، جمع عدّة عملاتٍ ذهبية وراح يقصّ حكايته لدى قارئ المرايا الأول. نظر العرّاف في المرآة، وفسّر له القصة كلّها، ثم أردف قائلاً: «احسب النفساوات، فبعد مئة نفساء انتظر ظهور الجن ليلاً. من الأفضل لك بعد أن تستغرق زوجتك في النوم، أن تملأ أرضية الغرفة بنشارة الخشب؛ ستلتصق نشارات الخشب بطرف ثوبها، وبقدرتي في الليل المظلم ستلمع أمام ناظريك مثل نجوم مجرة درب التبانة، ويكون بإمكانك أن تجدها. ولكن عليك أن تتذكّر، بغضّ النظر عما سيحدث، لا ينبغي أن يشاهدك أحد».

انقضت عدة أسابيع وعدة أشهر حتى تلك الليلة التي جاء الجان فيها مرة أخرى، وأخذ يد پروانه ووثب بها إلى خارج البيت؛ فتعقّبهما قربان بسرعة أيضاً حتى وصل إلى منتصف الغابة، وتخفّى خلف إحدى الأشجار. وبينما راح يراقب باستغراب مراسم الولادة هناك، دفعته فجأةً يدٌ قوية وسط حشد الجن، فصرخوا جميعهم، وراحوا يسبّون بلغة غير مفهومة، واختفوا في لمح البصر. أُغمي على پروانه خوفاً بسبب رؤيته، وأخيراً تمكّنت والدة الجن أن تنتقم من حميرا خاتون، لأنها عرفت كيف ستغيّر مصير جميع أفراد هذه الأسرة بمجرد ضغطة يدها على ظهر قربان.

عندما استعادت پروانه وعيها، لم ترَ أيّ أثر للجن؛ وبينما كان كلاهما عائداً إلى المنزل في الظلام يتحسّسان الطريق، راحت پروانه تلعن قربان في سريرتها بسبب حماقته وفضوله، وفي كل لحظة كانت تنتظر موتاً

غامضاً. منذ تلك الليلة وفي كل مساء، كانت توصي قربان قبل الذهاب للنوم أنه لو قتلها الجن الليلة ولم تدرك النهار، فعليه أن يعتني بعفّت كما يعتني بنفسه.

كانت الإشارة الأولى، هي الإشارة الأهمّ، فقد بدأت الحكّة في يدها اليسرى ولم تتوقّف حتى آخر أيام حياتها. صارت الحكّة لا تفارقها حتى في أثناء النوم، أدركت حينئذٍ أنها ستفقد أموالها كلّها بسرعة. وعرّفتها الإشارة الثانية على حقيقة قوّة جسدها المحدودة؛ معجزة يديها قد انتهت؛ فالآن بات لديها مجرّد يدين عاديتين كالآخرين تماماً، وبصاقها لم يعد ينفع حتى في علاج ألم انتفاخ أمعاء الأبقار، وإسهال البغال. وعندما وصل الأمر إلى الإشارة الثالثة، كانت بذلك قد فقدت عشرة كيلو غرامات من وزنها بسبب الخوف والقلق، ومرة أخرى رجعت إلى الصلاة، العمل الذي كانت قد نسيته منذ كانت في العاشرة من عمرها. وفي إحدى الليالي حصدت حمّى مجهولة أرواح الدجاج والديكة، وما إن حلَّ الصباح حتى ملأت رائحة جثثها التربة وأيقظت أهالي رازان من النوم. في ذاك الصباح الضبابي حين داست بقدميها جثث الدجاج والبط المتعفّنة، ورشّت النفط عليها وأشعلت النيران فيها، كانت تعلم ما يعنيه كل هذا. جلست وسط ذاك الضباب الكثيف، وبعيداً عن ضوضاء طرقعة ألسنة النار التي كانت تنشر رائحة الخشب واللحم المحترق في كل الأرجاء، راحت تفكّر: «على الرغم من كل هذا إلا أنها البداية فقط». لم يمضِ شيء وإذ بالآفة قد أصابت بستان الحمضيات وحقول الأرز، وأبادت جميع محاصيلها من الفواكه والأرز، دون أن يمسّ أيّ ضرر محاصيل البساتين وحقول الأرز المجاورة. ولذلك عزّى قربان نفسه بالقول: «ليأخذوا كل ما نملك»، إلا أن پروانه لم تكن هادئة هكذا مثله، حتى عندما حبلت بناءً على توصية أمها

حميرا خاتون لعلّها تزيل أثر الشؤم واللعنة بمولد طفلة صغيرة من نسلها، وبذلك تضمن نسل القابلات المعالجات في هذه الأسرة. بعد عدة أشهر، حين أبصر عيسى النور وقت الفجر توفيت أمه پروانه دون أن يكون عندها متر واحد من أراضي البستان أو حقل الأرز. ظلَّ قربان لعدة سنوات يقتفي أثر جرّة العملات الذهبية، وفي النهاية بعد سنوات مديدة وجد تلك الجرة ذاتها ممتلئة بقشر البصل المتعفّن في داخل بئر مياه مسمومة. ومع موت پروانه ومولد صبي في تلك العائلة، فشلت خطط حميرا خاتون، ولكنها أملت على الأقل في أن تواصل عفّت طريقها، وتستعيد مرة أخرى محبة الجنّ وعطفهم، وتستعيد الثروة والممتلكات المفقودة؛ لكن بعد عدة سنوات أطاحت عفّت بمخططاتها أدراج الرياح حين أحرقت نفسها. إذ ابتُلِيَت عفّت بغرام جنوني أسود وأضرمت النار في نفسها، قبل أن تدرك مقدرتها في مجال الشفاء والتوليد.

طرقت بيتا التي لم تكن تعلم أيّاً من هذه الأمور، باب منزل عيسى، وسمعت أذناها صوتاً مجهولاً يصدر من خلف البوّابة الخشبية، صوتاً شبيهاً بالزحف والاحتكاك بالأرض. الزحف والاحتكاك الجنوني ذاتهما للنباتات والزهور المسحورة في حديقة منزل حميرا خاتون، واللذين جعلا عيسى مجنوناً ومسحوراً خلال الأشهر الأخيرة؛ لأنه أمضى هذه الأشهر يحدّق إلى نمو النباتات خلال فترة حداده على وفاة أمه، وأبيه، وأخته في صمت سيطر على ذهنه، وظلَّ أسيراً لذلك الجنون المجهول حتى طرقت بيتا ذات يوم باب منزله. كان عيسى وحميرا خاتون -التي كانت قد شاخت كثيراً في ذاك الحين، لدرجة أنها لم تعد تذكر اسمها حتى- لا يزالان يعيشان في منزل كانت مياه بئره قد سُحرت ببول الجن. مع أن

أبي والأهالي الآخرين أرادوا أن يدخلوا بستانها، وفناءها، وأن يبنوا منزلاً جديداً لهما بعد تلك العاصفة الثلجية، وقفت حميرا خاتون بإصرار في وجههم، ولم تسمح لهم حتى بدخول الفناء. والآن فإنّ المنزل المتهالك الذي كان على وشك الانهيار، والذي أبقوه بالقوّة منتصباً كيفما اتفق، كان محاطاً بالأشواك، والأعشاب الضارة، والطحالب اللزجة التي راحت تنبت في كل مكان أكثر فأكثر مع الماء المتدفّق من البئر، لدرجة أنها كادت تبتلع المنزل الطيني في جوفها، ولم يعد بالإمكان التنفّس فيه بسهولة. كان قَدَر حميرا خاتون أن تشهد موت بنتها وحفيداتها، وأنه لم يتبقَّ أيّ شيء من أملاكها سوى كفن دُفنت فيه حين توفيت.

منذ اليوم الذي سُحرت فيه مياه البئر، بات عمل أفراد الأسرة كل يوم هو أن يجتثّوا بالمنجل أولاً بأول الزهور والنباتات المستمرة في الزحف والامتداد، إذ كانت قد احتلّت سطح الجدران والنوافذ، والفناء، والسقف. ولكن هذا الدافع قد تضاءل في عيسى يوماً بعد يوم مع موت پروانه، ثم عفّت، وأخيراً قربان، لدرجة أنه لم يعد يلمس حتى المنجل مؤخراً. كان عمله أن يجلس ويتابع النمو غير المتوقّف للأزهار، والنباتات، والأشجار التي كانت تمتد زاحفة على الأرض أمام ناظريه، بصوت هادر مزعج، وتتبرعم، وتزهر، وتثمر؛ ولكن لم يكن هو نفسه ولا أيّ أحد آخر قد لمسها طوال تلك السنوات.

وسرعان ما أدرك أهالي رازان أن عيسى قد ابتُلي بجنون مجهول عديم الاسم؛ كان جنوناً حديثاً لدرجة أنه لم يكن هناك من يعرف اسماً له. جنون الإدمان على سماع الصوت المزعج لزحف النباتات واحتكاكها بالأسطح، إذ كانت تنمو بكلّ جرأة وطمع لتثبت له إلى أي مدى يمكنها أن تدوس على جميع قوانين الطبيعة في ذاك الفناء الصغير.

وذات مرّة بينما كان عيسى يجلس في الإيوان -حيث كانت عفّت تجلس سابقاً وتمشّط شعرها الطويل بمشط خشبي- أغمض عينيه وسمع كيف تسلّلت نباتات عسلة معزية الأوراق من الحديقة إلى الفناء، وزحفت لأعلى الدرج، ووصلت إلى الإيوان، ثم أمسكت بكاحليه، وصعدت حتى تمكّنت من خصره ويديه ورقبته. ولو لم تصل حميرا خاتون في الوقت المناسب ولم تستخدم مبيد الأعشاب المصنوع من مزيج عدة نباتات، ونفط، وملح، وجير، لكان عيسى تحوّل بعد ساعة إلى شجرة متيبّسة مع العسلة معزية الأوراق مثل العشقة(*)، وكادت نبتة العسلة تتجذّر في جسمه كلّه وتتمكّن منه لتخرج أخيراً من فمه، وأذنيه، وأنفه مع أزهار صفراء.

كان هذا الصوت معه في كل مكان، سواء أغلق النوافذ أم أبقاها مفتوحة، وسواء غطّى الشقوق بين ثنايا الأبواب والنوافذ بالشمع أم لم يفعل.

كان هذا الصوت الزاحف الذي يتقدّم ويبتلع كل شيء، في ضجيجه المستمر وعديم النهاية، يكاد أن يصرعه؛ ولم يعد بمقدور أحد فعل أي شيء لمساعدته، لا حميرا خاتون ولا قارئ المرايا. حتى طرقت بيتا، التي لم تكن تعلم شيئاً عن جميع الأحداث الجنونية التي جرت في ذلك البيت القروي، باب المنزل، وبعد أن طرقت عدة مرات، كادت أن تعود حين فتح عيسى الباب. رأته بيتا شاباً طويلاً قد اختفت عيناه العسليتان الحزينتان والخجولتان تحت شعره البني الطويل. فأخبرته مباشرةً بالموضوع وسريعاً، ودون أن يفكّر للحظة أو يتفوّه بكلمة، أومأ برأسه وأعلن موافقته،

(*) العشقة أو اللبلاب، جنس نباتي زاحف سريع التكاثر على نحوٍ كبير، وإذا التفّ حول شجرة ما فإنه سيجعل جذورها وأوراقها تجفّ سريعاً. يعتقد بعض اللغويين أن مفردة العشق اشتقت من اسم هذه النبتة، لأن العشق يُهلك العاشق.

ثم أغلق الباب. ومنذ تلك اللحظة وظّفت بيتا عيسى، فأصبح بستانياً في بستان تبلغ مساحته خمسة هكتارات، مع القدرة على تفسير اليعاسيب.

وفي اليوم التالي، بالتزامن مع شروق الشمس، حين بدأت قطرات الندى تتبخّر ببطء وتتصاعد إلى السماء كأرواح نائمة، وراحت اليعاسيب تتدفأ تحت أشعة الشمس الساخنة، رأت بيتا عيسى وهو يقتلع الأعشاب وأشواك البستان الطويلة بمنجله. وعندما مرَّ أسبوع على هذا المنوال، شعرت بيتا أنه لم يُحضر معه الضوضاء إلى البستان كما كانت تتمنّى، وإنما بدا وكأنه قد زاد من ثقل صمت المنزل والبستان وحزنهما. لذلك اقتربت منه وطلبت منه توظيف خمسة عمّال آخرين لمساعدته في إزالة الحشائش وتجريف الأرض تحت أشجار الحمضيات وتسميدها. وفي اليوم التالي، استيقظت بيتا وهوشنك على ضجيج البستانيين الجدد، من بينهم ثلاث نساء؛ فذهبت بيتا، التي كانت تشعر بالسعادة والرضا من هذا الضجيج، إلى الإيوان، ونظرت إليهم وفكّرت: «دائماً ما تجلب النساء الشغف والحماس معهن». مع ذلك، لم يكن هناك أيّ تغيير في سلوك هوشنك؛ إذ كان لا يزال لا يفعل شيئاً، ولا يساعد في الأعمال المنزلية، ولا حتى يقرأ الكتب أو يصنع إطارات للصور واللوحات. كان لا يزال يجلس على كرسيّه في الإيوان، ويشاهد المسعى الجديد للحياة في البستان وفي رازان.

تطوّعت بيتا لإعداد الطعام والشاي للعمّال الستّة كلّ يوم وقضاء ساعاتٍ معهم؛ وباتت تتحدّث إليهم. وتعلّمت منهم كيفية استخدام المنجل بمهارة، وكيف تمسك بالفأس وتقتلع الأعشاب الضارة. كما أنها راحت تستمع إلى مشكلات الفتيات وتتدخّل في مصيرهن؛ إذ أرادت أن تتخلّص قدر الإمكان مني، أنا التي لم أكن سوى روح إنسانة ما، ومن أبي الذي لم يكن أكثر من ميّت متحرّك. أرادت التخلّص من التفكير في أمي وسهراب،

بل حتى أرادت أن تضخّ عنوةً القليل من الإثارة في حياتها اليومية. أرادت أن تكون على قيد الحياة وتعاشر الأحياء وتختلط معهم. وهكذا حدث أنها في أحد الأيام، فاجأت عيسى، الذي كان يشذّب شجرة في أحد أركان البستان، بوضع يدها على ذراعه. كان عذر بيتا هو أنني أخبرتها مؤخّراً قصة أم عيسى، وأرادت أن تعبّر عن تعاطفها بهذه الطريقة. ولكن بدا الأمر كما لو أن ضغط يدها على ذراع عيسى، وربما نظرتها الطويلة التي ألقتها على عينيه العسليتين، كانت تفوق قدرته على التحمّل العاطفي؛ لأن عيسى ارتجف واحمرّ خجلاً وسقطت مجرفته من يده، وابتعد.

قضت هذه المسألة التافهة على أختي المسكينة؛ فعندما مرّت عدّة أيام ولم تأتِ أيّ إشارة من عيسى، ولم يأتِ العمّال بأيّ خبر عنه، أصيبت بالحمّى وأدركت في هذيانها أنها «مصابة»(*). مصابة تعني عاشقة؛ ولم تكن بحاجة إلى التحدّث معي عن همومها، إذ كانت تعلم أنني أعرف كل شيء، وربما هذا ما جعلها أكثر غضباً. في هذه التجربة العاطفية الأولى غير الكاملة وعديمة المعنى، والتي لا تشبه الحبّ في أيّ من الروايات الكلاسيكية التي كانت قد قرأتها، كانت تريد أن تحزن في الخفاء وحدها، وتلوم نفسها. وراحت تتقلّب في سريرها الدافئ، من هذا الجانب إلى الجانب الآخر، وتفكّر في مدى غبائها وكيف أنها حطّت من قدرها وأذلّت نفسها من أجل صبيّ ريفي. أكلت ملعقة من الشوربة الموضوعة بجانب سريرها، ووعدت نفسها أنها بمجرّد أن تنتهي من تناول الشوربة، ستنهض وتضع حداً لهذا الدلال عديم المعنى. ولكن لم تكن حرارة الملعقة الثالثة من الشوربة قد نزلت بعدُ من حلقها، حتى ملأت الدموعُ الدافئة الملعقةَ. وراحت تلوم نفسها أن لماذا لمست ذراع عيسى أصلاً،

(*) إشارة إلى قصيدة سهراب سپهري بعنوان «يجب أن تكون مصاباً».

وربما كان من الأفضل أن تدع هذا الشعور غير المألوف، -الذي بات يكبر مثل قطرة حبر في الماء لحظة تلو الأخرى ويغرقها في مستنقع من الداخل- يبقى في قلبها إلى الأبد. ثم بدأت على الفور بإذلال روحها، وراحت تتساءل في قرارة نفسها: «وهل يبدأ الحب هكذا؟ فالحب غير ممكن على الإطلاق دون أن تكون هناك معرفة، ومن قال إنني وقعت في الحب أصلاً؟». ثم كرهت نفسها للحظات لأنها في كل مرة تتوصّل إلى نتيجة أن مشاعرها كانت بسبب عطشها. وعندما تصارح نفسها، كانت تفكّر: «نعم، يجب أن أعترف بأنه مهما كان هذا الشيء فإنه ليس حباً؛ وأنه ليس سوى رغبة عابرة قذرة وفارغة وعديمة المعنى. وهذا هو الشيء الذي يقوله جميع الشعراء والكتّاب، ويجب تمييزه عن الحب الحقيقي».

وراحت تلمس على مضض، الإفرازات اللزجة في مهبلها، وتشعر بالسأم من حالها، وتلقي باللوم على نفسها في أن آلام الحياة ومصائبها والقراءة طوال الوقت لا تعني أنها قد نضجت. إذ كان جسمها يحوّلها إلى شخص لا تريد أن تكونه؛ لقد باتت غريبة عن جسدها. يبدو وكأن جسداً آخر قد انتفخ على يدها، وباتت تخجل من نفسها. أدركت وهي في الثلاثين من عمرها أنها باتت تقترب من سن البلوغ الجنسي. ولهذا راحت تعبث مع نفسها في السرير، ولأول مرة في حياتها، سمحت لجسدها بتلبية رغباته الطبيعية الغريزية. أقفلت باب غرفتها، ووضعت شريط العزف على البيانو لريتشارد كلايدرمان في جهاز التشغيل، وراحت تلمس نفسها في حلم عيسى ويديه الرقيقتين ووجهه الملوّح بالشمس. ثم خلعت ملابسها قطعة تلو الأخرى، بإثارة جامحة وجرأة غير مسبوقة، وتركت برودة الملاءة واللحاف تلمس جسدها. تكوّرت على نفسها، وقبّلت كتفيها وذراعيها العارية وعضّتها؛ وفي النهاية، عندما شعرت بأنها قد وصلت إلى النشوة

الجنسية لأول مرة في حياتها البالغة ثلاثين عاماً، كانت منفعلة جداً لدرجة أنها مزّقت وسادتها بأسنانها حتى لا يرتفع صوتها. كان جسمها قد تعرّق بالكامل وراحت ترتجف، ولو استمرت لحظة النشوة الجنسية لفترة أطول قليلاً، لما كانت تستبعد أن تصاب بالجلطة وتموت. كانت قد وضعت إحدى يديها بين رجليها، والأخرى تمسك بثديها الصلب بقوّة. وبعد بلوغها النشوة الجنسية شعرت بالخفّة وكأنه رُفع عبءٌ ثقيل عن كاهلها. بدا وكأنها قد خرجت من استحمام طال عدة ساعات، حيث دعكتها المدلّكة بالليفة وطهّرت جسمها من جميع الأوساخ، ودلّكت الأخرى لها كامل جسمها، وثالثة داعبت بيديها الرقيقتين بدنها كلّه فتركتْها في إحساسٍ مشوب بالخدر والشعور بالخفّة. ومع أول شعور بالانتشاء، انتابها مزيج من كل المشاعر الجسدية والعاطفية الجياشة وغير المسبوقة؛ ولذلك فقد مارست العادة السرية أربع مرات أخرى منذ المساء حتى الصباح في أثناء حلمها بعيسى. وأخيراً عندما حلَّ الصباح، نهضت من فراشها بنشاط اعتراه الشعور بالذنب، لدرجة أنها ذهبت مباشرة إلى الحمّام وتقيّأت. لم تكن تعلم لمَ عليها أن تكون خجلة من هذه اللذة المختلسة، وأن تشعر بالاستياء تجاه نفسها. لم تكن تعرف أن هذا الفعل الذي اقترفته يعدّ جزءاً من الفطرة البشرية، أو إن كانت الوحيدة في هذا العالم كلّه التي شعرت بالاستمتاع بملامسة أعضاء جسدها. وبينما كانت تتقيّأ في الحمّام، فكّرت كثيراً ولكنها لم تتذكّر أن شيئاً كهذا قد حدث لأبطال القصص في أيٍّ من الروايات التي قرأتها، أو أيٍّ من الأفلام التي شاهدتها. فكّرت أنه لو كانت أمها موجودة، لما سمحت لنفسها البتّة بأن تسألها عن شيء كهذا، وبالطبع لن تسأل والدها. لذلك فقد لاذت إلى فراشها مرة أخرى بعد الاستحمام، وبدأت هذه المرة في إعادة قراءة الروايات الرومانسية التي قرأتها سابقاً،

وراحت تبحث عن أدلة وإشارات حتى تعرف الفرق بين الحب الحقيقي والزائف، أو لترى على الأقل ما إن كان هناك من يمارس العادة السرية أصلاً بين صخب البشر في تلك الروايات الرومانسية أم لا.

ويوماً بعد يوم باتت تواسي نفسها أكثر بأنها أصبحت قادرة منذ الوهلة الأولى على أن تميّز الشهوة من العشق، وأنها لم تفرّط بعذريتها ومشاعرها في مقابل شهوة عابرة. بعد ذلك، بحثت في كل أرجاء المنزل وأسفل العلّيّة حتى تمكّنت من العثور على كتب في سيكولوجية الزواج، والحب، والمواعدة، والجنس؛ وانكبّت عليها تقرؤها بنهم، ومن ثم تمرّنت على إجابة اختبارات كتاب «معرفة ذات الحب»، حتى أجابت عن الأسئلة كلّها على نحوٍ صحيح في النهاية.

وفي صبيحة اليوم السابع عشر تماماً، باتت تشعر أنها مقاومة أكثر من أيّ وقت مضى في مواجهة الرغبة الجنسية والحب الزائف؛ كانت قد استلقت على فراشها وابتسمت تحت ضوء الشمس، مما يعني فقط: «الحمد لله أنني نجوت بنفسي من هذا الطاعون المزمن»، ولكن خارت قواها بمجرّد أن سمعت عبارة «يا سيّدة بيتا!» من فم عيسى، وانهارت كامل قدرتها في المنطق، والتحليل الخاص بعلم النفس السيكولوجي، واختباراتها في معرفة الذات، حتى أوصلت نفسها بقدمين مرتجفتين إلى النافذة، لتتأكّد من أنه هو بنفسه الذي يقول بثبات وثقة: «من فضلك تعالي إلى معبد النار، يجب أن أتحدّث معك!».

وخلافاً لتوقّعاتي، لم تكن بيتا هذه المرة هي من وضعت يدها على ذراع عيسى، وإنما هو من داعب شعرها البنّي الناعم بيديه المفتقرتين للخبرة واللتين قد لوّحتهما أشعة الشمس، وأدار رأسها ناحيته، وقبّلها بثقة يمكن ملاحظتها فقط لدى شبان القرى عندما يغازلون بنات المدينة؛ ومع

أول قبلة، أُضرمت النيران في كلّ الأفكار المتجمّدة، والأخلاقيات الزائفة والمبتكرة من قبلها، وكتب سيكولوجيا الحب، ومعرفة الذات، وتلاشت في الهواء، وأحرقت الأعشاب. وأحكما السيطرة بكلّ حزم وثبات على جغرافية جسديهما بين ثنايا أغصان الأشجار المتشابكة، وفروع السرخس وجذوع البيلسان، لدرجة أن أصغر كلمة بدت زائدة وعديمة جدوى. هكذا وعلى مدار سنة كاملة، وثمانية أشهر وأسبوعين، مارسا الغرام بجسديهما وروحيهما -ليلاً ونهاراً- لدرجة أنه لم تتح الفرصة لأيٍّ منهما ليقول للآخر: «أحبّك»، أو أن يسأل: «أتحبّني؟». كان عيسى، بجسده الريفي المدرّب جيداً يهيمن على جسد بيتا النحيف والمتألم جداً ويلصقها بجسمه بشدّة، لدرجة أنه لم يبدُ أنه يريد الانفصال عنها ولو للحظة واحدة حتى. وهذا ما حدث؛ إذ نادراً ما كان يقول شيئاً في مطارحته الغرام، وإن فعل، كان هذا فقط: «أريد أن أغوص في جسمك وألّا أخرج منه أبداً». ولهذا ومع كلّ مغازلة كانا يلتفّان كلٌّ منهما حول الآخر، بحرارة شديدة، حتى تشتعل النيران في العشب المحيط بهما ويحترق. وقد اندهش العمّال لرؤية الدوائر المحترقة حديثاً كل يوم وعزوها إلى الحرارة الشديدة في صيف ذلك العام وخريفه، مع هذا لم تكن بيتا متأكّدة من أن الكارثة التي حلّت بها هي الحب. وكانت تفكّر أن هناك قدرة لدى الإنسان على الوقوع في حبّ أيّ شخص يجعله سعيداً، وأن عيسى يسعدها مع أنه شخص وحيد وحزين. وبعد حرق آلات تار والدها ومقتل بهار، وحرق الكتب، وإعدام سهراب، ورحيل أمها، ما السبب الذي تملكه ليجعلها سعيدة؟ وفكّرت في قرارة نفسها أن مطارحة الغرام مع عيسى تذكّرها أن الحياة لا تزال يمكن أن تكون جميلة ورائعة على الرغم من كل قذارتها. كان ما زال بإمكانها حتى الآن الاستلقاء على العشب اليانع بعد المغازلة الخفية، والابتسامة

في أثناء النظر إلى حركة السحب البيضاء الكثيفة العابثة، ولفّ سيجارة من الأعشاب البرية، ونفخ دخانها صوب الفراشات واليعاسيب؛ وأن تترك جسدها العاري يتدحرج على العشب لدقائق طويلة وتسمح لتلك الثواني الهادئة أن تمتد، كي تعبث الدعسوقات بشعرها وتدغدغ أصابع قدميها، وتدع السعادة تجدّد ببطء جسدها، وتهدّئ شبابها، وتفكّر في عيسى وكيف أنه كان يجيد تفسير تلك اليعاسيب. مع أنه غالباً ما يصمت أمام ثرثرات بيتا أو أسئلتها، أو كان يجيب باقتضاب، أو يكتفي بتحريك رأسه بابتسامة الموافقة، لم يستطع أن يخفي قدرته على تفسير اليعاسيب.

فعلى مرّ السنوات الماضية كان الزحف المستمرّ واللانهائي للأزهار والنباتات التي كانت تلتفّ حول بعضها بعضاً كالثعبان وتتلوّى، وتغازل أغصان الأشجار وجذورها وتغطّيها، وتزهر في نهاية براعمها الصغيرة، قد حوّل فناء عيسى إلى حديقة حيوانات مفضّلة للحشرات والحيوانات. وقد أتاح له التحديق إلى تلك الحديقة المسحورة خلال سنوات طويلة أن يشاهد حركة اليعاسيب كثيراً بحيث بات مفسّر اليعاسيب الوحيد.

عندما كانا معاً، كانت تلك اليعاسيب تشتّت انتباه عيسى، لدرجة أنه عندما يتحدّث مع بيتا أو يصغي إليها كانت عيناه تتعقّبان اليعاسيب إلى هذا الجانب أو ذاك. ويتنبأ بأحداث ذلك اليوم والأسبوع بناءً على نوعها ولونها، ومسار رحلتها، ونوع رحلتها، والمكان الذي تحطّ عليه. لذلك، في اليوم الذي وضعت فيه بيتا يدها على ذراعه، شعر بالقشعريرة وسقط المِعوَل من يده، وابتعد عنها؛ لأنه في الوقت نفسه، رأى يعسوباً أحمر قد حطّ على كتف بيتا. ابتعد مذعوراً من إدراك أن حباً هائجاً في انتظاره بشكل محتوم؛ وفي اليوم نفسه تماماً عندما رأى يعسوباً كبيراً بلون أصفر قد التصق بزجاج نافذته، أدرك أن الوقت قد حان للتعبير عن حبه لها وعدم الجدال مع هذا

الأمر. كانت بداية علاقتهما الغرامية في حضور مجموعة من اليعاسيب الملوّنة التي حطّت حولهما على الأزهار والأجمات والأشجار، مما منحه الجرأة على الدخول في مغامرة حبّ بكلّ قوّته، لن يتمكّن من الخروج منها بسهولة. كانت حشرات اليعسوب تحترق في دائرة النار مع كل مرة يمارسان فيها الغرام، وتستحيل رماداً مع الأعشاب ونباتات الهندباء البرية.

كان عيسى يعلم أنه إذا تدلّت اليعاسيب أسفل أغصان الأشجار أو عند الباب أو النافذة، فهذا يعني أنها ستمطر عما قريب. وكان يعرف أيضاً أنها لو حطّت على الأغصان الصغيرة، فإنها لن تمطر. وإن كان اليعسوب الأول الذي يحوم حوله في ذلك اليوم، بلونٍ غامق، فسيصبح الجوّ عاصفاً مصحوباً بالرعد والبرق. وإن كان ملوّناً، فسيولد طفل في الجوار. كان عيسى قد قال لبيتا أن تأخذ حذرها حتى لا يدخل غرفتها يعسوب أبيض، لأن ذلك يشير إلى أن أحد أقاربها سيموت قريباً. ولكنّه عندما رأى الحزن على محياها، ولكي يمحو أثر تلك الجملة السيئة سريعاً، بشّرها قائلاً: «وإذا استقرّ ذات يوم على فراشك يعسوب أخضر، أخبريني بسرعة، لأن هذا يعني أنه قد حان وقت زواجك». ضحك كلاهما من فكرة تحقيق حلمهما الخفيّ، وراح كلٌّ منهما يقبّل كتفي الآخر. على كلّ حال، لم يحطّ اليعسوب الأخضر على فراش بيتا قطّ، حتى إنه لم يطِر في أيّ زاوية من زوايا غرفتها. وإنما على العكس، إذ جاء ذات يوم يعسوب أزرق صغير وحطّ على شعرها. شحب لون عيسى بسبب رؤية ذلك، ولكن مهما سألته بيتا ما تفسير هذا الأمر، فإنه لم يجب. وراح يقبّلها بحيث بدا وكأنه يودّعها.

اضطرب حلم بيتا الرومانسي وتلاشى فجأة، كما كان قد بدأ على حين غرّة، مثل حلم غير مكتمل المعالم. فغداة ذلك اليوم الذي استقرّ فيه اليعسوب الأزرق على شعرها، ودون أيّ تمهيد وقفت «دلبر»، الفتاة

القروية ذات العينين العسليتين، والثديين الأبيضين البارزين، والشعر الأشقر الذي يعلوه يعسوب أخضر، بشكل مباغت في مواجهة عيسى، حتى يتم تفسير طيران اليعسوب الأزرق على شعر بيتا. مرّت دلبر بعيسى متجاهلةً إياه، وواصلت طريقها. وأما هو فقد فهم في جزء من الثانية، أنه سواء أراد أم لم يرد فإنّ اليعسوب الأخضر على شعر دلبر الأشقر، قد بدأ فصلاً جديداً من حياته.

كانت كلّ مطارحات الغرام السرّيّة تلك، وتناول الطعام بعيداً عن الأنظار، ونزع الملابس وارتداء الثياب خلسةً، وتبادل القبلات في حلقات النار، بالقرب من المعبد الزرادشتي، وأيضاً عبارات بيتا الرومانسية اللطيفة، التي لم يستطع عيسى في كثير من الأحيان أن يتفهّم معناها جيداً، ما لبثت أن انتهت باستقرار ذلك اليعسوب الأزرق الصغير على شعر بيتا، وكان عيسى يعلم أنه يجب أن يخضع لحكم الطبيعة ويحترم قوانينها؛ لذلك استدار وتفحّص قامة دلبر الفاتنة من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها، وبينما كان مندهشاً من طيران اليعسوب الأخضر حول الشابة اليافعة، لم يعد يتذكّر حتى أن بيتا تنتظره في هذه اللحظة في المكان المعتاد ذاته، بالقرب من معبد النار حتى يداعب شعرها الأملس البني كالعادة، وتهمس في أذنه قائلة: «انظر إلى أين انتهى أمري.. انظر كيف أصبحتُ متعلّقة بك!». ومع أن عيسى لم يفهم معنى كلامها قطّ، لم يسألها: «ماذا تعني عبارة "متعلّقة بك"؟».

جلست بيتا بالقرب من معبد النار طوال ذلك اليوم حتى حلَّ المساء وهي تنظر إلى الدوائر المحترقة في البستان، كانت كلّ حلقة بمنزلة ذكرى لمداعبة أو لعدة مطارحات غرامية، وفي أماكن من البستان كانت دوائر العشب المحترقة قد اختلط بعضها ببعض، وفي أماكن أخرى كانت ثمة

قطعة أرض قد احترقت بشدة بحيث تلاشى آخر أمل في نموّ أعشاب جديدة هناك. استقرّت ابتسامة الرضا على شفتيها، ولكن ما إن مرّت دقائق الغفلة واقتربت مجموعة من اليعاسيب عديمة اللون تطير وتحطّ حولها، حتى أصبحت الحلقات المحترقة أكثر تهديداً. وشيئاً فشيئاً راحت تسمع طنيناً في رأسها، ثم بدا وكأن ذهنها قد هدأ عن النشاط مترقّباً الأخبار السيئة، رأت كيف أن الوقت يتباطأ، وقد توقّفت الصور عن الحركة. وفي أثناء توقّف الوقت حطّت دعسوقتان وثلاثة يعاسيب على ورود النسرين البرية حولها ثم طارت، وأخرج جرو ثعلب رأسه من بين أجمات البيلسان والتوت البرّي، وما إن رآها حتى فرَّ هارباً ولم ينقطع صوت حشرة الزيز. ولكنّها لم تشاهد مطلقاً أيّاً منها، إذ كانت عيناها مفتوحتين، ولكن مع ذلك لم تكن ترى. لم يكن عيسى قد جاء بعد، وكان عليها أن تفعل شيئاً ما؛ رمشت ولكنها ما زالت لا ترى شيئاً. وكانت حشرة الزيز تصدر أزيزاً، وهي لا تزال لا ترى شيئاً بعد؛ فراحت تفكّر يا له من عمىً مفاجئ. ومع ذلك لم تتزحزح من مكانها؛ اعتراها الخوف، ولكنها تظاهرت وكأنه لم يحدث شيء يعكّر مزاجها. لمست ساق عشب بأصابعها واقتلعته ثم حملته إلى فمها، وعندما مسّت أناملها شفتيها، شعرت برجفة شفتيها ويدها. حاولت أن ترى أيّ شيء، أو على الأقل الدوائر المحترقة؛ ولكنها من كثرة ما أطالت النظر إلى سواد هذه الدوائر، أصبح الجزء الأسود أكبر وأكبر، وفي النهاية احتلّ ذهنها بالكامل. تركت الوقت يستمرّ في عمله بهدوء وصمت؛ ورويداً رويداً رأت أن سرعة الوقت بدأت تتباطأ في سكون ذهنها وتستطيل. شعرت بشيء يهتزّ أمامها، رمشت مرة أخرى وميّزت رأس الثعلب الذي عاد ليسترق النظر؛ وشيئاً فشيئاً رأت حركة سيقان الحشائش، وباتت أشكال دوائر التهديد المحترقة حيّةً أمامها.

عندما غربت الشمس أخيراً ونعقت البوم وخلدت العنادل والعصافير إلى النوم، نهضت وسارت عبر العشب وعبرت الإيوان، ومرّت بجانب أبي ودخلت غرفته؟ أشعلت ضوءَ الغرفة، ونظرت بدقّة إلى جميع أركان الغرفة. وتأكّدت أن بصرها قد عاد إليها؛ وجدت كتاب «إي جنغ» بين الكتب. نَوَت وألقت ثلاث عملات على الأرض ستّ مرّات، ودوّنت نقش العملة وخطّها على قصاصة ورقة. ستة أسطر. 47. الإرهاق: سئم أحدهم من حجارة ما/ واتكأ على الأشواك والحسك/ ودخل المنزل/ لم يجد زوجته في المنزل/ يا للتعاسة!

تحلّقت الدموع في عينيها، فأخذت نفساً عميقاً ونظرت من النافذة إلى كوكب الزهرة الذي قد طلع توّاً. أكملت القراءة:

هو مربوط بأغصان الكرمة/ يرتجف متردّداً فيقول:/ سوف تتسبّب الحركة بالندم.

وهكذا حصل أن فسّرت بنفسها ولأول مرة يعسوباً ما؛ وبات بإمكانها على الأقل أن تعرف ما يعني اليعسوب الأزرق على شعرها.

بعد عدة أيام سمعت أخيراً الخبر من الفتيات العاملات، في الوقت الذي لم يأتِ عيسى حتى لرؤيتها وتوديعها.

لم تُصَب بالحمّى، ولا انطوت في مكانٍ ما لتحزن؛ حتى إنها لم تذهب نحو حذائها الخاص بالباليه؛ وإنما بعد عدّة أيام توقّفت عن التحديق إلى الدوائر المحترقة. وحزمت صرّةً صغيرة لنفسها ولأبي، وهي تنتعل حذاءها الكتّاني، ذهبت إلى الإيوان وقالت لأبي: «هيّا، انهض وارتدِ ثيابك؛ لنذهب إلى طهران! إذ لم يتبقَّ لنا أيّ شيء هنا!».

رمقها أبي بنظراته وكأنه ينظر إليها من بعيد؛ ثم ابتسم قائلاً: «أنا سأبقى هنا».

قالت بيتا: «في طهران يمكننا أن نمكث في منزل جدي؛ فمنزله يتسع للجميع».

ردَّ أبي قائلاً: «ما زال لديّ بعض الأعمال هنا».

فتساءلت بيتا بامتعاض: «أيّ أعمال مثلاً؟».

أجابها أبي ببساطة: «ما زلت حتى الآن لا أعلم».

ثم قبّل وجنة بيتا وقال: «اذهبي إلى الجامعة وادرسي الاختصاص الذي ترغبين فيه، وكوني شخصاً يتمنى الناس الطيّبون لقاءه. فربما تعودين هنا يوماً ما؛ حتى ذلك اليوم سأنتظرك هنا».

ذرفت بيتا الدموع عند مغادرتها، وهبطت التل لعلّها تجد الطريق المؤدي إلى الطريق الرئيسي بمساعدة حشرات اليعسوب، والطرق المخصّصة لعبور الخراف، وكذلك الأبقار والخيول التائهة، والغجر الذين يجوبون أطراف الغابة أحياناً.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

# الفصل الحادي عشر

تعزف الريحُ أغنيةً ما
حنين المرء
وتتجاهل السماءُ المفعمة بالنجوم
أحلامه
وتبدو كلّ ندفة ثلج
كالدمعة التي لم تذرف
والصمت
طافحٌ بالكلام الذي لم يُروَ
والحركات غير المودية
والإقرار بالحب الخفيّ
والعجائب غير المروية
وفي هذا الصمت
تكمن حقيقتنا
حقيقتي أنا وأنت(*).

---

(*) من مجموعة «الصمت طافحٌ بالكلام الذي لم يروَ» للشاعرة الألمانية مارغوت بيكل.

ربما لو تعاملت بيتا مع صمت عيسى بجدّية أكثر، لما كان الأمر انتهى بمثل هذه النهاية. تركت بيتا رازان مجروحةً ومحطّمة الفؤاد بسبب خيانة عيسى لها، لعلّها تجد طريقاً جديداً لقضاء حياتها مع الأحياء؛ في حين أنها لم تنجح قطّ في أن تدخل قلب عيسى طيلة السنة والثمانية أشهر والأسبوعين التي كانت فيها مغرمة به. كان صمت عيسى هو الهوّة بينهما التي تُردم عند مطارحتهما الغرام.

ليس لأنه أراد إخفاء الأمر، بل لأنه يعتبر حياته غارقة في القدر والكرب والبؤس لدرجة فرضت عليه أن يعتاد إتقان الصمت. اعتاد أن يصمت حول سحر الجنّ وتعامل جدّته الخفيّ معهم. اعتاد الصمت في ما يتعلّق بالنمو الجنوني لنباتات فناء البيت، وغرام عفّت الجنوني، ونار رازان المقدسة، وانمساخ والده. ومع ذلك، ربما لو أرادت بيتا حقاً، أن تعتبر نفسها جزءاً من حياة عيسى بما فيه الكفاية، لكان بإمكانها أن تسمع الكثير من الكلام والأقوال من أفواه الناس أو حتى مني أنا؛ وربما لو كانت تنوي أخذ علاقتهما خارج دوائر النار تلك وتجعلها قريبة من الحياة الواقعية، لكانت ترجمت صمته الطويل بدلاً من محاولة تفسير اليعاسيب.

حتى الآن لا يزال الناس يقولون الكثير عن عائلة عيسى، وخاصة أخته؛ إذ يقولون إن الشخص الذي يعاني من «الغرام الجنوني» تفوح من جسده وفمه رائحة خاصة، لدرجة أن كل من يقترب منه ويستنشق هذه الرائحة سيصاب بالداء نفسه، حتى وإن لم يكن في حالة حب على الإطلاق؛ حتى لو كان كبيراً في السن، حتى ولو كان طفلاً. ولكنه سيصبح كما لو أنه يعيش حالة حب؛ كما لو أنه هائم في الغرام، ومجنون. أصيبت عفّت بالحب الجنوني في اليوم الذي عبر فيه راعٍ شاب من رازان مع غنمه للمرة الأولى والأخيرة، وقبل مغادرته طلب مصادفةً رشفة ماء من عفّت، وقد كانت

جالسة في شرفة فناء بيت أهلها، منشغلة بغزل الصوف. نهضت وسقته بوعائها الأزرق الذي صنعته بنفسها من الفخار، وفي اللحظة التي أحنى فيها الشاب رأسه ليشرب من الوعاء، رأت انعكاس وجهه النوراني والمتموّج في الوعاء ووقعت في غرامه. ابتُليت بحبّه وأصبحت هائمة ومجنونة بغرامه؛ بهذه البساطة. والشخص الذي يصاب بـ«الغرام الجنوني» يفقد القدرة على التكلّم؛ أو إذا تكلّم فعن الحب فقط. لن يعمل، أو إذا عمل، فإنه سيعمل بجدّ لدرجة أن يودي بنفسه إلى الهلاك. وكانت عفّت قد ابتُليت بجنون المشي في الليالي المقمرة؛ ذلك أنها كانت تنطلق حافية القدمين بشعرها الممشّط الطويل ما إن تغرب الشمس، وتسير بخطوات واثقة ومحسومة بلا غاية. من حديقة إلى أخرى، ومن مرعى إلى مرعى آخر؛ من فناء بيت إلى فناء بيت آخر، ومن زريبة إلى أخرى. في بادئ الأمر كان أبوها وشقيقها الوحيد عيسى يبحثان عنها كثيراً فيجدانها أخيراً في زريبة أحد الجيران، أو في مرعى يقع في وسط الغابة، أو في أحد حقول الأرز النائية، تجلس تحت ضوء القمر وتمشّط شعرها بمشط خشبي وتدندن بأغانٍ غرامية.

في المرة الأخيرة التي راح فيها قربان وعيسى يبحثان عنها في ظلام الليل، وجداها على بُعد بضع قرى من قريتها وهي تسير في المرعى على أربع، وتأكل العشب وتصدر صوت ثغاء الماعز؛ وتسحب العشب من تحت الثلج بفمها، تقتلعه من جذوره ثم تمضغه. في تلك الليلة الشتوية الباردة المقمرة، غطّى الثلجُ المراعي بأكملها وضاعف الوهمَ انعكاسُ ضوء القمر الفضيّ على الثلج، كما لو أن لكلّ غصن وورقة حجماً مضاعفاً. كانت الأجواء على نحو يغري المرء بالذهاب إلى الظلال الطويلة ليلمسها ويحملها بيده. إلا أن قربان حذّر عيسى من أن ينخدع بالظلال؛ إذ قال له: «امشِ ورائي فقط ولا تلتفت يميناً ولا يساراً وأغلق أذنيك، لأنه يمكن لأيّ

ظلٍّ في الليلة الثلجية المقمرة أن يكون عفريتاً من الجان، أو نسناساً، أو جنية، أو دوال پا(*)!».

في تلك الليلة، عندما وصلا إلى المرعى الكبير، سمعا صوت غناء؛ وقف قربان وطلب من عيسى قائلاً: «أغلِق أذنيك؛ إذ إنه صوت الجنيات والعفاريت ودوال پا الذين يريدون إغواءنا». أغلق عيسى أذنيه لكنه سأل في الوقت نفسه: «لماذا يريدون إغواءنا؟»، أدنى الأب فمه من أذن ابنه وقال بإيجاز ووضوح: «لأن الجنّيات والعفاريت يريدون إنجاب ذرّية منا، ودوال پا يريد أن يجلس على أكتافنا لاستعبادنا». لم يدرك عيسى لماذا تريد الجنيات والعفاريت مثل هذا الشيء، ولكن لم يعد الوقت مناسباً لطرح الأسئلة. وبينما كانا يمشيان إلى الأمام وآذانهما مغلقة، أصبح الصوت يقترب أكثر فأكثر، حتى ميّز الأب صوت الثغاء. اقتربا بحذر؛ وأشار قربان إلى عيسى أن يبقى في مكانه. ذهب والده نحو ذلك الكائن، وشيئاً فشيئاً تعرّف على ابنته عفّت التي كانت قد أدخلت رأسها بين العشب المتجمّد تحت الثلج، وراحت تقتلعه بأسنانها وتمضغه. شعر وهو يرى ابنته في هذه الحالة، أن حزن العالم قد تكوّم على رأسه؛ فجلس بجانبها وقال لها: «يا بنتي، ولكنّك لستِ شاة!». توقّفت عفّت عن أكل العشب وقالت ببراءة تامة: «أنّى لك أن تعرف ذلك؟!»، ثم منحت والدها ابتسامة حنونة. فردَّ قائلاً: «عندما وُلدتِ كنتُ حاضراً؛ وقد أسمتكِ أمّكِ: عفّت. وكانت أمكِ إنساناً أيضاً». نظرت إليه مرة أخرى وسألته: «أهذا يعني أنك

(*) النسناس: مخلوقٌ خيالي، وهو نوع من الشياطين، له نصف جسم بشري: يد واحدة وقدم واحدة وعين واحدة...

دوال پا: مخلوق خيالي نصفه العلوي جسم رجل، والسفلي جسم أفعى، يجلس على جانب الطريق ليلاً باحثاً عن إنسانٍ ليركبه. وما إن يصعد على أكتاف شخص ما، حتى يلفّ ساقيه حول الشخص ويجبره على العمل معه. (م).

لم تدرك بعد؟»، فتساءل الأب: «ما الذي لم أدركه؟»، وأجابت عفّت بأن لا شيء يمكن أن يكون سبباً لأي شيء آخر.

كانت عفّت تضحك دائماً، فجنون «الحب الأسود» يجعل المرء حنوناً؛ حنوناً وحزيناً. في تلك الليلة، أقنع قربان وعيسى أخيراً عفّت بالعودة إلى المنزل؛ ومثل كل أهل القرية كان قربان يعرف أن نهاية «الحب الأسود» هي الموت؛ إذ لا يوجد له أيّ علاج آخر. بالطبع لم يقف مكتوف الأيدي، بل حاول أن يجرّب عدة طرق. فأخذها إلى مقام وليّ في المرتفعات، وأودعها لدى خادم المقام هناك، ولكن بعد أسبوع شوهدت في منتصف الليل جالسة أمام سلالم الملحق المخصّص للعزاء(*) بملابس ممزّقة وهي تتحدّث إلى الظلال. كان الناس قد رأوها تقول للظلال: «معمع.. معمع.. أنا نعجتك.. أنا خادمتك.. فقط تعال مرة أخرى واعبُر من خلال هذه القرية.. لترى كيف أجيد إصدار الثغاء لك.. ممعمع مممعمع». ثم ذرفت دموعها ونهضت من مكانها، وصعدت الدرج الخشبي للملحق بجانب الجامع ولمست الجدران الخشبية المنحوتة وتوسّلت وبكت؛ ثم مسحت دموعها بشعرها الطويل ونظرت إلى السماء قائلة: «لقد تركت نعجتك العزيزة المفضّلة هنا.. ألن تأتي لتحملها وتأخذها معك؟ فنعجتك البريئة سوف تنفق من الوحدة.. تعال وخذني، اذبحني واصنع كباباً من لحمي وكلْ هنيئاً مريئاً معمع معمع.. ألا تتذكّر أنك كنت تضعني تحت إبطك وتعزف الناي لي في السهول والفيافي؟»، ثم انفجرت بالبكاء مجدّداً قائلة: «انظر إلى أنه ليس لدي صاحب.. فمهما أصدرت الثغاء، لا أحد يأتي ليأخذني إلى حظيرته.. لأن الجميع يعرفون أنني نعجتك البيضاء الضائعة.. معمع معمع».

---

(*) مكان مخصّص لإحياء طقوس شهر محرّم لدى الشيعة، وغالباً ما يُبنى بهيكل خشبي ويُغطّى بالقماش والأعلام. (م).

بعد أيام قليلة، عندما لم يكن قربان في المنزل وكانت عفّت جالسة عند عتبة الإيوان كعادتها تمشّط شعرها بمشط خشبي وتشاهد تساقط الثلوج المتواصل، استجمع عيسى أخيراً شجاعته وذهب ليجلس بجانبها. بدأ عيسى يشمّها، ولكنه لم يشمّ سوى رائحة الثلج البارد. فاقترب منها أكثر واستنشق مرة أخرى، وفي هذه المرة شمّ رائحة لطيفة لم تكن رائحة الثلج. فاقترب أكثر مرة أخرى لدرجة أنه التصق بعفّت التي كان دفء جسدها في ذلك الشتاء البارد، ساخناً مثل التنّور. قرّبَ رأسه من شعر عفّت وراح يستنشقه. وفجأة استولت رائحة طاغية على كيانه كلّه؛ رائحة لم يشمّ نظيرها من قبل، فأصابه الدوار وشعر أنه إذا مرَّ وقتٌ أكثر من ذلك بقليل، فإنه لن يتمكّن أبداً من فصل نفسه عن الرائحة. فابتعد عنها مرعوباً وجلس في الفناء مباشرة تحت تساقط الثلج. لم تتركه رائحة جسم عفّت الطاغية؛ كان متوتّراً وأراد مهاجمة عفّت مرة أخرى، وخاصة جسدها وشعرها، ولكن في منتصف الطريق، عرج طريقه وخرج من باب الفناء خائفاً، ولم يرجع حتى حلول الليل. وفي النهاية رفعت عفّت، التي كانت منتبهة كل هذا الوقت إلى ردود أفعال عيسى وتصرفاته، رأسها ورأت ابتعاده تحت هطول الثلج المستمر وهي تضحك وراحت تدمدم مع نفسها: «يا لك من مسكين، فأنت أيضاً لن تصبح إنساناً عاقلاً». ثم واصلت تمشيط شعرها.

وفي صباح اليوم التالي، كان عيسى لا يزال يفكّر في أمر واحد فقط: كان الناس يقولون الحقيقة؛ فهذا العطر يسبب الجنون. أراد البقاء في المنزل طوال اليوم حتى لا يضطر مرة أخرى إلى المرور بجانب عفّت واستنشاق هذا العطر الذي لا يمكن مقاومته؛ ولكنه لم يفهم كيف وجد نفسه بعد لحظات قليلة يجلس بجوارها ثانية ويسألها: «هل وقعت في

الحب حقاً؟»، فنظرت إليه في دهشة وسألته: «ما معنى الحب؟»، فأجابها عيسى: «كما يقول الناس، أن تريدي أحداً وتكوني مهتمة به».

فتساءلت عفّت: «كيف يمكن لورقة أن تكون مهتمة بشجرة ما؟ هل هذا ممكن على الإطلاق؟ وكيف يمكن للنعجة أن تكون مهتمة براعيها؟ فبعد كل شيء هل الراعي والشجرة لهما معنى دون الورقة والنعجة؟». ارتبك عيسى وسألها متحيّراً: «ماذا تقصدين بهذا الكلام؟»، فأجابت: «ذات يوم، عندما رأيت رجلاً وقف أمامي لبضع دقائق فقط وطلب مني كوباً من الماء، وشرب وغادر بعد ذلك، أدركت أنني انقسمت فجأة إلى قسمين. هذا فحسب. منذ ذلك اليوم وحتى الآن أصبحت شخصين؛ هل تفهمني؟».

لم يفهم عيسى؛ فهزّت عفّت رأسها وقالت فجأة بغضب: «أنتم جميعاً مجانين؛ فجميعكم لا تفهمون معنى أن يكون المرء مزدوجاً. جميعكم مرتبطون جداً بأناكم فلا تفهمون على الإطلاق لماذا أنتم على قيد الحياة». ثم هدأت مرة أخرى وبدأت في تمشيط شعرها. هزَّ نسيمٌ عليل شعرها؛ فضحكت وأردفت قائلة: «مشكلتي الوحيدة هي أن الاثنين خاصتي متباعدان أحدهما عن الآخر، وعليّ أن أفعل شيئاً من أجل هذا الأمر. هذا فحسب». فسألها عيسى: «أين جزؤك الثاني هذا الآن؟»، فتوقّفت عن التمشيط وحدّقت إلى بقعة مجهولة في الهواء قائلة: «يقف تحت شجرة وحيدة في مواجهة المرعى وينظر إلى قطيعه المنتشر عبر السهل». ثم صمتت هنيهة واستأنفت حديثها مرة أخرى: «وقد انحنى الآن ويشرب الماء البارد من عين تحت قدميه». أغلقت عفّت عينيها لتشعر ببرودة الماء المنعش في كل خلية من خلايا جسمها. كانت ظمأى حقاً؛ فأخذت نَفَساً عميقاً مرة أخرى وقالت: «كم هو بارد ومنعش! أتشرب أنت أيضاً؟»،

فسألها عيسى، متجاهلاً دعوتها: «إلى أين أنت ذاهبة بعد ذلك؟»، ردّت الفتاة: «نحن ذاهبان إلى مكان بارد مع دوابنا وحيواناتنا، نذهب إلى مراعي كاليماني».

وفي غداة ذلك اليوم جاء قارئ مرايا القرية برفقة بعض الشيوخ إلى منزلهم. كان الشيوخ يواسون أنفسهم أنه بوجود قارئ المرايا معهم، لن تنوبهم نازلة وأنهم في مأمن من أنفاس عفّت العطرة. قرأ الرجلُ الكهل الطالعَ من كتاب خاصٍ، فشَخَّصَ أن الفتاة مسحورة بسحر أسود. فاستفسر الأهالي ما الذي ينبغي عليهم فعله؟ وأجابهم قارئ المرايا: «اجلبوا لي مرآة وقدح ماء». ثم نظر إلى عمدة القرية وقال له: «أرسل أحدهم ليحضر بول حفيدك حديث الولادة!»، فنادوا أحد الشباب وأخبروه ماذا يفعل، فهرع الشاب راكضاً وعاد بعد مرور ساعة وهو يحمل بول الفتى الرضيع في قدح من الفخار. سكب قارئ المرايا البول داخل قدح الماء، وطلب إحضار قطعة قماش جديدة؛ فجلبوا له ما أراد. ثم دسّ يده تحت قطعة القماش، وقال للحاج الوحيد في القرية أن يمسك مرآة فوق يده. ففعل، ونادى عفّت. فمضت عفّت مثل فتاة مطيعة وجلست قبالة قارئ المرايا. أمسك قارئ المرايا يديها ووضعهما تحت قطعة القماش في قدح الماء الممزوج بالبول. لكن فجأة بدأت قطعة القماش بالتحرّك، وشرع قدح الماء بالاهتزاز تحتها، وراحت قطرات الماء تتقاذف كالفحم المشتعل في كل الاتجاهات وتحرق البساط تحت أقدام الأهالي. كانت ثمة مخلوقات تتشكّل داخل قطعة القماش وشرعت بالحركة. تصبّب قارئ المرايا عرقاً وجهد كثيراً لإبقاء تلك المخلوقات كثيرة الحركة في الأسفل، لكن فجأةً همد كل شيء وسكن. وخيّم الصمت؛ السكوت. السكوت.

تسمّر سكّان القرية في أمكنتهم مندهشين، وانحبست الأنفاس في

الصدور؛ إلا أن الشخص الوحيد الذي كان يضحك بدماثته ولطفه البريء، كانت عفّت. فتح قارئ المرايا عينيه وكان قد أغمضهما قبل ذلك، ونظر إلى عفّت التي بدت غير آبِهةٍ بشيء وتوزّع الابتسامات على الجميع دون مبالاة. ألقى قارئ المرايا بقطعة القماش إلى زاويةٍ، ورأى سكّان القرية بعيون شاخصة ومرتاعة كيف استحال القدح المترع بالماء والبول والمليء بالتراب والأقفال والطلاسم، إلى لون أسود. شاهدت عفّت الأقفال فاعتراها الضحك. استفهم قارئ المرايا: «أتعلمين يا فتاة، كم أوصدوا بختك بالأقفال؟ فهذه أقفال بختك، أحضرها الجن لي من تحت الأرض!». ومن ثم أخرج من وسط بساطه، أعواد البخور والحرمل والمبخرة، وشرع بحرقها وقراءة الأدعية، ثم توجّه إلى جوانب الغرفة، ونشر حوله دخّان اللبان العطر والحرمل في كل مكان. وفي هذه الغضون، راح يجلد الهواء بسبحته التي كان يحملها في يده الثانية ويكيل الشتائم. وفي نهاية المطاف عبقت الغرفة بالدخان وهرب الجان الشرير بعيداً. ثم جلس قارئ المرايا وأخرج من بساطه قارورة زعفران، وورقةً كان قد ضمّخها في العنبر سابقاً وقلماً مصنوعاً من ريش طائر الدراج الأبيض؛ أغرق القلم في ماء الزعفران وكتب على الورقة المُطيَّبة بالعنبر دعاءً، وأوصى بعدم خروج عفّت من باب المنزل لمدة سبعة أيام بلياليها، وإلا سيسيطر عليها الجان مرة أخرى. فاعترى الجميع الفرح والبهجة.

قبَّل الوالد يد كاتب الدعاء ووضع في صُرَّة مالاً ورغيفاً ودجاجاً وقدّمها له. فلمّا جمع قارئ المرايا بساطه، هرعت عفّت نحوه، وأمسكت يده بلطف وحنان؛ ثم تبسّمت لقارئ المرايا المذعور من تصرّفها، وتنهّدت وهي تحدّق إلى عينيه. وفجأةً فاح عطرٌ طاغٍ عبقٌ من فمها، وبدا وكأن ألف زهرة ربيع وزهرة بنفسج قد نمت في فمها، وملأت جوّ الغرفة التي كانت

قبل ذلك تُبعث منها رائحة دخان الحرمل والبخور. كان عطراً حاداً وعليلاً؛ سحب قارئ المرايا المذعور يده. فصاح أحد القرويين: «إنها رائحته... عطر الحب الأسود؛ اهربوا!». فهمَّ الجميع بالهروب وفي مقدمتهم قارئ المرايا، لكن في تلك الأثناء توقّفت امرأة مسنّة فجأةً واتكأت على عصاها وأغمضت عينيها وتنسّمت نفساً عميقاً.

ضحكت عفّت عليها، وضحكت المرأة المسنّة أيضاً، وأشارت إليها حتى تقترب منها. اقتربت عفّت منها خجلةً؛ فوقفتا في الإيوان، في حين أن سكّان القرية أحاطوا بفناء المنزل المتجمّد. فقال أحد الأهالي للمرأة المسنّة: «تعالي.. ابتعدي عنها.. فسوف يمسّك الجنون أنت أيضاً!»، بيد أن المرأة المسنّة نظرت إلى عفّت غير آبهةٍ بالآخرين، وقالت: «تنهّدي مرة أخرى، تنهّدي من أجلي!». أمسكت عفّت بيد المرأة المسنّة بلطف وتنسّمت نفساً عميقاً، فخرجت من فمها تنهيدة كنفس الربيع. أغمضت المرأة المسنّة عينيها، وفي لحظة ومن مكان قَصيّ راودتها كل ذكريات مرحلة الطفولة والصبا، وركضها في المزارع وجني البرقوق الأخضر البريّ وطعم تهشّم توت العليق في فمها وأول مطارحة غرام في حياتها، فراقَها الأمرُ وخيّم على عقلها وروحها. فتحت المرأة المسنّة عينيها وضحكت. ثم ألقت بعصاها جانباً وشرعت بتأدية رقصة شكّة(*). تماماً مثلما كانت في الرابعة عشرة من عمرها عندما كان مختار القرية هذا يحبّها، ويحضر باقات الزنبق البري لها حتى يعلّقها في شعرها الطويل.

كان عيسى هو أول من لاحظ أن أجمات «شبّ الليل» بدأت بالتبرعم والتفتّح؛ ومع أن أشجار البرقوق الأخضر قد تساقطت الثلوج عليها، إلا

(*) رقصة محليّة تقليدية في شمال إيران، تُرقص في الاحتفالات. (م).

أن أوراقها بدأت تظهر وتفتح أزهارها وفجأة امتلأت الساحة بأكملها، التي كانت مغطّاة بثلوج الشتاء قبل بضع دقائق، بأزهار الربيع الشائعة والبكورية وأجمات شبّ الليل. ومن شدة خوف عيسى أصابته حازوقة، ولو لم تُحضر له حميرا خاتون عرق برتقال الربيع بعد ثلاثة أيام وتجعله يحبس أنفاسه لمدة تعادل سبع مرات ذكر الصلاة على النبي، لما كان معلوماً أي بلاء كان سيحلّ به. ضحك عيسى بعد صدمة تلك الأحداث التي وقعت أمامه، وابتلائه بالحازوقة التي كان صوتها عالياً جداً لدرجة أن الدجاجات كانت تثب من مكانها فزعاً. ثم ضحك والده من شدة العجز والبؤس وذرف الدموع في الوقت ذاته، ثم ضحك واحدٌ تلو الآخر، وفي النهاية جميع سكّان القرية الذين كانوا خائفين ضحكوا وقهقهوا.

خرج الناس من منازلهم وأفنيتهم ورأوا بأعينهم الجاحظة من الدهشة كيف أنه في منتصف الشتاء، تسلّقت الشجيرات الزاحفة للرمان والياسمين ونبتة عسلة معزية الأوراق، الجدرانَ والأشجار، وازدهرت مع ابتسامة عفّت الأولى. وانتشرت رائحة أزهار الربيع في كل مكان، ودوّى صوت القهقهة من فناء منزل عفّت، إلى بيت الجيران، ومن بيت الجيران إلى البيت المجاور له، ثم إلى بيوت القرية كافة. قطف كل شخص غصن زهرة ووضعه في شعره، ووضع كلّ واحد منهم زهرةً في يديه وبدؤوا بالغناء والرقص. وجثا الجميع على ركبهم في وسط الأزقة والشوارع، وراحوا يردّدون عبارات رومانسية للربّ، وقرع كلّ شخص أبواب جيرانه وأهدى وردة لليد التي خرجت من الباب.

وقفت عفّت في الإيوان ونظرت جيّداً إلى كل شيء. وكان قارئ المرايا يضحك ويرقص أكثر من الجميع. كانت حميرا خاتون، ووالدها، وشقيقها، وبنات الجيران، وشباب القرية العابسون، والنساء العجائز المتذمّرات،

والرجال المسنّون المنهكون الباحثون على الذرائع والمشاكل، كلهم كانوا يضحكون ويرقصون. نظرت عفّت ملء عينها إليهم، ثم هبطت سلالم الإيوان، وذهبت باتجاه الطريق خلف المنزل، ومن هناك ذهبت باتجاه الغابة، ومن هناك ذهبت وذهبت حتى وصلت إلى شجرة القرية الكبيرة، الشجرة التي يجب أن يلفّ عشرة من كبار القرية على الأقل أذرعهم حولها، ليتمكّنوا من احتضانها. كان الظلام على وشك الحلول، وفي المكان ذاته راحت تصيخ السمع بجانب أكبر أشجار المنطقة، التي كانت تقع أعلى الرابية، إلى الصوت البعيد والغامض للقرويين، الذين كانوا لا يزالون يغنّون ويرقصون. اتكأت على الشجرة ونظرت إلى القرية تحت قدميها، وفكّرت أن الجميع بات يفهم الآن ما معنى التقسيم إلى اثنين. ثم وهي تدندن أغنية حب شعبية بصوت خفيض جرفت الثلج وجمعت أرومات الأشجار والأغصان، وصنعت كومة كبيرة من الخشب حول الشجرة الكبيرة. ثم أضرمت النار بها وجلست لتشتعل النار جيداً، وتكبر وتصبح قوية لتحرق الشجرة الكبيرة التي يبلغ عمرها عدة مئات من السنين. ثم بهدوء تام، وحتى دون أن تنظر ولو لمرة واحدة إلى الوراء، أي إلى قريتها ومنزل والدها، دخلت بخطوات حذرة في النار؛ وقد ارتسمت الابتسامة على شفتيها. تماماً وكأنها كانت تقف بجانب موقد حطب ساخن في يوم شتوي بارد، ابتسمت وتركت النار تصل إلى عظامها؛ بحيث لم تبقَ لها أيّ حياة وروح. ابتسمت لشخصها الآخر؛ شخصها الآخر التي كانت تعزف الناي في سهول كاليماني الخضراء الواسعة، وتنظر إلى أغنامها وحملانها الوديعة وتقول في سريرتها يا للسعادة التي تأتيك فجأة. تماماً في اللحظة التي تدرك فيها أنك الحمل الأبيض الوديع ذاته وأن الحمل الأبيض الوديع هو أنت، أنت الشجرة ذاتها، والشجرة أنت، الأوراق ذاتها،

الأوراق ذاتها المتساقطة تحت قدمك عندما تعزف على الناي لخرافك وتمشي في السهل.

وعلى حين غرّة، اندلعت النيران ليلاً في سماء رازان؛ كانت الشرارات المتوهّجة والبرّاقة تأتي ببطء من جهة الغابة، تحديداً من الشجرة الكبيرة وكأنها ذيل المذنّب هالي، وراحت تتساقط على الأهالي. وبينما كان الناس يغنّون ويضحكون تحت انهمار الشرارات المستمر، رأوا قارئ المرايا يجمع الحطب، ويلقيه في وسط ساحة القرية الكبيرة؛ ثم أشعل أعواد الثقاب تحت الأخشاب المجوّفة والجافة، فاشتعلت فيها النيران وتوهّجت. جلس جميع القرويين حول النار، وللمرة الأولى ساد الصمت بعد كل تلك الضحكات المتواصلة؛ بدا الأمر وكأن أفواههم قد تألمت بسبب كل هذا الضحك. بدا وكأنهم قد سئموا للغاية من كل تلك السعادة. ثم شرع قارئ المرايا بقراءة الأوراد، أوراد قديمة بلغة بهلوية. مدّ يديه تحت شرارات النار السماوية؛ ثم رقص حول النار، وغنّى وترك الشرارات تتساقط على جسده ووجهه، وتستحيل إلى رماد هشّ وخفيف.

وشيئاً فشيئاً، بدأ الأهالي يتجاوبون في الرقص معه، وراحوا يترنّمون بالأوراد أيضاً. من كان يظن أن اللغة البهلوية يمكن أن تكون موجودة في أعماق كل شخص من هؤلاء الذين كان قد مرَّ على اعتناقهم الإسلام مئات السنين؟! بعد ذلك لم يتضح من الذي ذهب، ومن أين حصل على النبيذ؛ نبيذ عتيق عمره سبع سنوات. تناول الجميع، كباراً وصغاراً، كأساً من النبيذ، وراحوا يترنّمون الأوراد، ويرقصون في الوقت ذاته؛ وكأن هؤلاء الناس ليسوا هم أنفسهم من اعتنقوا الإسلام بعد الغزو العربي منذ أربعة عشر قرناً. وكأنهم زرادشتيو آلاف السنين أنفسهم، فقد راحوا يشربون الخمر ويرقصون في ساحة القرية، ويشكرون الله والطبيعة على سعادتهم.

سكب قارئ المرايا الهرم، أولاً بعض النبيذ من الكأس على الأرض وفقاً لما جرت عليه العادة منذ آلاف السنين، وتجرّع الباقي وأنشد مدندناً(*):

في الأزل أشرق شعاع حُسنك من التجلّي
فظهر الحبّ وأضرم النار في العالم كلّه

ثم دون أن ينظر خلفه لمرّة واحدة حتى، أو إلى أهالي القرية، ومنزل أجداده القديم، دخل النار ومن هناك حدّق إلى النقطة فوق رأسه حتى اختفى في النار.

لم يرتعد سكّان القرية، ولم يبكوا، ولم يشعروا بالخوف؛ إذ كان الجميع في سعادة غير مسبوقة. وكأنهم في لحظة واحدة قد وصلوا إلى «اليقين»؛ إلى يقين وجود آخر. إلى يقين وجود آخر في أعماقهم. إلى هذا اليقين أن ما يعيشونها ويعتقدونها حياة، ليست بحياة على الإطلاق. ثم فجأةً حلَّ والد عيسى مكان قارئ المرايا واستمر في ترنيم الأوراد القديمة. وبينما كان الناس يرقصون راحوا يردّدون معه الأوراد.

في تلك اللحظة دوّى صوت أجراس الأبقار في الطريق؛ كانوا مجموعة من الجوكيين(**) الهنود قد جاؤوا لعدّة أيام دون موعد، بأحمال من القماش، والمناجل والأواني النحاسية كعادتهم كلّ عدّة سنوات، فقد كانوا يشقّون طريقهم إلى القرية عبر طرقات الغابة الضيّقة والمتعرّجة، لكي ينصبوا خيامهم ويبسطوا فرشهم، ويبيعوا للأهالي المسامير، والمناجل، والأواني النحاسية، والأقمشة، ويقرؤوا طالعهم.

---

(*) الأبيات لحافظ الشيرازي. (م).

(**) جوكي: من الغجر الهند الذين يمتهنون الرقص والغناء، وقد هُجِّروا لأول مرة إلى إيران بأمر من الملك الساساني بهرام غور لجلب الفرح والرقص إلى الشوارع. وفي هذه الأيام يمتهن الغجر الهنود الحدادة أيضاً.

عندما نزل جماعة الجوكيين السود رجالاً ونساءً من على أبقارهم، وبعرانهم، وخيولهم وبغالهم، ورأوا أهل رازان قد وقفوا حول النار ويتحدّثون بلغة لم يكونوا يتحدّثون بها قبل عدة سنوات، ويشربون النبيذ، أصابتهم الدهشة وحدّقوا إلى أولئك القوم الذين لم ينتبهوا إلى مجيئهم الصاخب خلافاً لكل عام. وفي هذه الأثناء أنشد والد عيسى:

كان العقل يريد أن يضيء المصباح بتلك الشعلة
إلا أن برق الغيرة سطع وهزّ العالم(*)

ردّد سكّان القرية هذا البيت معه، ولما فرغوا من قراءة البيت دخلوا النار بوقت متزامن معاً دون أن ينظروا وراءهم. لم ينظر أي شخص خلفه.. لم يفكّر أحدٌ في طفله، وزوجه، ولا في أبيه وأمه.. لم يلقِ أيٌّ منهم نظرةً واحدة حتى على بيته العائلي.. وإنما مضى هؤلاء الأشخاص قُدماً نحو النار وكأن كلّ عمل آخر خلاف هذا ما هو إلا حماقة وبلا معنى. صرخ جماعة الجوكيين الذين عادوا إلى رشدهم فجأة، وزغردوا، وهلّلوا ولوّحوا بأساورهم في الهواء ولطموا رؤوسهم. ركضوا وأبعد كلٌّ منهم شخصاً من النار، ثم سحبوا المياه من البئر بجوار الجامع وصبّوها على النار؛ وفرّقوا الناس في غمضة عين ودفعوهم إلى أزقة القرية الملتوية المظلمة. وبعد مضيّ ساعة.. لم يكن قد تبقّى أيّ شخص في ساحة القرية. بدا وكأنه حلم ما، أو سحر قد خيّم على رازان، ثم تجاوزها وغادر. وراح عيسى، الذي كان قد انكمش على نفسه في أحد الأركان يرتجف بسبب القشعريرة التي سرت في كيانه، وبقي محدّقاً إلى جميع تلك الأشياء التي حدثت أمام ناظريه في صمت مطبق، وفكّر: وكأنه لم يكن هنالك قارئ

---

(*) الأبيات لحافظ الشيرازي. (م).

المرايا منذ البداية قطّ.. ولا أب لي.. وكأنه لم يكن لعفّت أي وجود منذ البداية.. ولم تكن هنالك نار.. ولم يكن هنالك حبٌّ قطّ.

وفي غداة ذلك اليوم ولمدة أربعين يوماً بعده، لم ينظر أيّ أحد إلى الآخر في تلك القرية؛ إذ لم يلقِ أيّ شخص التحيّة على الآخرين، ولم يقل وداعاً. وفي غداة ذاك اليوم ولمدة أربعين يوماً، كان الثلج أشدّ من أي شتاء آخر، فلازم الجميع منازلهم؛ فحُبست الأبقار والأغنام في الحظائر، حتى نفقت من شدة الجوع. وكأنه لم يكن هنالك أي ربيع منذ البداية، ولا صيف ولا خريف؛ لا شيء.

# الفصل الثاني عشر

كانت بيتا محبطة وتشعر بالمذلّة وتائهة، وتتخذ خطوات واثقة تجاه المجهول، وتفكّر في الوقت ذاته كيف غيّرت الثورة مصيرها ومصير هذه العائلة. وراحت تتذكّر ذلك اليوم، في خضمّ الثورة، الذي رأت فيه، من نافذة بالقرب من سقف صفّ الباليه، أقدام الناس الذين كانوا يطرقون الأرض بتناغم وهم يهتفون في صوتٍ واحد: الموت للملك، الموت للملك، المممموت لللللمممممملك! الموت للملك، الموت للملك، المممموت للللللمممممملك! في تلك اللحظة، جاءت إحدى المعلّمات من الفصل المجاور ركضاً عند معلّمة بيتا وشرعتا بالهمس، ثم أخرجت معلّمة الفصل المجاور وشاحاً من حقيبتها وارتدته، وخرجت من الباب وانضمّت إلى المتظاهرين، لكن معلّمتهن بقيت في مكانها وكرّرت بحزم: «ارفعن أقدامكن باتجاه اليمين في وضعية "جي ته" بمقدار خمس وأربعين درجة، واليدين على الوضعية الخامسة. اشعرن أنكن تطلقن تنهيدة كبيرة من قلوبكن!».

تذكّرت بيتا كيف أنه بعد عدّة دقائق، سحب بعضٌ من أولئك الناس المعلّمة من الفصل وسحلوها وركلوها في الشارع، وأغلقوا فصل الباليه

إلى الأبد. فكّرت ماذا تفعل معلّمتهن الآن؟ ربما سيكون من الجيّد أن تبحث عنها حين تصل إلى طهران، وتجدها. قد تكون غادرت إيران من الأساس، أو ربما أخفت جميع مواهب الرقص هذه في قبو منزلها، واستبدلت بها مأسوفاً عليها الطبخ والخياطة والكنس.

نظرت حولها لعلّها تجد طريقاً عبر الأجمات والأشجار، ولكن لم يكن أمامها شيء سوى اللون الأخضر؛ أوراق خضراء، وفروع خضراء، وأجمات خضراء. إشراقة شجرة البرقوق الأخضر، والعشب الأخضر؛ وبينما كانت تنظر إلى السماء بيأس لعلّها تخمّن الطريق من خلال مسار الشمس، رأتني أقترب منها ببطء. أريتها الطرق وحاولت أن أخرجها من تلك الأوقات العصيبة، لكن بعد لحظات قفزت كلماتٌ معكوسة من فمي، وبدلاً من مواساتها، اشتكيت منها أن لماذا لم تفكّر حتى في قول كلمة وداع لي قبل المغادرة. وعندما سمعت أنها تقول بانزعاج: «إنك في كل مكان. لذلك فالتحيات والوداع لكِ لا معنى لها أصلاً». أدركتُ والعبرة تخنقني أن الأرواح، مهما كانت عزيزة على أُسرها، إلا أنها ليست أكثر من موتى منسيين. ومع ذلك، تجاهلت الأمر وسألتها عما تريد أن تفعله الآن. لكن عندما هزّت كتفيها للأعلى فقط، أدركت أن شكواها منّي ومن الحياة كانت أكثر من ذلك، ثم فجأة خرج كلام من فمي فاجأني أنا أيضاً؛ فقد قلت: «تستمر حياة معظمنا في غيابنا وهذا ما يزعج المرء. ومع هذا ألا تدركين كم أنتِ سعيدة؟ على الأقل ما زال بإمكانك المشي على قدميك، ولمس الأشياء ببشرتك وتذوّق مرق الخضار وحساء اللحم. فأنتِ غبيّة لأنك ما زلتِ لا تفهمين، فحتى مطارحة الغرام الحقيقية لمرة واحدة فقط لهي سعادة لها القدرة على تلوين حياتك بأكملها».

لم تكن الكلمات الأخيرة قد خرجت تماماً من فمي، حين توقّفت

ونظرت إليّ بنظرة مشمئزّة جعلتني غير مرئية من خزي ما قلته لها وروعه؛ لم أصدّق أن هذه الكلمات قد خرجت من فمي. كانت الحياة قد تشدّدت معنا وباتت صعبة للغاية علينا، لدرجة أنها لم تتح لنا الفرصة مطلقاً لتبادل كلمات قاسية في ما بيننا. والآن وبعد أن خرجت هذه الكلمات من فمي، لم أستطع تحمّل سماع ردّها المفحم والحاسم لتخبرني بمدى اشمئزازها من معرفة أنني كنت أراقبها سرّاً طيلة هذه الأشهر الماضية، هي وعلاقاتها كلّها. شعرت بالخجل من نفسي لأنني ميتةً كانت لدي تلك القدرة على مشاهدتها في أوقاتها الخاصة هي والآخرين دون أن ألفت النظر.

تركتها تمشي وحدها وتبكي ببطء حتى لا تراني أبكي؛ تركتها تشتمني من بعيد ولا تسمع شتائمي. وبينما كانت تجلس القرفصاء تحت إحدى الأشجار، دوّى صوت نحيبي ووصل إلى أماكن بعيدة، ورحت أفكّر أن الأحداث المتتالية لعائلتنا قد سلبتني فرصة البكاء. لقد أيقظتني نظرة بيتا البغيضة، وجعلتني أدرك أنني لست أكثر من ميّتة وهمية، مع أنني أستطيع التحدّث إلى الأحياء ويمكنهم رؤيتي، ولكن حضوري بعد موتي ما هو إلا خدعة مني. اعتقدت أنني سأتذكّر إخبار سهراب، إذا رأيته مرة أخرى ذات يوم، بأنني مخطئة. كنت مخطئة في الاعتقاد بأن الموت هو مجرّد نهاية لبعض الأشياء. كلا! فالموت هو نهاية كل شيء، نهاية جسدي، وهويتي واعتباري. ونهاية جميع الأشياء التي كانت قيّمة بالنسبة لي عندما كنت على قيد الحياة: أي العائلة والحب والثقة والصداقة. أجل.. فالموت نهاية كل هذه الأشياء.

صرختُ كثيراً تحت الأشجار، وبكيتُ حتى لاحت النجوم في الأفق وبدأت بنات آوى في العواء؛ وفي النهاية شعرت بضغط يدٍ على كتفي، كنت قد بكيت كثيراً حتى صار رأسي ثقيلاً. للموت جانبٌ حسنٌ أيضاً،

وهو أنك لن تخشى أيّ شيء أبداً، حتى لو كان ضغط يد شخص غريب على كتفك في غابة نائية في أعماق الليل. رفعت رأسي على مضض، كانت روح رجل في منتصف العمر؛ ودون أن أطلب منه جلس بجانبي، وأراح رأسي برفق على كتفه. لا أعرف لماذا، ولكن غلبني البكاء أكثر؛ مسح الرجل بيده على رأسي بأبوّة، وكم كان من الجيّد أنه لم يسألني عن أيّ شيء قطّ. وعندما قلّ نشيجي، أشار برأسه إلى جهةٍ قائلاً: «كنت ذاهباً لرؤية أرواح النهر فاستوقفني صوتك، إن أردت تعالي معي!».

رافقته دون أن أفكّر، وفي الطريق شرح لي أن أرواح النهر هم الأشخاص الذين قد غرقوا في نهر هذه الأنحاء، وأنهم يجتمعون بعضهم مع بعض بين تارة وأخرى لسرد ذكرياتهم.

قلت: «يا لها من مضيعة للوقت!»، فقال الرجل: «في النهاية يجب قضاء الوقت كيفما اتفق، وإلا فإن المرء سيموت كمداً من الوحدة». وأنا أمسح آخر قطرات دموعي قلت: «أنت تتكلّم كما لو كنت من الأحياء». فردّ قائلاً: «ألا ترين كم أننا نعيش كالأحياء؟»، أجبته: «معك حق، فربما يكون من الأفضل إجراء بعض التغييرات؛ فمهما يكن فإننا لم نعد أحياء بما يكفي». فقال الرجل: «لم يصنع الموت منا أشخاصاً سعداء حتى».

سار كلانا في صمت إلى أن بلغنا النهر، حيث كان بعض الناس يجلسون حول النار. وكان هناك أيضاً صبي في العاشرة من عمره وقد ابتلّ بالكامل ويرتجف بشدة. بدا الأمر وكأنه قد خرج لتوّه من النهر، أعطى أحد الأرواح معطفه للصبي، وشرح للآخرين متمتماً: «لقد غرق قبل ساعة فقط ولكنه لا يزال لا يعرف ذلك».

نظرت إلى عينَي الصبي غير المصدّقتين والحزينتين. كانت النار ترتعش في بؤبؤي عينيه. تماماً مثل روحه حديثة العهد والصغيرة في وسط

الموت. كنا جميعاً في منتصف الموت وكان هو الوحيد بيننا الذي لم يعرف هذا بعد؛ إذ كان لا يزال يعتقد أنه في أحضان الحياة، هناك، في ذلك الجانب من الجدار غير المرئي، قال الصبي إنه راعٍ واسمه مجيد، وكان يعبر النهر مع والدته عندما فقدها. صمت الجميع مرة أخرى؛ بسبب وجود روح مجيد حديثة العهد، لم يرغب أحد في التحدّث عن ذكريات حياته، ولم يرغبوا في إبلاغه على عجل بحقيقة موته. كان يجب أن يحدث هذا الأمر من تلقاء ذاته. أعلم، ولا بدّ أن الجميع يعلمون أن الساعات الأولى بعد الموت هي أسوأ الساعات. الساعات التي لا تعرف فيها أنك ميّت، وإن علمت فإنك لا تريد أن تصدّق ذلك. ما زلت تشعر بدفء جسدك، وتلمس أثر بلل لسانك على شفتيك الجافتين، وتعلم أن هناك من ينتظرك في مكان قريب...

سأل مجيد: «ماذا تفعلون هنا؟ هل أنتم مسافرون؟»، نظرنا واحدنا إلى الآخر؛ انصدمنا متلعثمين ولم نكن نعرف كيف نجيب، وعندئذٍ اقترب صوت عدة أشخاص يحملون الفوانيس. كانوا بشراً؛ أحياء. جاء والدا مجيد وإخوته بفوانيس للبحث عنه على ضفة النهر. وبرؤيتهم شعر مجيد بالسعادة، وناداهم صارخاً؛ ورمى معطفه عن كتفيه وركض نحوهم. لم نتحرّك من مكاننا؛ ركض نحوهم لكنهم صاحوا في جهة أخرى وابتعدوا ركضاً، كما لو أنهم قد عثروا على جثته. أوصل مجيد نفسه إليهم متحمّساً وفرحاً وعانق والدته؛ إلا أنها كانت تبكي وتتجه إلى مكان آخر، ولم تنتبه إلى أن مجيداً كان معلّقاً برقبتها. توقّفوا في مكان قريب وشرعوا في البكاء، أوصل مجيد نفسه إليهم وحاول مرة أخرى. وفي هذه المرة عانق أباه، إلا أن أباه لم ينتبه إليه قطّ؛ تجاوزه وألقى بنفسه على جثته وبدأ في البكاء. وفي النهاية رأى مجيد وجهه البارد الرطب الميّت ملقى على كتف والده. نظر

إلى نفسه غير مصدّق؛ ثم تراجع خطوة إلى الوراء. ونظر إلى يديه ولمس وجهه. وفي النهاية حدّق إلينا؛ فنهض الرجل متوسط العمر ذاته الذي تحدّث معي، ومعه الرجل الكهل، وسار ببطء نحو مجيد. إلا أن مجيداً وكأنه قد أدرك للتوّ هوية الموت التي لا تنفصم، صرخ مرعوباً واختفى في جهة أخرى من الغابة.

لدقائق طويلة تردّد صدى صراخه المرعب في أذني مثل ناقوس الموت. خنقتني العبرة؛ وهناك، وفي حضور الجميع احتضنت وحدتي وأجهشت في البكاء. وبعد فترة، وصل الرجلان مع روح مجيد المعذّبة من أعماق ظلام الغابة، وأجلساه بجانبي، وألقيا معطفيهما عليه مرة أخرى لتخفيف وطأة برودة الموت. حدّق إلى النار كثيراً حتى نام أخيراً في صمت. ظننت أن مجيداً المسكين.. أنا المسكينة.. جميعنا نحن الموتى المساكين.. لأن الموت لا يتركك؛ عندما تشبع من الحياة يمكنك الانتحار للتخلّص من متاعبها، ولكن ماذا بعد الموت؟ فهذا ليس من العدل إطلاقاً أن الإنسان لا يملك حتى فرصة للانتحار والتخلّص من معاناته أثناء وفاته. الموت بالمعنى الحرفي للكلمة هو الضجر الأبدي.

نظرتُ إلى ملامح وجه مجيد الغارق في الحزن؛ ورغبتُ في احتضانه مثل أخ صغير حزين، وأن أواسيه قائلة: لا تغتمّ! فعندما ستستيقظ في صباح الغد، سترى أن كل هذا لم يكن سوى حلماً، وأنك ما زلت تحلب الأغنام مع أمك وإخوتك، وترعى الأغنام مع والدك في المراعي المرتفعة.. لا تحزن يا أخي الصغير! إذ ذات يوم قريب ستنضج كثيراً حتى ترى في إحدى رحلات العشيرة فتاة بعينين سوداوين وحاجبين أسودين، وتعشقها وتحبّها حبّاً جمّاً، ثم ستصاب بالحمى بسبب حزن الابتعاد عنها، وتخنقك العبرة، وتغتمّ كثيراً لدرجة أنّك لن تشعر بالسعادة عند سماع صوت عزف

أبيك على الناي، بل سترغب في سماع الأغاني الحزينة. ولهذا السبب ستتعلّم العزف على الناي بنفسك، لتنشد الأغاني الحزينة حتى اقتراب وقت الترحال التالي؛ ثم ترى تلك الفتاة الجميلة مرة أخرى بحيث ستعرف اسمها، وفجأة عندما ترى انحناء جسدها وهي تبتعد غير مبالية، ستدرك أن الحياة بعد ذلك لا معنى لها من دونها هي. لهذا ستتخلّص من شعورك بالخجل والإحراج وتبوح بكلّ شيء لوالدك بعينين قلقتين. وبعد ذلك، يُنسَّق كل شيء على نحو أسرع وأسهل مما تعتقد؛ وتذهب لخطبتها وتصبح زوجتك، وتبنيان بيتاً من الخشب بأيديكما، وبعد عام واحد، سيكون لديكما طفل واحد، وبعد ثلاث سنوات طفلين، وبعد أربع سنوات تنجبان ثلاثة أطفال. حتى ذلك اليوم الذي لن تفهم فيه كيف جاء هذا اليوم، يأتي ابنك إليك بعينين قلقتين ويخبرك أنه وقع في حب فتاة ذات عينين سوداوين في موسم الترحال. ثم تخطب الفتاة لابنك، ومع ولادة حفيدك الخامس، وفي اليوم الذي لا تكون فيه أكثر سعادة من كل أيام الحياة الاعتيادية جداً، تموت فجأة. هذا فحسب؛ تماماً مثل الآن.

بدأت أرواح النهر بسرد ذكرياتها، وفي الوقت نفسه طلبت مني أن أروي لها قصتي؛ فرويت كل ما حدث باقتضاب، وقلت إنه عليّ أن أعود إلى أختي فوراً، فهي وحيدة في الغابة. وفي تلك اللحظة، فتح مجيد عينيه وقد بدا وكأنه سمع كل ما قلته وقال: «لقد رأيت أختك عندما كانت تبحث عن جذع لبلاب ما»، ولمّا وصلنا إليها مرتعبين كانت قد شنقت نفسها، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة تحت ضغط غصن لبلاب سميك، وكانت أصابع يديها وقدميها ترتجف لا إرادياً وتتحرّك بعصبية. وبقدر ما يكون الموتُ كابوسَ الأحياء فإنه كابوسنا نحن أيضاً. لم أكن أريد أن أرى بيتا بجواري في ذلك الجانب من العالم بهذه السرعة، ولم أكن لأدعها تفعل

ذلك. لا يزال لديها الكثير لتعتني بهم، على الرغم من أنها كانت تشعر بخيبة أمل أكثر مما كانت تعلم. وعندما استعادت وعيها، قبل أي شيء صفعتني مرّتين وجعلتني أضحك. كنت قد بكيت كثيراً لدرجة أنني لم أستطع التوقّف عن الضحك. ثم بكت كلٌّ منا بين ذراعي الأخرى حتى أغلقت عينيها ونامت. وسمحنا لأرواح الغابة الحزينة أن تجلس حولنا وتشعر بالأسف تجاهنا بصبر.

عندما استيقظت، كنا نجلس جميعاً حول النار، ونبقيها دافئة تحت معاطفنا. وقبل الجميع تحدّث معها مجيد وسألها: «هل تعتقدين حقاً أن البقاء على قيد الحياة هو أمر سيّئ؟». كانت عينا بيتا قد تسمّرتا على النار، وأطبقت شفتيها معاً بحيث كان يبدو جلياً أنها لا تزال غارقة في أفكارها. طلب الشيخ من الرجل الذي كان في منتصف العمر أن يروي قصة حياته. فقال الرجل: «لم أسرد قصة حياتي حتى الآن، لأنني لا أعرف كيف أرويها». فردّ الشيخ قائلاً: «وماذا يعني هذا الكلام؟ ففي النهاية كلّ شخص يروي قصة حياته على نحوٍ ما. أنت أيضاً اِروِ لنا». فأجاب الرجل: «حسناً، سأحاول، ولكن من الآن أقول لك إنني لا أعرف من الأساس كيف أروي مثلك».

وبينما كان يحدّق إلى لهب النار، هكذا شرع بجملته الطويلة دون أي مكث وأتمّها: كنّا ثلاثة أشقاء فضلاً عن نسائنا وأولادنا، وأمٌّ وأبٌ مسنّان، نعيش جميعاً في منزل واحد، وكنا نعتاش عن طريق صيد الأسماك وجمع الحطب، حتى قَدِم شقيقي الصغير ذات يوم إلى المنزل وقال إنه وجد خريطة كنزٍ ما، وطلب العون منا نحن شقيقيه الآخرين كي نعثر على الكنز، بيد أن الحزن والأسى ألمَّا بأمي وأبي المسنّين، وقالا إنهما سيعتبروننا عاقّين في حال خضنا في هذا الأمر؛ لأن الكنوز دائماً ما تكون مسحورة،

وأيُّ كائن يسعى وراء كنز أتى دون عناء فلن يؤوب أبداً. بيد أننا لم نُلقِ بالاً إلى هذا الكلام، ولم نستمع إلى كلام أبي أيضاً الذي قصّ علينا حكاية أنه ذات يوم ودّع فتىً عائلته ومضى بحثاً عن كنز، وانطلق في طريقه وهو يعبر من قرية إلى أخرى ومن مدينة إلى مدينة أخرى حتى أقدم في نهاية المطاف من شدة اليأس على السرقة من منزل رجل ثري، بيد أنه اعتُقل وزُجّ به في السجن، فأرسل من محبسه رسالة إلى والده قال فيها: أغثني يا أبي، فقد انتهى بي المطاف في السجن! إلا أن والده ردَّ عليه قائلاً: لقد حذّرتك سابقاً ألا تمضي خلف كنز ضائع فتبتلى، لكن الآن وأنا على شفا قبري فلا يسعني عمل شيء سوى أن أقول لك عندما تنقضي مدة سجنك ارجع إلى المنزل، فقد خبأت الكنز الذي جمعته من أجلك طوال حياتي في الحديقة، ولكن تذكّر أن تعرف قيمته وألّا تبدّده. عندما سمع الفتى هذا الكلام لم تسعه الدنيا من شدة الفرح، وفي نهاية المطاف انقضت مدة السجن، وقفل الفتى عائداً إلى قريته، وبدأ بحفر الحديقة باحثاً عن الكنز، بيد أنه كلما حفر أكثر لم يظفر سوى بالقليل، حتى أقدم في النهاية على حفر الحديقة برمتها، لكنه لم يظفر بالكنز بتاتاً. وفي هذه الأثناء كانت أمه تقوم بنثر البذور في الأرض المحفورة خلفه، وسرعان ما أغدقت الحديقة وأينعت ونبت الزرع فيها، وبعد انقضاء مدة حصدا الغلال وباعاها وكسبا ثروة جيّدة، وتذكّر الفتى نصيحة والده أنْ يعرف قيمة هذه الثروة وهذا الكنز متمثّلين في هذه الأرض وفي عافيتهم. لكن عندما قصّ أبي هذه الحكاية علينا لم نلقِ إليها بالاً، فودّعنا العائلة ومضينا في طريقنا، وسرنا ومشينا حتى بلغنا هذا النهر وفقاً لما حوته الخريطة، فعبرنا النهر حتى وصلنا إلى رابية كانت ثمة شجرة باسقة كبيرة تقبع فوقها، وفي الجهة الشمالية كانت ثمة صورة سمكة محفورة على جذع الشجرة، وعندما كنا نقف في جهتها كانت تظهر شجرة

أخرى فوق رابية أخرى، فعرفنا أن العلامة التالية موجودة على تلك الشجرة، ولهذا مضينا في طريقنا حتى بلغنا تلك الشجرة التي كان قد حُفر عليها علامة سلحفاة، وتحرّكنا باتجاه رأس تلك السلحفاة حتى بلغنا جلموداً صخرياً، ولمّا نظرنا من قمته ظهر من بعيد شلّال. كان يتعيّن علينا الذهاب هناك، ولهذا السبب لم ننفض غبار التعب عنا وتابعنا مسيرنا حتى انتهينا إلى الشلّال وعبرنا الماء، فوصلنا إلى مغارة تقبع خلف الشلّال كانت تبرق وسط قلب الظلمة كالنهار المنير لوفرة الذهب والمجوهرات التي كانت فيها، فعمدنا مبتهجين صاخبين إلى ملء أَخراجنا وثيابنا وأكياسنا بالذهب والمجوهرات، بيد أننا لم نكد نخرج من المغارة حتى دخلت حمامتان وحطّتا على جلمود صخري بجانبي، وشرعتا بتبادل أطراف الحديث، فقالت إحداهما للأخرى: إن هذين الشقيقين مسكينان، فهما غافلان عن أن شقيقهما يبغي قتلهما. فردّت الحمامة الثانية: نعم يا أختي، صحيح ما تقولينه، يا لهذين الشقيقين المسكينين، لكن الحق هذا ما جنياه على نفسيهما. فردّت شقيقة تلك الحمامة قائلة: حقاً ما تقولين يا أختاه العزيزة، دعينا نذهب وندع البشر لحالهم. فسمعت كلامهما لكوني كنتُ قريباً منهما فاعتراني العجب، لذلك قلتُ لشقيقي إن حمامتين أتتا وحطّتا على صخرة وقالتا إنه من المقرر أن يقدم أحدنا على قتل الاثنين الآخرين. ومباشرة أردفتُ بسذاجة: أنا لا أنوي قتل أيٍّ منكما لأنكما شقيقاي وبضعة مني، كما أن المجوهرات والكنوز وفيرة بقدرٍ يمكن أن تجعل من شعب بلادٍ ما ينعمون بالرغد والرخاء، فكيف بنا نحن الثلاثة. بيد أن الشقيق الأصغر أعقب قائلاً: أيمكن لحمامتين أن تتكلّما؟ لقد ابتدعت هذه الحكاية من تلقاء نفسك بالتأكيد، حتى تهيئ عقولنا، فأنت تعتزم قتلنا. لكن لمّا هممت أن أدافع عن نفسي، ألفيتُ شقيقي الثاني قد

انقض عليّ، وقال لعلّك تنوي قتلنا هنا، لكن إذا رُمتَ فعل ذلك، فقد أحضرت معي هذا الخنجر المسموم حتى أدافع عن نفسي ضدكما أنتما الاثنين. وقبل أن يفرغ من إتمام كلامه، أقدم على تهديد كلينا بالخنجر، فصرختُ قائلاً: هل جننتما؟ لقد أخبرتكما بما سمعته. في الحقيقة صدقاً ما تقوله، لقد كذبت في هذا الأمر، فلم تكن ثمة أي حمامة، لقد أردتُ اختباركما فحسب؛ لكنِ للأسف أرى أنكما قد فشلتما في الاختبار. وما إن أنهيت كلامي، حتى شرع شقيقي الأصغر بالمزاح والضحك وقال إنه كان يمزح هو الآخر وأراد مفاكهتي والهزل معي، وأعاد شقيقي الثاني الذي رأى ما حدث، الخنجر إلى غمده وقال: لقد ذكّرني كلامك بحكاية كنتُ قد سمعتها منذ سنوات عدّة، والحكاية تقول إنه ذات يوم مضى ثلاثة أشقاء إلى جبل للبحث عن كنز، فعثروا عليه في أعماق مغارة ما، بيد أن الشقيق الأكبر عمد إلى رمي شقيقيه الآخرين في بئر كانت في ذلك المكان، وأخذ الكنز ومضى في طريقه غافلاً عن أن تلك البئر لم تكن بئراً عادية، ففي الحقيقة كانت منزلاً للجن، وعندما استمع الجن إلى حكاية الشقيقين المظلومين، قدّموا لهما يد العون كي ينتقما من شقيقهم الأكبر أشد انتقام. ولهذا الأمر تقمّص أحد الجن هيئة امرأة بارعة الجمال، وقبع على طريق الشقيق الأكبر، وعندما وقعت عينا الشقيق الأكبر عليها، شُغف بها حبّاً، فاصطحبها إلى منزله واقترن بها، بيد أن المرأة أخبرته أن لديها شرطاً واحداً للاقتران به ألا وهو ألّا يدخل حجرتها من الساعة الحادية عشرة ليلاً حتى الخامسة فجراً وأن يتركها لشؤونها، وإذا غفل عن هذا الأمر فسوف يُقتل. وافق الشقيق الأكبر على الشرط، ومنذ ذلك الحين كانت المرأة تأوي إلى حجرة أخرى من الساعة الحادية عشرة ليلاً حتى الخامسة فجراً وتوصد الباب عليها؛ في نهاية المطاف أخفق الرجل في لجم فضوله، وذات ليلة

دلف إلى غرفتها وشاهدها وسط حشد من النساء والرجال من الجن تتجرّع الخمر وتترنّم بالألحان وتتمايل راقصة. لمّا رأى الرجل ذلك، اضطرمت نار غيرته، وعندما همَّ بقتل المرأة والجن بسيفه، تحوّلت المرأة إلى صورتها الحقيقية، ووضعت السيف على عنق الرجل كي تقتله، إلا أن الرجل الذي غشيه الجزع والذعر، شرع بالتوسّل طالباً الرحمة قائلاً: لا تقتليني، أنا مستعدّ لأغدو كلب عتبتك، فلا تقتليني! عندما سمعت المرأة هذا الكلام حوّلته في الساعة إلى كلب، ومنذ ذلك الحين تحوّل الرجل إلى صورة كلب يحرس منزل شقيقيه. عندما قصَّ شقيقي الثاني علينا هذه الحكاية، تبرّمتُ مستاءً وقلت له: أخبِرني الحقيقة، إلى ماذا غمزت من خلال هذه الحكاية، لعلّك تخطط لشيء ما؟ وتشاغلنا بالشجار والمشاحنة، وفي هذه الأثناء ظهر من تحت الذهب والمجوهرات زوجٌ من الأفاعي المجلجلة الضخمة والخطيرة، وهجما علينا، فلمّا شاهد شقيقي الصغير الأفعيين، قفز إلى صخرة كبيرة، وقتل شقيقي الأوسط إحدى تينك الأفعيين بخنجره المسموم، وقتلت أنا الأفعى الثانية التي كانت تتسلّق الصخرة كي تلدغ شقيقي الأصغر بحجر وأنقذت بذلك حياته. ابتهجنا نحن الثلاثة بسبب ما حدث، لأنه دفعنا إلى التقارب أكثر وأن تزداد الثقة في ما بيننا. فشرعنا بملء أكياسنا، وحاولنا ثلاثتنا نسيان الحديث الذي دار بيننا، وعدنا أدراجنا بسرعة مدفوعين بالشوق حتى وصلنا إلى هذا النهر، فغسلنا رؤوسنا ووجوهنا، وملأ شقيقنا الصغير قارورته ماءً، وتابعنا مسيرنا ومضينا ومشينا حتى وصلنا في نهاية المطاف قريباً من المنزل، وفي غضون هذا قال لنا الشقيق الصغير دعونا ننال قسطاً من الراحة، وأخرج من خُرجه قارورته وقدّمها لنا حتى نشرب، فشربنا، وفي تلك اللحظة خرج الزبد من فم شقيقنا الأوسط ومات من ساعته، وسقطتُ أنا على الأرض فاقداً

الوعي، ورأيت شقيقي الصغير بعينين شبه مطبقتين قد حمل أكياس المجوهرات وركلنا بقدمه ومضى باتجاه المنزل، لكن إرادة الله شاءت أن أبقى حياً، إذ وجدني والدي في اليوم التالي في النزع الأخير، فحملني إلى المنزل ودأب على علاجي حتى أبقى على قيد الحياة، رغم أنني بسبب ضعفي وخور قواي عجزت عن النهوض من الفراش، بيد أنني كنت أسمع الأحاديث والأخبار بأن شقيقي الأصغر كان قد أخبر أبي وأمي أن ثلاث أفاعٍ مجلجلة قد هاجمتنا بالقرب من المنزل، وأنني وشقيقي الثاني قُتلنا إثر لدغات تلك الأفاعي، وأنه نجا من الأفعى الثالثة ووصل إلى المنزل، لكن والدي أخبرني لاحقاً أنه لمّا رأى شقيقنا الصغير يغادر المنزل نهائياً مصطحباً أولاده وزوجته جزعاً من المنزل، ارتاب بما حدث وخرج من المنزل باحثاً عن جثامينا، وفي نهاية المطاف عثر على جثمان شقيقي بالقرب من جسمي وهو في النزع الأخير، ونقلنا إلى المنزل. وسمعت بعد ذلك أن أبي حدّث أمي قائلاً: ما هذه الحكاية التي رتّبها الشقيق الأصغر؟! لماذا لم نلحظ طوال هذه السنين أفعى سامة واحدة هنا؟! وفجأة قال إن ثمة ثلاث أفاعٍ سامة هاجمتهم معاً. لمّا خرج والدي من الحجرة، أخبرت والدتي زوجتي أنْ ثمة شيئاً مريباً غير مكتمل، وتشعر في قلبها أن شقيقنا الأصغر قتل شقيقي الثاني ودسّ السم لي أيضاً. لكن زوجة شقيقي الثاني لمّا سمعت هذا الخبر من زوجتي، شرعت بالبكاء وقالت إنها منذ البداية كانت تستاء من شقيقنا الأصغر لأنه غامض وداهية مراوغ، ومنذ ذلك الحين راحت تهجع كل ليلة يلازمها الانتحاب منه والبغض له طالبة أن يردّ له الله سوء أعماله في نهاية المطاف. بيد أن والديّ المسكينين اللذين كان على أيديهما الآن جثمانٌ مسجّى، شرعا بحفر قبر خلف منزلنا ودفنا شقيقي فيه، وزرعا فوق قبره أزهار أذن الفأر، لكن صبيحة اليوم التالي لمّا استيقظا

من النوم شاهدا أن الأزهار احترقت برمتها من الجذور وأصبحت سوداء، فتأهبت أمي المسنّة وزوجة شقيقي ثانيةً وأحضرتا أزهار الربيع الشائعة من الغابة هذه المرة وزرعتاها على قبره، ولكن في اليوم التالي رأتا أن هذه الأزهار قد احترقت من الجذور أيضاً وأضحت سوداء اللون. وفي اليوم الثالث قصدتا الوادي والغابة وأحضرتا أزهار البنفسج البري وزرعتا تلك الزهور على قبره، لكن في اليوم التالي شاهدتا أن الأزهار قد تبرعمت ونمت وغدت كبيرة، لهذا السبب أدركت أمي وزوجة شقيقي أن أخي الثاني يروم الانتقام، لأن أزهار البنفسج البري تشير إلى الانتقام الشديد في عاداتنا وتقاليدنا، فأدركنا جميعاً مدى سخط روح أخي وغضبها، وأن روحه لن تهدأ ولن تستكين حتى تنتقم من شقيقي الأصغر. وفي نهاية المطاف لمّا فرغ أبي وأمي من مراسم الدفن والعزاء، كان جلّ تفكيرهما وذكرهما منصبّاً عليّ، وكانا ينذران النذور كل يوم ويتضرّعان، كما لعنا شقيقي الأصغر الذي كان قد غادرنا نهائياً لعقوقه، لكن يوماً بعد يوم كان وزني ينقص بشدة وبتُّ أصبح أكثر هرماً حتى استحال كل شعري أبيض، وقطعت زوجتي الأمل بشفائي كلياً، لكن أبي وأمي لم يقنطا من شفائي، وواظبا على التضرّع وطلب الشفاء من مقام الوليَّين الشقيقَين كزو، لكن عندما أمسيتُ جلداً على عظم من فرط الضعف والهُزَال، عمدا بجسديهما العليلين والهرمين إلى وضعي على سرير صغير وحملاني إلى بقعة مقام الوليَّين الشقيقين كزو المقدّس الكائن في قمة جبل بعيد، حيث كان في مكان شاهق جداً علّني أبرأ وأتعافى. وكنتُ عليلاً بشدة ويائساً مفتقداً لأي أمنية ورغبة سوى عافيتي حتى أتمكّن من رد الجميل لأبي وأمي ومكافأتهما على تعبهما وحبهما لي، لهذا تضرّعت داعياً متوجّهاً إلى الله ووليّه كزو أن يمنحاني الشفاء حتى أصبح عكازاً لأبي وأمي يتوكّأان عليها، لكن أبي

وبّخني قائلاً: نحن لا نريد أن تبرأ لهذا السبب، بل نريدك أن تبرأ لتعيش مع زوجتك وأطفالك بسعادة وهناء. بيد أن أمي وبّختنا نحن الاثنين وقالت: أنا لا أريد أن تشفى لأجلنا أو لأجل زوجتك، بل أرغب أن تشفى لأجل نفسك. لكن شاءت المصادفات أن يعبر ويحلّق «الهوما» طائر السعادة -الذي إذا طار فوق رأس أحدهم وسمع أمنيته فإنه يحققها له- فوق رؤوسنا في ذلك الحين بالضبط، لمّا قلتُ إنني أرغب أن أبقى على قيد الحياة سالماً معافى حتى أصبح عكاز أبي وأمي، في اللحظة نمتُ وسط توبيخ أبي وأمي ودعائهما، فوضعاني داخل إحدى غرف مقام الوليَّين الشقيقين بمفردي، حتى أحظى بنوم مقدّس وحيداً وأشاهد مصيري فيه، وهذا ما حدث، فلمّا غططت مباشرة في نوم عميق، رأيت حلماً شاهدت نفسي فيه نائماً في مكان يقبع بين مقبرتي الشقيقين الوليَّين كزو على أرضية الشارع، ورأيت حلماً شاهدت نفسي فيه على أرضية الشارع هائماً باكياً في مكان كائن بين مقبرتي الشقيقين الوليَّين كزو، وكنتُ أجهل من أي الوليَّين أطلب الشفاء، حتى ظهر فجأة أمامي رجل نوراني متسربل بعباءة خضراء اللون، وأمسك بيدي وأنهضني عن الأرض وقال: لماذا تبكي كثيراً إلى هذا الحد؟ فأجبته أنا مريض أطلب البراءة والشفاء، لكنه قال: ليس بك شيء؛ ثم وضع بضع حبات السكّر في فمي، وظهر في الوقت ذاته رجل نوراني آخر يرتدي عباءة بيضاء اللون من الجهة الأخرى واقترب مني، ومسح بيده على رأسي ومسّد شعري ثم سقاني جرعة ماء باردة، ووضع في يدي اليمنى خمس حبات سكّر وقال: بدءاً من الغد فلتأكل كل يوم حبة من هذه الحبات، وبعد أن تشفى وتسترد عافيتك فلتكن في خدمة والديك. ثم اختفى كلا الرجلين النورانيِّين في الجهة المعاكسة أيضاً، وصحوت من النوم بغتةً فرأيت نفسي نائماً على أرضية الشارع وسط مقبرتَي الشقيقين

الوليَّين كزو وكنت أنظر حولي باضطراب؛ لكن في ذلك الحين فجأة صحوت من النوم مرة أخرى، ورأيت نفسي داخل إحدى غرف مقام الشقيقين الوليَّين كزو، وكنتُ أمتلك قوةً لم أعهدها في نفسي منذ أشهر عدة. نهضت فوجدت مرآة فنظرت ورأيت نفسي كيف اسودّ شعري ثانية، ولمّا هممت بلمس شعري فرحاً، رأيت كيف سقطت من يدي خمس حبات سكّر على الأرض، فبكيت كثيراً وأُغمي علي. ولمّا عدت إلى رشدي رأيت أبي وأمي باكيَين يجلسان بجانبي، وأدركا من خلال رؤية شعري الأسود أنني قد رأيت في نومي شخصاً مقدّساً وشُفيت. ولمّا رويتُ لهما حكاية حبات السكّر اشتد بكاؤهما، فقمنا وتوضأنا جميعاً وولينا القبلة وبكينا وصلّينا صلاة الشكر، وفجأةً داهمني الشعور بالجوع، لدرجة أنني التهمت الطعام كله الذي كانا قد أحضراه لي، بل كنتُ أطلب الاستزادة منه أيضاً. ولأجل هذا توجّه أبي وأمي فرحين إلى الناس الآخرين الذين كانوا قد قدموا إلى مقام الوليَّين لتقديم النذور والتضرّع وطلبوا الطعام منهم، ورويا لهم ما حدث معي؛ فراحت حشود الناس تحضر الطعام لي، وتعقد بيدي وقدمي وشعري قطع الثياب والخيوط كما اقتلعوا أجزاء من ثيابي طمعاً في شفائهم وقبول نذورهم والاستجابة لتضرّعهم وأخذوها معهم. ولم يتسنّ لي الوقت أصلاً كي أنتبه لما يفعلونه، لأني لم أتذوّق منذ أشهر عدة شيئاً من الطعام، والآن قد شُفيت بقدرة الشقيقين الوليَّين كزو، فقد كان مذاق الطعام طيّباً ورائحته مستساغة في فمي على نحوٍ عجزت عن التفكير بشيء آخر لا سيما أن بعضهم كانوا قد نذروا طبخ حساء «القيمة»، وأنا الذي لم يأكل «القيمة» في حياته، كنتُ أنفس عطر القرفة والزعفران مع الحمص ولحم الضأن المطبوخ، مرات عدة من فمي إلى أنفي حتى أتذكّر جيّداً طعم الحياة، ولا أنسى أبداً كيف عمدت إلى إراقة

المرق على قطع الأرز المقرمش المضمّخ بالكركم، وبينما كنت قد أغمضت عيني، رحت أهشّمها بين أسناني، وسمحت أن ينتشر صوت قرمشتها وسط الحجرة حتى أتلذّذ بها جيداً. وعندما فتحت عيني ونظرت إلى جميع الأشخاص الجالسين على ركبهم واحداً تلو الآخر، وتبدو عيونهم مذعورة، انفجرت ضاحكاً فجأة بصوتٍ عالٍ، فنظر الجميع بعضهم إلى البعض الآخر في شكّ وريبة، ولكنني واصلت الضحك لدرجة أن صوت ضحكاتي عَبَرَ التلال والغابات حتى وصل إلى قرية أخي الصغير ومنزله الذي كان يقطن فيه، وعندما سمع ضحكتي نطق الشهادتين من شدة الخوف، لأنه عرف أنني على قيد الحياة وقد عدتُ من الموت. ولكن صوت ضحكتي اجتاز التلال والغابات مرة أخرى وصعد إلى مقام الولي كزو، ودخل الغرفة ووصل إليّ؛ ولكنني ما إن سمعت صوت ضحكاتي حتى بدأت فجأة بالبكاء بشدّة، ورحت أنوح بصوتٍ عالٍ، وراح باقي الناس يبكون بسبب بكائي، وتذكّروا مصائبهم أيضاً. أصبحت دموعنا كثيرة لدرجة أنها بلّلت أرضية الغرفة، وتكوّن في الغرفة جدولٌ رفيع من الدموع وخرج وهبط من الإيوان، وتدفّق إلى الفناء أسفل جذع شجرة توت عاقر معمّرة، يقول الناس إنها غُرست قبل مئات السنين من قبل الشقيقين الوليَّين. وفجأة في منتصف الصيف بدأت الشجرة العاقر تتبرعم وتزهر، وبعد ساعة تساقطت أزهارها فأثمرت توتاً أبيض حلواً لم نذق مثله طيلة عمرنا كلّه؛ ومنذ ذلك الحين أطلق الناس على هذه الشجرة اسم الشجرة منهية الهموم، وباتوا في كل عام يربطون عليها قطع القماش والمناديل، ويتوسّلون وينذرون؛ وباختصار شُفيت، وذهبنا إلى المنزل من الجبل مع أمي وأبي. ولكن دون أن نعلم أن الخبر قد انتقل من فم إلى آخر من الرعاة إلى صيّادي الأسماك، ومن الصيّادين إلى جامعي الحطب، ومن

جامعي الحطب إلى أهل القرى القريبة والبعيدة، يفيد بأنني قد شُفيت عن طريق شقيقَي كزو ابني الإمام؛ لهذا السبب كان الناس يعترضون طريقنا في جماعات كثيرة ويرتكبون الوحشية ببراءة تامة. إذ إنهم بمجرّد أن يروني كانوا يصرخون ويهاجمونني، ويمزّقون ملابسي إلى خرق صغيرة باعتبارها نذراً ومراد حاجاتهم كي يأخذوها إلى منازلهم من أجل شفاء أطفالهم وأقاربهم المرضى؛ وأخيراً بعد أن أخذوا كل ملابسي الممزّقة إلى قطع في أيديهم، ذرفوا الدموع وأرسلوا الصلوات على النبي، وابتعدوا لينشروا الخبر من فم إلى آخر حتى وصل إلى أخي أيضاً. وعندما سمع أخي بنفسه أنني شفيت، وتأكّد تماماً من أنني ما زلت على قيد الحياة، أخبر زوجته أنها يجب أن تأتي وتقدّم اعتذارها لي، وإلا فقد أرغب في قتلها. إلا أن زوجته أخبرته أن هذا العمل غير مجدٍ، فحتى لو أنها اعتذرت لي، فسوف أقتلها، ولهذا السبب اعتبرا أن الحل الوحيد وطريق الخلاص لهما هو الهروب، ومنذ ذلك الحين حتى الوقت الذي قُتلت فيه، تشرّدا من هذه المدينة إلى تلك ومن هذه القرية إلى تلك، إذ انتابهما الوهم والقلق بأنني سأذهب إليهما في الوقت المناسب وأقتلهما؛ في حين أنني لم أكن أفكّر فيهما البتة منذ أن منحني الله حياة جديدة، وكانت أمنيتي الوحيدة هي خدمة والديّ المسنين اللذين لم يفقدا أملهما بي قطّ. لم أكن أهتمّ كثيراً بزوجتي وأولادي، الذين كانوا لطيفين جداً معي، حتى جاء يومٌ من أيام الله الاعتيادية ومات أبي، ثم بعد أيام قليلة رحلت أمي. وبينما لم أعد أتذكّر أخي أصلاً، ولم أكن أفكّر في الموت، فقد كنت لا أزال حزيناً على فقدي لأبي وأمي الحنونين، أتيت ذات يوم إلى هذا النهر للصيد لأنسى حزني عليهما قليلاً، لكنني لم أدرك أن أخي الذي لم يكن يُخرجني من ذهنه كان يتربّص بي قريباً من منزلنا، وفي النهاية هاجمني بفأس من الخلف وقتلني

وألقى بجسدي في هذا النهر، وتماماً في هذا المكان نفسه في الماء، ودفن الفأس التي قتلني بها في الزاوية ذاتها. وهكذا مُتّ في النهاية وانتهت حياتي، إلا أن روح أخي الثاني، الذي أتيحت له للتوّ فرصة للانتقام، شرعَتْ في العمل، فقد كانت في كل ليلة تُخرج الفأس من تحت الأرض وتضعها تحت وسادة أخي الصغير، فيجد الفأس تحت رأسه كل صباح، ويطوي المسار كلّه مذعوراً، ويكاد أن تخرج روحه لمدة نصف يوم، فيعود إلى هنا ويدفن الفأس في مكانها السابق، ويعود مجدداً إلى القرية، على أمل ألّا تتحرّك الفأس من مكانها مجدّداً، ولكنّه في صباح اليوم التالي يجد الفأس تحت وسادته مرة أخرى، وهذا هو الشيء الوحيد الذي كانت تفعله روح أخي الثاني كل ليلة؛ كانت تستمتع للغاية بتعذيب أخي الصغير.

انتهى الرجل أخيراً من سرده الطويل، وأخذ نفَساً عميقاً، ثم رفع عينيه عن النار. لم ينبس أحدٌ بأيّ شيء؛ إذ راح الجميع يحدّق إلى النار في صمت. وفي النهاية قلت: «يا لها من حكاية!».

فقال رجل آخر: «لم أستطع التفكير ولو للحظة واحدة حتى، إلا في ما قلته». احمرّ الرجل الذي كان في منتصف العمر من الخجل وسأل: «معذرة، وهل يروي الناس القصة بهذا الأسلوب أيضاً؟!»، فأجاب الرجل الهرم: «نعم، هكذا يروي الناس القصص».

نظرت في عيون الأرواح حول النار وإلى بيتا، وانتبهت فجأة إلى أننا أموات الجانب الحزين من الحياة، وأولئك الأحياء هم الجانب السعيد من الموت. ومع ذلك، لم تكن بيتا سعيدة، وهذا هو الجانب المحزن من الحياة، فهي لم تكن تعلم أنها يجب أن تكون سعيدة في أثناء حياتها، لأنه لا يوجد شيء آخر يمكنها فعله. أردت أن أخبرها بهذا، لكنني خشيت أن أجعل روحها المصابة أكثر حزناً. لحسن الحظ، تحدّثت هي أخيراً وقالت:

«يبدو أنني الأسعد بينكم لأنه لم يقتلني أحد بعد، ولكنني لا أشعر بالسعادة على الإطلاق». ثم حدّقت إلى عيوننا نحن الموتى الذين نُعدّ أول من التقى بها في عالم الأحياء خارج رازان. أجاب رجل كهل من بين الحشد: «هذا لأنك ما زلت لا تعرفين كم أنت جميلة وشابة وبصحةٍ جيدة». ابتسمت بيتا، واحمرّت وجنتاها في ضوء النار بفعل حماس صامت، ورأينا جميعاً نحن الأموات كيف تليق بها الابتسامة، ولكن سرعان ما تلاشت ابتسامتها بسبب ذكرى ما، قالت: «لكن الرجل الذي أحبني أدار لي ظهره ببساطة، وتزوّج فتاة صغيرة». فقال الرجل الذي كان في منتصف العمر: «هذا أفضل! لأن هذا يعني أنك محبوبة بدرجة كافية، ولكنه لم يكن ذكياً بما يكفي لمعرفة ذلك».

ابتسمت بيتا كامرأة مرتبكة لا تزال تجهل ما الذي كانت سعيدة به وما الذي ارتبكت بشأنه. وأخيراً قالت: «برأيك ماذا يجب أن أفعل؟ لقد ذهبت والدتي، التي أنا مستاءة منها الآن كثيراً». وأشارت إليّ وأكملت: «وقد قُتلت أختي الصغيرة وشقيقي الأكبر؛ وتركتُ والدي الكهل وحيداً كي أذهب إلى طهران، ولكنني لا أعرف حتى ما أريد فعله هناك». قال رجلٌ كهل: «اذهبي وكوني قوية وكلّما شعرت باليأس، تذكّري أننا أرواح أبدية ولكننا غير سعداء، في حين أنك إنسان سعيد ولكنك فانية».

انتعشت بيتا قليلاً وشعرت بالارتياح لسماع ذلك؛ بينما كنت أفكّر كم كنا وحيدين، إذ لم يكن في السنوات السابقة أحد حولنا ليرانا نمضي حياتنا بما يتجاوز بؤس عائلتنا، ويمدحنا ويشجعنا لمواصلة العيش. وهكذا بعد مكث طويل، التفتت بيتا إليّ، فقد كنت أجلس أمامها، على الجانب الآخر من النار، وبجرأة أخلاقية لم أعرفها قط، قالت: «سامحيني لأنني لم أكن أختاً جيّدة بما يكفي لك، ولكنك كنت أختاً جيّدة لي أكثر مما تستطيعين.

لقد كنت جيّدة لدرجة أنك ما زلت تعيشين معنا وتعتنين بنا! وكل ذلك من أجلنا نحن. لو لم تكوني معنا في سنوات الثلج الأسود، فمن كان سيحضر لنا الخشب والطعام؟ لو لم تذهبي إلى سهراب في السجن ولم تواسِه، فمن غيرك كان بإمكانه فعل ذلك؟ والأهم من كل ذلك، لولا قدومك إلينا مرة أخرى بعد رحيلك، كيف كنا سنتحمّل حزن موتك؟»، توقّفت ثم أردفت بخجل: «ولكن تعالي، وانتبهي لحدود الحياة والموت بيني وبينك».

هكذا يبدأ الكتاب المقدّس: في البدء لم يكن ثمة شيء. كانت الكلمة. والكلمة ثقيلة بما يكفي لتحمل عبء الخلق والوجود. تماماً مثل الآن، جعلتني كلمات بيتا الثقيلة أدرك اتساعي المحدود. وتابعت كلامها: «كلامكم الليلة، أيتها الأرواح، أظهر لي أنني لست قوية بما يكفي. فمن أجل العيش بين الأحياء، يجب على المرء أن يكون قوياً جداً». ثم التفتت إليّ مرة أخرى وقالت: «لهذا أريدك ألّا تأتي إليّ حتى اليوم الذي أعود فيه إلى رازان مرة أخرى. اسمحي لي أن أفهم حرفياً وحدة الإنسان الحيّ وأمضي قدماً. لو نجوت بين زحمة البشر، سترينني مرة أخرى في الخفاء، وإذا مُتُّ، فسوف آتي إليك مرة أخرى لأخبرك كم أن وجودك بعد الموت والحياة غنيمة».

وهكذا، عندما قبّلت خدّ بيتا لتوديعها، كنت قلقة من أن يكون هذا هو اللقاء الأخير بيننا، في حين أنني لم أكن أعلم قطّ أنه من المفترض أن تكون هي الوحيدة من بيننا نحن الأشقاء الثلاثة التي ستبقى على قيد الحياة، وإن كان في أعماق بحر قزوين.

# الفصل الثالث عشر

وعلى هذا النحو رجعت إلى أبي والوحدة، أما بيتا فعادت إلى المدينة واكتظاظ الناس. ذهبَتْ بوجه فتاة بريئة كادحة، وعادت بعد سنوات بوجه امرأة عصامية، ومع بضع خصلات بيضاء وتجاعيد تحيط بعينيها، وشفتين اعتادتا الصمت وقدمَين مشَتا طرقاً طويلة. شرحت فحوى ما حصل معها خلال السنوات الماضية على نحوٍ جعلنا لا نسمح لأنفسنا أن نسألها أكثر. وبدا وكأنها قد اعتادت الصمت على نحو غامض؛ وكانت محقّة في ذلك أيضاً. إذ عندما حكت كيف انضمّت إلى أول مجموعة طلبة معارضة، بمجرّد التحاقها بالجامعة في قسم تاريخ الفن، واعتُقلت في احتجاجات طلابية ومُنعت من الدراسة ثم زُجّ بها في السجن، أدركنا أن الحياة ما زالت تخبّئ وجوهاً أكثر عنفاً لأفراد أسرتنا. في أقلّ من ساعة أفضت بحديثها كاملاً وختمت كلامها بخبرين، ثم ذهبت إلى المطبخ لتصبّ الشاي لنفسها ولنا، الخبر الأول: عمي خسرو -الذي أملتُ فيه منذ سنوات المجيء إلى رازان، وكان قد اعتُقل منذ مدة بسبب معتقداته الصوفية- خرج من السجن مؤخراً إلا أنه هاجر من إيران إلى الهند مباشرة وللأبد، دون تمكّنه من توديعنا. ذهب ليقضي بقية عمره في واحد من آلاف معابد

الهند الغريبة، ليرى صبغة الله في اتحاد سبعة وسبعين من أديانه عديمة اللون. والخبر الثاني هو أن عمدة طهران ما زال يهدّد ويغري في محاولة من أجل الاستيلاء على منزل أسلافنا، إلا أن جدّي ووالد جدّي قالا إنهما عازمان على الموت في المنزل ذاته الذي وُلدا فيه.

طيلة المدة التي كانت تنقل فيها بيتا موجز أخبار السجن والاعتقال والنفي الطوعي لعمّي وتهديد البلدية، لم أُشِح بعيني عن عينيها المعذّبتين وهي تحاول إظهار اعتيادية جميع هذه الأخبار السيئة؛ فكم نضجت هذه البريئة! ربما لو شاءت لتمكّنت من الحديث دون انقطاع مثل روح ذلك الرجل الكهل، ورواية كل شيء بالتفاصيل؛ إلا أنها سبق أن اختارت شيئاً آخر. كانت ترغب في أن تكون صامدة، بينما الإيجاز يبدو وكأنه ردّ فعل على الآلام؛ وربما لهذا السبب جنحت إلى الصمت على هذا النحو. لم تعد تودّ إطالة الآلام أكثر مما هي عليه، لتؤثّر علينا؛ أرادت أن تكون في الوقت الراهن بقدر الإمكان؛ أجل، لقد تغيّرت بيتا. إذ كانت الشخص الذي تجاوز الانتحار وجالس الأحياء وعاشرهم.

وهكذا حدث أن بدأت بيتا في تصفّح مجلّات قديمة خاصة بوالدي، وذلك بعد بضعة أسابيع من الاستراحة والتجوّل في البستان، وبين الدوائر المحترقة وذكريات لم ترغب في أن تشاركها معنا. في منزلنا، تُعتبر الكتب هي أول الملاذات وآخرها؛ وعلى عكس توقّعي، لم تبحث عن الكتب السياسية أو علم الاجتماع، وإنما ذهبت خطوة إلى اليمين بحثاً عن قصص الحب. حينئذٍ أدركت أن الوجه البارد عديم المشاعر للبشر لا علاقة له بمكنوناتهم. وبعد ذلك وفي قمة اندهاشي، بدأت بقراءة كتب الأطفال؛ ورويداً رويداً انتابها ميلٌ شديد إلى قصص الجان والحوريات. فقرأت جميع قصص هانس كريستيان أندرسن، والأخوين غريم، ومهدي صبحي،

وصادق هدايت، وصمد بهرنجي. وفي النهاية بحثت عن ألف ليلة وليلة، والشاهنامه، وداراب نامه، وسمك عيار، والأمير أرسلان الشهير، وحسين كُرد شبستري. استغرقت قراءة هذه الكتب الطويلة، عدة أشهر، وأخيراً بدأت في تجميع مجموعة من صور ورسوم حوريات الهواء، وحوريات البحر، وحوريات الأرض، والملائكة، والمردة الأسطوريين، والجان، وفي النهاية حصلت ذات يومٍ على دفتر من خمسمئة ورقة، وشرعت في كتابة موسوعة كائنات إيران الخرافية، موسوعة لم تكن هي نفسها تعلم من أين جاءتها فكرة كتابتها. وكلّما مضى الوقت، باتت موسوعتها أكبر فأكبر. احتوت موسوعتها على السيمرغ، والرُّخّ، والعنقاء، والشمروش، والهوما، والفينيق، والبقرة الأولى وحتى آل، وآشوزشت، والفتخاء، والجاثوم، وملك الجان، ومَردآزما، ودوال پا(*). وتناولت في فصول شاملة أوصاف

(*) **السيمرغ**: طائر خيالي عملاق يسكن على شجرة الحياة التي تحتوي على بذور جميع نباتات الأرض. يعرف السيمرغ سر الوجود.
**الشمروش**: طائر عملاق في الأساطير الإيرانية يقضي على أعداء إيران.
**الهوما**: طائر أسطوري في الأساطير الفارسية، وهو لا يحط أبداً على الأرض، ويعيش حياته بأكملها يطير بخفاء على ارتفاع عالٍ. وإذا سقط ظلّه على أي شخص سيحقق له السعادة والكمال، ولذا يُعرف بطائر السعادة.
**البقرة الأولى**: وفقاً للأساطير الفارسية فإن البقرة الأولى مقدّسة قتلها ميثرا ليخصّب الأرض بجريان دمها.
**آل**: في الاعتقاد الشعبي هي جنية شريرة تزور النساء في الليلة السادسة من إنجابهن وتقتلهن.
**آشوزشت**: اسم بومة إيرانية أسطورية، خلقتها الآلهة لمعارضة أهريمان إله الشر.
**الفتخاء**: مخلوق أسطوري برأس أسد وجسم طائر وآذان حصان. كان واجبه حراسة كنز الآلهة.
**مردآزما**: في التراث الشعبي لمنطقة خراسان، مردآزما (ممتحن الرجل) هو جان ذو وجه مخيف، يقطع طريق المارة ليلاً، ويصبح صديقاً لمن لا يشعر بالخوف منه.
**دوال پا**: راجع الحاشية الموجودة في الصفحة 168. (م).

أنواع المردة في إيران القديمة، مثل أكتش وهو مارد الإنكار، وأبوش مارد الجفاف، وبوشاسب مارد النوم الثقيل. وكلّما تصفّحت وقرأت أغلب الكتب القديمة مثل داراب نامه للطرسوسي، وألف ليلة وليلة، ونوروز نامه للخيام، وحسين كرد شبستري، والشاهنامه، وإسكندر نامه، والقصاص والمذكّرين، والملك جمشيد، وجامع العلوم، وعجائب نامه، وعجائب الغرائب، تعمّقت أكثر في عظمة المعتقدات الخيالية-الواقعية للشعب الإيراني وتوسُّعها، وراحت تنفصل بجدّية عن الدنيا الواقعية للحياة اليومية. وفي محاولة لإنكار ماضيها ونسيانه، غرقت في معاني الأساطير، وقرأت وكتبت وظلّت تكتب حتى رأت ذات ليلة جسدها العاري في مرآة الحمّام. نظرت إلى نفسها في المرآة لدقائق طويلة، وأدركت فجأةً مدى المسعى العبثيّ الذي قد اختارته طوال هذه المدة؛ إذ تخلّى جسدها عن إنكار الحاجة إلى الغرام والحياة والاعتياد عليهما، وبدأ في الذبول. ومهما فكّرت لم تستطع أن تتذكّر متى ظهرت بضعة خطوط كبيرة من التجاعيد تحت عينيها، كما ظهرت على صدغيها مئة وسبع وثلاثون خصلة شعر بيضاء، وترهّلَ جلد ذراعيها قليلاً. ومهما فكّرت لم تتذكّر متى تسوّست إحدى أضراسها الطواحن، وتأخرت دورتها الشهرية. عندما خرجت من الحمّام، ذهبت مباشرة إلى الإيوان، المكان الذي كانت تعلم أنها ستجد أبانا فيه. أمسكت بيده بلطف، ووضعتها على خدّها قائلة: «أعتقد أنه شيئاً فشيئاً قد حان دوري». وبينما كان والدي يجلس وينظر إلى الدوائر التي ما زالت محترقة في البستان، نظر إليها بعينين مشوّشتين، وعلى عكس ما توقّعته بيتا، وبعد مدة طويلة، استقرّت ابتسامة فاترة على شفتيه.

وهكذا حدث أن توقّفت بيتا فجأة عن القراءة والكتابة نهائياً، وراحت تنتظر بحماس؛ إذ كانت تنتظر شيئاً لم تكن تعلم ما هو إلا أنها لم تتردّد في

أنه سيحلّ عما قريب ويُدخلُها في فصل جديد وجنوني: فصل بلا عودة. وراحت تتذكّر عبارة لتشارلز بوكوفسكي قال فيها: «ابحث واعرف ما الذي تعشقه، ودعه يقتلك!». توقّفت عن القراءة والكتابة في سبيل البدء. وربما يمكن القول إنها كفّت عن كونها قوية، وفي النهاية خرجت عن صمتها. لقد جعلتها سنوات الحياة في طهران خشنة على نحو كافٍ. ربما كانت قد اكتفت، لذلك كفّت عن السيطرة على نفسها، وأفكارها، والمنزل، والبستان، وأبي. وفي النهاية حرّرت نفسها مما كانت قد غرقت فيه، ألا وهو الخيالات.

وراحت تنام على السرير وتتخيّل تفاصيل فصل حياتها الجديد. فكّرت مع نفسها في خجل: ربما يظهر عيسى فجأة بعد مرور كل هذه السنوات، ونذهب معاً للأبد إلى مكان بعيد لا يصله أحد. ولكنها سرعان ما وبّخت نفسها: كم هي حمقاء لأنها ما زالت تفكّر فيه بعد كل هذه السنوات! ثم شغلت نفسها بخيالات أحدث، وتصوّرت أنها ربما تنطلق وتسعى خلف أمي. وراحت تتخيّل أن تذهب من مدينة إلى أخرى، وتُظهر صورة أمي للناس حتى يأتي يوم يدُلّها فيه طفلٌ على منزل ما وترى أمي فيه، حيث يكون لديها زوج وأطفال آخرون، ولا تتذكّر بيتا إطلاقاً. وأحياناً كانت تشتاق لنفسها في ظلّ تخيّلاتها، وتبكي وتلعن في سرّها أمي التي رحلت هكذا دون أيّ مقدمات.

ذات مرة عندما كنا نجلس معاً في أطراف الغابة لفترة طويلة، لففنا سيجاراً من الأعشاب الجافة التي كانت قد اكتشفتها مع عيسى، ورحنا ندخّنها، قالت لي: «أصلاً إن فشل الحياة وعدم اكتمالها يجعلان من المرء شخصاً كثير التوهّم والتخيّل؛ حقاً لا أفهم لمَ لمْ يكن الأنبياء والفلاسفة مهتمّين بهذا الأمر. فمن وجهة نظري، إن الخيال يسكن في أعماق الحقيقة،

أو يمكن للمرء على أقل تقدير أن يكون مطمئناً أن الخيال هو تفسير الحياة ومعناها الصريح». ظللت أحدّق إليها ورحت أفكّر في الكلمات التي كانت تتفوّه بها؛ وتوصّلت إلى نتيجة مؤدّاها أنها عادت مجدّداً إلى طور الانسلاخ والتغيير. قالت: «أليست الأحلام جزءاً من واقع حياتنا؟ أو من أمنياتنا؟ أو من سيصدّق أنه في فترة ما لم يكن طائر الهوما الأسطوري -الذي ما إن يقع ظلّه على كل شخص حتى يجعله سعيد الحظ- موجوداً؟ أو ألم يكن هناك السيمرغ الذي ارتبطت به حياة سام، وزال، ورستم؟ فقد كتبت كل تلك الكتب عنهما، ورسموا صورهما، إذاً ماذا يكونان؟»، ثم توقّفت، وتنهّدت بعمق ثم أردفت: «وأيضاً ما المانع مِن أن يكمل الخيالُ الواقعَ ويجعله مثيراً عندما يكون واقع الحياة ناقصاً ومملّاً للغاية؟».

وشيئاً فشيئاً أصبحت أحلامها طويلة ورؤاها كثيرة، وفي محاولة يائسة للحد من تلاشي الأحلام، باتت تكتشف عالماً جديداً في غربة البيت، وعندما كانت تستيقظ من النوم، كانت تتقلّب لساعاتٍ طوال في الفراش أو تجلس وتفكّر في أحلامها، وتربطها بعضها ببعض، وتبحث بين ثنايا كتب ابن سيرين، ويونغ، وفرويد، ومِرسيا إلياد، ومهرداد بهار، وليفي شتراوس، عن تفاسيرها، كي ترسم خريطة موثّقة عن مسيرة حياتها المستقبلية.

ذات ليلة رأت في حلمها أنها قد تحوّلت إلى سمكة، وقالت لي في صباح اليوم التالي: «كان حلمي واقعياً للغاية، لدرجة أنني الآن بتُّ لا أعرف ما إن كنت إنسيّاً قد رأى نفسه سمكة، أم أنني سمكة رأت نفسها إنساناً في المنام». مع ذلك فقد ترقّبت لتعثر على إشارات من الواقع في الأحلام، فقبل ولادة السمكة الأولى، راحت ترى كل تلك الأحلام عن البحر والأسماك، ولكنها لم تحسن تفسيرها على نحو صحيح.

كان عيسى قد قال لها ذات يوم: «سأراك ذات يوم مجدداً في موسم تزاوج اليعاسيب». ولم يردّ على سؤالها متى يكون موسم تزاوج اليعاسيب. مع ذلك تمسّك عيسى بكلامه، والآن بعد مضي كل هذه السنين، وفي إحدى أمسيات فصل الربيع، التقيا مرة أخرى ولآخر مرة، وسط اليعاسيب المخصبة النائمة، وخلافاً لتوقّعات بيتا، لم يحدث هذا اللقاء في أي ركن من الزوايا الظاهرة أو الخفية لذلك البستان، ولم يكونا محاطين بألسنة النار. وقد حدث الأمر على هذا النحو، أنه عندما استيقظت من النوم صباحاً كانت متأكّدة من أنها قد مارست الغرام مع عيسى منذ ليلة أمس حتى الصباح؛ ولكن مهما راحت تفكّر في تفاصيل وجودها لم تتذكّر ما إن كان عيسى قد جاء إلى حلمها أم أنها هي من ذهبت بنفسها إلى حلم عيسى. إلا أن النتيجة كانت واحدة؛ إذ سرعان ما شعرت بعلامات الحمل. ولد الطفل الأول في وسط لغط وتشتّت الرؤى وتفسيرها، والحيرة والذهول، وانتظار الدخول في مرحلة جديدة لم يكن لديها أيّ تصوّر عن كمّها وكيفيتها. الشيء الذي لم تتوقّعه على الإطلاق وهي على أعتاب مرحلة جديدة من الحياة، ذلك أن الطفل ولد خفيةً في منتصف ليلة ما في غرفة النوم، واستقرّ في وعاء زجاجي صغير: كان سمكة ذهبية صغيرة.

وضعت الإناء الزجاجي الصغير على الرفّ بذعر، وقرّرت ألّا تخبر أبي أيّ شيء عن ذلك. وذات صباح، وُلد الطفل الثاني بينما كانت تصرخ مذعورة: «لِمَ فراشي مبتلّ، وممتلئ بالرمال والمحار الصدفي؟!». كانت السمكة لا تزال على قيد الحياة، وما إن دخل أبي الغرفة بسماعه صراخها، حتى أخرج السمكة من أسفل اللحاف المضرّج بالدماء فوراً، وألقاها في الإناء الزجاجي الموضوع سابقاً على الرف. ولكن أصبح لزاماً علينا أن نزيد شيئاً فشيئاً من أوعية الماء الزجاجية، لأنها كانت تلد في صبيحة كلّ

يوم سمكة ذهبية؛ وقد امتلأ البيت بالأوعية الزجاجية الصغيرة والكبيرة على الرفّ، وزوايا الغرف، وفوق سريري وسرير سهراب الخاليين، وحتى في غرفة عمل أبي، حيث كانت تزيد من ثقل وحدة المنزل وغربته. ومثل إيغوانا كسولة وضخمة، كان أبي مضطراً إلى الزحف خارجاً من قبضة الكسل وهالة النسيان عدة مرات في اليوم ليطعم الأسماك المسكينة، فقد كان يفكّر مع نفسه قائلاً إنه يمكنني أن أعتبر هؤلاء أيضاً أحفادي، أحفادي ذوي الحراشف المساكين.

وذات صباح، لو لم تنتبه بيتا إلى نفسها في الوقت المناسب، لكان من المحتمل أن تموت من شدة النزيف؛ فقد كانت هناك محارة كبيرة للغاية بداخلها لؤلؤة صلبة قد علقت في عنق رحمها. ومرة أخرى كانت على وشك أن تغرق في بحر ذاتها. وبعد عدة أشهر عندما استيقظت في منتصف ليلة بسبب صوت تدفّق الماء تحت قدميها، لم تستغرب كثيراً، لكنها قلقت عندما وجدت نفسها قد انطرحت أرضاً في أثناء نزولها من الفراش. أوصلت نفسها إلى الجدار زحفاً، وبصعوبة وصلت يداها إلى زرّ الضوء؛ وعندما أُضيء المصباح، رأت جدّنا الأكبر زكريا الرازي وهو يستند إلى الجدار وقد غاصت قدماه حتى كاحليه في الماء، راح يقول في سعادة غامرة: «لقد وجدت الحل، وبهذه الطريقة تتخلّصين من شرّهم، ومن الصندوق أيضاً». ودون أن يعطي بيتا فرصةً كي تقول شيئاً، اختفى سعيداً وضاحكاً في الجدار الرطب؛ وقد تحوّلت قدما بيتا إلى ذيل سمكة.

على الرغم من غرابته وجماله، كان ذيل السمكة سبباً لذعرها في البداية؛ وراحت طوال اليوم تجلس في زاوية ما وتنظر إلى ذيلها الجميل، وهي تكتشف إمكاناته شيئاً فشيئاً، وكانت تفكّر كيف يمكنها الآن أن

تذهب إلى المطبخ، وتعدّ الطعام، أو تمشي إلى البستان وتصدر الأوامر إلى العمّال.

اضطررتُ أكثر من ذي قبل أن أخرج من عرزالي وأمرّ عليها وأشجعها بأنه أصبح لزاماً عليها أن تتغيّر من أجل تحقيق غاياتها. في بادئ الأمر، فكّر أبي بأن أفضل شيء لبيتا هو أن تظلّ في ذاك المكان، وأن يتكيّف الجميع مع ذاك الوضع كما هو عليه. لهذا فقد اضطر في ذلك اليوم أن يملأ حوض الحمّام الكبير بالماء حتى تتمكّن بيتا من البقاء بداخله لساعات. لكنها أدركت بعد عدة أيام أن ذلك يُعدّ ظلماً كبيراً بحقّها؛ فالجلوس لعدة ساعات داخل حوض الاستحمام، والتحديق إلى الباب والجدران ذات القيشاني الأبيض، لا يمكن أن يتحمّله أحد أو أن يرغب فيه. فعلّقت عدة لوحات على جدار الحمّام كما وضعت عدة مزهريات في زواياه، إلا أن الأمر لم يستغرق وقتاً طويلاً حتى أيقنت أن عملاً كهذا بلا جدوى، لذا قرّرت أن تسدّ باب الحمام بجدار أسمنتي وتزيل السقف. ملأت الحمّام حتى السقف بالماء ليصبح بإمكانها الدخول من السقف والسباحة في أي وقت تشاء. ثم أحضرت أوعية الأسماك الزجاجية واحداً تلو الآخر وأفرغتها في الماء، فعلى الأقل هكذا يمكنها أن تقضي وقتاً ممتعاً مع أطفالها.

مع هذا، لم يكن الأمر يبدو بسيطاً حتى الآن؛ لأنها كلّما احتاجت إلى غمر نفسها في الماء كان أبي مضطراً إلى أن يُجلسها في طست كبير، ويسحبها حتى السقف قدر المستطاع بالحبل والبكرة التي كان قد نصبها في الأعلى، وذلك بعيداً عن أعين الناس الفضولية وعمّال البستان. سُرّت بيتا حين رأت أنها دفعت أباها إلى الحركة، ولكنها كانت تشعر في الوقت ذاته أن كل هذه المساعي مؤقتة، وأن أبي سيعود ثانيةً إلى سكونه وصمته

السابقين. ولكن خلافاً لما كانت تتصوّره، أعطاها أبي الأصداف التي كان قد جمعها لسنوات في غياب سهراب بُغية التنوّع؛ كي تلهو بها إلى جانب الأسماك؛ وجلب أزهار اللوتس من أجلها من المستنقع، حتى تنمو في الماء، وراح يطعمها يومياً من السقف. وأخيراً ناداني ذات يوم حتى نصنع سلّماً وشرفة بجانب سطح الحمّام نجلس عليها معاً. وهذا ما صار فقد تحوّلت أوقات تناول الطعام شيئاً فشيئاً إلى أوقات ممتعة لثلاثتنا؛ إذ كان أبي يعدّ الطعام، وكنا نفرش المائدة إلى جواره في الشرفة الجديدة، مثل الأيام الغابرة حين كنا نذهب للتنزّه برفقة كل أفراد العائلة إلى حدائق دماوند، ودربند، أو طريق جالوس السريع، وفيما نتناول الطعام معاً، نشاهد المنظر المحيط بنا، ونتحدّث عن الأعمال اليومية، وفي بعض الأحيان كنا نسمح لأنفسنا أن نضحك في غياب أمي وسهراب، ونشاهد نمو الأسماك والأعشاب التي أخذت تملأ مواضع الدوائر المحترقة رويداً رويداً. ولكن مع كل هذه المقدمات بدأ مزاج بيتا في التغيّر؛ إذ باتت ترغب في البقاء في الحمّام على مدار الساعة، ولم تعد تستطيع النوم على الفراش، بل صارت تنام في البانيو في أعماق الماء. وبدأ جلدها يتغيّر شيئاً فشيئاً، وغطّت حراشف دقيقة جميلة ذهبية - فضية مكان جلد يديها، وكتفيها، ووجهها بالكامل، وراحت تُلصق نفسها بجدار الحمّام بعيداً عن أعيننا حتى تستطيع أن تتغذى على الطحالب الدقيقة الملتصقة بالجدار.

وبعد ظهر كل يوم كنا نقضي أوقاتاً معاً ونتحدّث، وكانت تقول إنها في ما مضى تركت أبي وحيداً بسهولة، لكي تسعى وراء مصيرها، وهي مستعدّة الآن أن تتحمّل مكانها الضيق كي لا تضطر إلى أن تتركه وحيداً مرة أخرى بصمته وسكونه. ولهذا كانت في النهار تتمدّد في الماء تحت ضوء الشمس، وتنام مساءً تحت ضوء النجوم، وتحلم برؤية البحر؛

وتشعر في نفسها برغبة جامحة في السباحة بحرّيّة. كانت تلاعب الأسماك والأصداف، وتحدّق إلى جمال أزهار اللوتس لساعات طويلة، وتقضي بقية يومها دون حركة حين تُسْلم جسمها للكسل والتراخي، وتظلّ تستشعر هنيهات طوال بين الدقائق، وتتابع حركة السحب من بداية الفلق حتى نهاية الشفق بدقّة وبفراغ بال. قالت لي ذات مرة بسرورٍ شاعريّ غير مسبوق إنها استشعرت نثار زرقة السماء على جسمها، ورأت بعينيها كيف أن موشور الضوء على جوانب السحب جعل غراباً بلون قوس قزح. وفي مرة أخرى وبينما كانت تحدّق إلى قطعة بيضاء من السحاب وسط زرقة السماء قالت: إن أجمل ما في سماء رازان هو أن الطائرات لم تفضّ بكارة سحبها ولم تمزّقها إرباً إرباً بوقاحة بعد.

وبهذا الجنون الذي كان لدينا بقراءة الكتب، كان لا يزال يحدث أننا نشعر بالسعادة لرؤية كتاب لم يلفت انتباهنا حتى الآن، ونطالعه بشغف. كنت أتعقّب كل زوايا المنزل، وأعثر على الكتب المنسيّة، وأحملها إليها، وكانت هي أيضاً تطالعها بشوق وهي تحاول ألّا يبتلّ الكتاب قدر الإمكان. وبعد مدة طلبت مني أن أقرأ لها الكتب، وكان جلياً أن الحروف والكلمات باتت تفقد معانيها بالنسبة لها شيئاً فشيئاً، ولكن مع هذا كانت لا تزال تشعر بالسعادة لأنها تفهم معاني الكلمات ويمكنها التحدّث كما في الماضي.

اكتشفنا في الأيام ذاتها روايتي «الغثيان» و«المسخ»(*)، وقرأناهما معاً، الكتابين اللذين حفزانا لنتحدّث بشأنهما معاً طيلة تلك الأيام، كانت بيتا تضحك وتشعر بالسعادة لأنها على الأقل لم تتحوّل إلى صرصور كبير مثير للاشمئزاز مثل غريغور سامسا(**) البائس. وبفضل هاتين الروايتين، تقرّبت

---

(*) الغثيان لجان بول سارتر، والمسخ (أو التحوّل) لفرانتس كافكا.

(**) الشخصية الرئيسة في رواية المسخ.

كلّ واحدةٍ منّا إلى الأخرى مجدداً، وبما أنها الآن تتحوّل إلى كائن مائي فربما ستجرّب الحرية وتعيشها، فقد كان هذا الأمر غير ممكن بين البشر، وربما صارت الآن تتفهّم وضعي -أنا التي كنت قد تحوّلت إلى روح- على نحو أفضل. وربما كانت لتتفهّم الآن أفضل أننا ما زلنا موجودين ومستمرين بوجودنا بالقوة نفسها، على الرغم من وضوح القوانين المادية كلها.

كشفت لنا «الغثيان» كم كان ذاك العالم، الذي كنا نريد أن نفهمه وندركه مباشرة، يحتوي على وساطات فلسفية، ودينية، وسياسية معقّدة؛ وكشفت «المسخ» لنا نحن الفتاتين المسكينتين أن الإنسان اليوم ليس ذلك الذي كنا قد فهمناه بقراءة الروايات الكلاسيكية فقط. وذات مرة قرأنا رواية «كائن لا تحتمل خفّته»، بحماسة شديدة لدرجة أننا لم ندرك كيف حلَّ علينا الليل، ومرة أخرى جعلَنا كتابُ ستة مشاهد من الحياة الزوجية، نذرف الدموع من فرط ما لدينا من سذاجة وإيمان تجاه نقاء مطارحة الغرام، والحب. انضمّ أبي إلى مجموعة قراءة الكتب خاصتنا واكتشفنا معاً: العاشق، وموديراتو كونتابل، والجميلات النائمات، وراغتايم، وصحراء التتار، وحارس حقل الشوفان، وبقايا النهار، وقد مكثنا نتحدّث عنها معاً لعدّة أيام. وذات يوم عندما لم يكن هناك أي كتاب، وجدنا كتاب «الأفعى في قبضة اليد»(*) الذي نُسِي خلف رفّ الكتب، وبدأنا في القراءة، لم نكن نتوقّع أنه سيكون تحفةً فنية.

---

(*) **كائن لا تحتمل خفّته**: للروائي التشيكي ميلان كونديرا. **ستة مشاهد من الحياة الزوجية**: للمخرج السويدي إنغمار برغمان. **العاشق**، و**موديراتو كونتابل**: روايتان للفرنسية مارغريت دوراس. **الجميلات النائمات**: للروائي الياباني ياسوناري كاواباتا. **راغتايم**: للفرنسي إدغار لورانس دكتورو. **صحراء التتار**: للإيطالي دينو بوتزاتي. **حارس حقل الشوفان**: أشهر رواية للأميركي جيروم ديفيد سالينجر. **بقايا النهار**: للروائي الياباني-البريطاني كازو إيشيجورو. **الأفعى في قبضة اليد**: للفرنسي هيرفيه بازين.

إلا أن الأمور لم تكن دائماً على ما يرام مثل هذه اللحظات، ففي أحد الأيام الممطرة، لم يتمكّن أبي من أن يصل إلى سقف الحمّام، وانزلق في وسط الرياح والعاصفة، على السلالم المبتلّة، فسقط أرضاً وانسكب الطعام كله. انحنت بيتا من السقف لمساعدة أبي لكنها انزلقت هي أيضاً، وسقطت على الأرض بجواره، وتمزّق جلدها الرقيق ونزفت دماً. وبينما كان المطر ينهمر بغزارة على جسديهما ووجهيهما الجريحين، راحت الدماء تمتزج بحساء الباذنجان الذي كان قد أُعِدّ بصعوبة، وراح يتسرّب إلى الأوحال. انفجرت بيتا باكية، واحتضنت أبي، واعتذرت منه؛ لأنها كانت أنانية لدرجة أنها لم تستطع أن تتصدّى لأحلامها. إلا أن أبي اتخذ قراره في ذاك اليوم؛ وعلى الرغم من الشعور المشوب ببقايا السعادة لثلاثتنا، لم يعد هو الآخر قادراً على تحمّل تلاشي حياة بيتا وضياع مستقبلها. لذلك وبعد عدة أيام قال إنه من الأفضل أن تجهّز نفسها لأننا سنذهب إلى البحر قريباً. وعلى الرغم من أن بيتا كانت قد قدّمت عذراً بأن أغنية البحر يمكن أن ترطّبها من تلك المسافة البعيدة، وأنه ليس هناك حاجة للنزول فيه، لكننا جميعاً كنا نعلم أنها كانت تقول هذا من أجلنا فحسب.

كانت المراحل الجديدة من حياة بيتا تحدث على نحو متسارع وغير متوقّع أكثر مما تظن، ومع أنها كانت تشعر بالغضب والانفعال ومتقبّلة لكل هذا التغيير، إلا أنها لم تكن تتخلّى عن ندمها للحظة. وظلّت تفكّر في ماذا سيفعل أبي من دونها؟ وراحت تفكّر في سريرتها أنه ربما يكون من الأفضل لها أن تستمر في عدم الاستسلام لأوهامها وأحلامها، أو أنها لن تذهب إلى طهران من رازان أو لن تعود على الإطلاق. لأنه مهما كان، فعلى الأقل، ستبقى من البشر، ويبقى لديها أمل دائماً في العودة إلى أبي؛ ولكنها الآن تذهب كي لا تعود أبداً. لقد فكّرت أنه ربما يكون من الأفضل

أن تطلب من جدّنا الأكبر إعادتها مجدّداً إلى شكلها السابق؛ ولهذا ظلّت ثلاثة أيام كاملة تناديه بقلبها، ولكن لم يكن هناك أيّ إشارة منه. وفي الليلة الموعودة، ألبسناها معطفاً ووشاحاً وأخفينا ذيلها تحت البطانية ووضعنا بجوارها دلواً من الماء بحيث تتنفّس منه كلما أرادت أن تستنشق هواء منعشاً، وحين وصلنا إلى الشاطئ المظلم الهادئ ودّعناها.

كنّا ثلاثتنا مضطربين وصامتين عند الوداع؛ قبّل أبي وجهها اللزج، ولمواساتها قال: «هل لاحظت أن الحرية جعلتك جميلة؟ أنا أحب جمالك هذا!». ثم أخرج من جيبه عقداً على شكل وردة، كان قد بقي ذكرى من أمي، ووضعه حول عنق بيتا قائلاً: «كنا نتمنى أن نقدّم لك هذا هديةً في يوم زفافك». تململت بيتا قليلاً ثم جلست على الرمال الرطبة ولعبت بالماء؛ كان انعكاسُ ضوء القمر والنجوم قد جعل البحر فضياً. قالت: «إذا وجدتما ذات يوم مكانَ قبرِ سهراب فقبّلا تربته نيابةً عني». ثم ذرفنا نحن الثلاثة الدموع وتبادلنا العناق بقوة، وتقبيل الوجوه. خلعت معطفها ووشاحها وألقت بهما في إحدى الزوايا، ثم دخلت في الماء وغاصت فيه حتى وسط جسمها؛ وعندما غاصت حتى رقبتها في الماء، خلعت كنزتها التي من دون أكمام وألقتها باتجاهي وهي تضحك. لم تكن تعلم كم بات منظرها رائعاً وجميلاً من الشاطئ؛ وفي إحاطة انعكاس النجوم وضوء القمر على الماء، كان شعرها الطويل المتموّج قد غطى صدرها وقد شكّل ذيلها الجميل موجات صغيرة حولها. ومن فرحة الغوص في البحر، أي بحر قزوين، وبهذه الحرية المطلقة، وثبت تحت الماء وخرجت مقهقهة؛ وضحكنا جميعاً مع ضحكتها الجميلة. لوّحت بيدها دلالة على الابتعاد، ولكن قلبها لم يقوَ على ذلك، فعادت إلى الشاطئ وعانقتنا بشدّة، وهمست في أذني قائلة: «إذا جاء عيسى لرؤيتي ذات يوم أخبريه أنني عدت إلى

طهران». تبادلنا النظرات والدموعُ في أعيننا؛ وفكّرت أنه على الرغم من كل الروايات الرومانسية الحديثة التي كنا قد قرأناها، إلا أنها كانت لا تزال تعشق عيسى كلاسيكياً.

ابتعدت بيتا مرة أخرى؛ ملأ صوتُ الأمواج الصمتَ بيننا. أراد أبي أن يستدير ويغادر لكنه لم يستطع، فركض إلى منتصف الماء وعانق بيتا مرة أخرى بشدة، وراح يبكي بصوت عالٍ على كتفيها بحراشفهما. كانت بيتا آخر من تبقّى من أطفاله على قيد الحياة، وهي التي كانت تربطه بالحياة حتى الآن. استنشق شعرها الطويل وقبّله، وفي هذه المرة ابتعد عنها دون أن ينظر إليها؛ وفي الوقت ذاته ابتعدت بيتا محاطة بأمواج بحر قزوين السوداء، وأدخلت رأسها في الماء، فامتزجت دموعها المالحة بماء البحر دون أن تفكّر ماذا حلَّ بقضية صندوق جدنا الأكبر الذي أراد أن يودعه لديها برسم الأمانة.

منذ ذلك الحين فصاعداً، أبي -وأحياناً أنا- كنا نلتقي بها أسبوعياً على الشاطئ ذاته، وذات مرة عندما سألتني عن عيسى، كذبت عليها قائلة إنه جاء مرة واحدة للبحث عنها، فذرفت بيتا الدموع؛ لم أفهم ما إذا كان ذلك بدافع السعادة أو الحنين. وشيئاً فشيئاً جاءت حوريات البحر الأخريات في اللقاءات التالية، وهي تحمل الفوانيس بيدها، فقد كانت إناثها ذوات صدور جميلة وشعر طويل جذّاب، ورجالها ذوي وجوه مصممة ونظرات حنونة. شعر أبي بالسعادة حين رأى بيتا قد كوّنت صداقات جديدة وتمّ قبولها في بيئتها الجديدة. كانت حوريات بحر قزوين يأتين أحياناً إلى الشاطئ ويجلسن بجوارنا ويتحدّثن. وراحت بيتا تتغيّر تدريجياً تحت نظراتنا الثاقبة والفضولية؛ إذ ليس فقط لم تعد تسألنا عن عيسى، بل إنها أصبحت نادراً ما تذكر سهراب وأمها. وفي كل مرة كانت تبدو أكثر سعادة

وأكثر لامبالاة وأكثر مرحاً من ذي قبل، واعتبرنا كل هذا في حساب متعة الحرية في بيئتها الجديدة؛ متعة أن تفعل أخيراً ما تحب، أي السباحة بحرية. ولكن ذات يوم عندما تحدّثت إحدى حوريات البحر مع أبي، أدركنا أن عالم حورية البحر لا يختلف عنا في المظهر وحسب.

عندما سألت إحدى الحوريات أبي، الذي لم يحلق وجهه لفترة طويلة، وباتت لحيته الآن بيضاء مثل شعره: «لماذا أنت حزين دائماً؟!»، وحين لم يجب أبي، تابعت الحورية: «في عالمنا، لا أحد يدخل حياتنا للبقاء إلى الأبد، إذ لا تسمح لنا عقولنا الشبيهة بعقول السمك بالعودة إلى الماضي وتذكّره. عندما تعيش هكذا، فإنك لن تحزن بعد». قالت هذا وألقت بنفسها في الماء بمرح، وابتعدت مع بيتا وحوريات البحر الأخريات. وهكذا حدث أنه كلما زاد اعتماد أبي على رؤية بيتا وتمتّع بكلّ إحساسها بالحرية والمرح، قلَّ عدد اللقاءات بها رويداً رويداً. ليس لأن بيتا وجدت هوايات جديدة، بل لأنها شيئاً فشيئاً باتت تعاني من ضعف في ذاكرتها الشبيهة بذاكرة الأسماك.

إلى أن جاء اليوم الذي أتت فيه بيتا على مقربة من الشاطئ، ولكنها لم تخرج من الماء، وراحت تراقبنا من وراء صخرة بنظرات تخالطها الريبة. كانت تغوص في الماء وتخفي نفسها ثانيةً وراء الصخرة وتراقبنا بنظراتها. فاضطررت إلى إلقاء نفسي في الماء، وعندما وصلتُ إليها سألتها: «ما الذي أصابك؟»، فأجابت متسائلة بقلق: «من أنت؟»، وعندما عرَّفتها بنفسي وأريتها قلادة أمي التي كانت في عنقها، وأخبرتها أنها تذكار من والدتنا، فكّرت قليلاً وفي النهاية ابتسمت وقالت: «كنت أعلم أنه يجب أن آتي إلى هنا لسبب ما، ولكن مهما فكّرت فإنني لا أعلم لماذا، ولم أعرفكما».

وفي المرة التالية ذهبت أنا وأبي إلى الشاطئ، ولم تأتِ بيتا، وعدنا إلى البيت في صمت بعدما جلسنا منتظرين إياها حتى الصباح الباكر. لم تطأ قدما أبي ذلك الشاطئ المهجور لبحر قزوين ثانيةً؛ لأنه أدرك أن بيتا تعيش في صفاء على نهج ملائكي في الوقت الراهن، وهذا هو الشيء نفسه الذي يصبو إليه كل العارفين.

في اليوم التالي سار أبي في البيت كسير القلب، ونظر إلى الأسماك الصغيرة من سقف الحمّام. ومع طلوع الفجر ذهب تحت رذاذ المطر، وبدأ يحفر في زاوية في الأرض. كنت أنظر إليه من فوق الشجرة، وظننت في بادئ الأمر أنّه قد أصيب بجنون جديد، وأنه سيدفن نفسه حيّاً، ولكن ارتاح بالي حينما رأيت الحفرة التي يحفرها تتسع أكثر فأكثر. كان يحفر يومياً، وفي بعض الأحيان يتناول بعض الطعام، ويدخّن الغليون، ولكنه لم يكن يتحدّث معي قطّ؛ إذ لم يكن الأمر يحتاج إلى شرح، فأنا التي لم أكن أكثر من روح حائرة شريدة تحيط به كنت مزعجة أكثر من كوني شخصاً مواسياً. لأنني لم أعد الفرد الوحيد الغائب من العائلة التي كان قوامها في وقت من الأوقات خمسة أشخاص، فقد صار لديه الآن أموات آخرون كان يريد أن يفكّر فيهم أيضاً.

وفي نهاية اليوم الخامس كان أبي قد حفر حوضاً كبيراً بقدرٍ يسمح بسباحة حرة لكل أحفاده، واستغرق ثلاثة أيامٍ أُخَر حتى يسوِّر الحوض بأكمله بالأحجار، ويضيف الأسمنت في ما بينها. وبعد ذلك جمع مفارش بلاستيكية، وغطّى بها سطح حوض السباحة بأكمله؛ ثم وضع الخرطوم في الحوض وملأه. وبعد يومين أمسك بالأسماك واحدة تلو الأخرى بشبكة صيد الفراشات، وأودعها الماء، وعندما أتيت إلى جانبه، وأحصيت

الأسماك كانت تبلغ سبعاً وأربعين سمكة. نثر لها خضراوات وفاكهة مقطّعة ملء بضعة طسوت كبيرة، وودّعها بصوت عالٍ، وأخلى ذهنه من الأسماك إلى الأبد؛ بعد ذلك دفع أجور العمّال، وصرفهم للأبد، وأخيراً جاءني وقال: «لقد حان وقت الذهاب. اذهبي أنت أيضاً؛ اذهبي إلى سهراب! ابتعدي من هنا قدر ما يمكنك. اذهبي، اذهبي للأعلى!». قال هذا وحزم حقيبته، وأقفل أبواب البيت، وجلس في سيارته بويك اسكايلايت الفضية، واختفى في درب البستان الملتوي في طريقه إلى المدينة. ولكن قبل الرحيل أخرج رأسه من النافذة وقال شيئاً آخر: «إن لم تذهبي، فتذكّري أني لا أريدك أن تأتي للقائي. كانت بيتا تقول صدقاً؛ في النهاية يجب أن نتعلّم قواعد العيش وآدابها مع الأحياء».

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

# الفصل الرابع عشر

آه.. وأخيراً قد حان وقته.. ولأول مرة في حياتي صرت أنا نفسي فقط. رحت أجلس في عرزالي، وأفكّر في الأحداث، والأقدار. وباستثناء هذا، كنت أطالع الكتب، وأفكّر في الروايات التي تمنّيتُ أن أكتبها، أو أعزف الألحان التي أحببتها حين كنتُ على قيد الحياة. أفكّر في آمالي الغابرة التي بصعوبة أتذكّرها الآن؛ لي أوقات حلوة بالتأكيد دون ذلك، حين أسبح وأعبث إلى جانب أحفاد أبي، وأتسلق الأشجار، وآكل البرقوق الأخضر، وأزرع شتلات البرقوق، والخوخ، والجوز في مختلف أرجاء البستان، وأدعها حتى تصير أشجاراً تخترق البستان من كل ناحية، وتبعده تحت مظلّاتها عن أنظار الناس. وأقضي وقتي مع الطيور، والعظاءات، واليعاسيب، دون أن أحاول أن أفسّر هذه الكائنات؛ فالتفسير محاولة يائسة من قبل الإنسان لفهم هذا العالم المبهم.

مع رحيل أبي جاءت الأرواح رويداً رويداً للقائي، كانت تأتي لتساعدني على تحمّل الوضع الجديد بصورة أفضل من خلال ثرثرتها عن تاريخ رازان وماضيها؛ ولم تعرف أني أحببت هذا الوضع، وكنت أنتظره، وعندما أوصاني أبي بأن أذهب إلى سهراب، لم أسمح لذرّة من الشكّ أن تدخل

إلى قلبي بألّا أصغي لكلامه. والآن أنتظر بنافد الصبر؛ أريد أن أمكث حتى أجيب عن أسئلتها إذا عادت. أعلم أنها ستعود وتسألني عن بيتا وأبي؛ أعلم أنها ستعود، وستذهب إلى غرفة سهراب مرة أخرى، وتقلّب في صوره، وأوراقه، وكتبه، وتمسك بكتاب «المسافر» لسهراب سپهري مرة أخرى وللمرة الألف حتى تطالعه. وهذا ما حدث؛ إذ بعد سنوات طارت من فوق البوّابة الحديدية للبستان، بمهارة وحنكة غير مسبوقتين، فهي لم تعد تشبه امرأة السنوات المنصرمة تلك، وأتت إلى الإيوان. فقلت في سريرتي: «إن هذه المرأة جديرة بالثناء». وعلى الرغم من أن أثر الشيخوخة كان جليّاً من شعرها الذي كان قد ضرب فيه المشيب من قبل، وكذلك التجاعيد الرقيقة والغليظة في وجهها، ولكنها كسرت قفل باب البيت بثقة تامة، ودخلت حتى ظننت أنها أكثر أفراد العائلة الأحياء شباباً. إنها أمي، روزا.

كانت الأيام تمرّ على وتيرة واحدة. مجالسةً الأرواح، كنت أنظر من فوق شجرتي إلى سكّان رازان، وكنت أظن أننا جميعاً -نحن الموتى- سواءٌ في حسن الحظ، وكلٌّ من هؤلاء الأحياء تعيسٌ ومنحوس على نحوٍ متباين. وما يجعل حياتهم فاتنة ومدهشة للغاية بالنسبة لنا نحن الأموات، ليس تعاساتهم؛ وإنما اختلافهم في نوع التعاسة. وهذا هو الشيء الذي يمكن من خلاله كتابة آلاف الكتب، ويمكن التحدّث عنه لأجيال طويلة، وتكراره ملايين المرات. ومن ذلك الارتفاع كنت أنظر إلى الأيام والليالي، بينما يكرّر الناس أيامهم في حركة لا توشك على الانتهاء. إن أتفه أمر في الدنيا هو العدّ، إن لم أكن أظن هكذا، فربما كنت أحصي عدد مرات طلوع الشمس والقمر وغروبهما، والأيام الماطرة، والمشمسة، والضبابية، وكذلك المواسم، والشهور، وأدوّنها في مفكّرة مذكّراتي، من أجل قضاء

الوقت؛ أو ربما عدد الأطفال الذين وُلدوا في القرية في هذه الآونة، أو جِراء الثعالب، وبنات آوى، والأرانب، والقنافذ التي وُلدت حول كوخي في بضع سنين من الوحدة هذه، فقد تزاوجت هي أيضاً، وأنجبت صغارها، ونفقت. أو ربما كنت بالأساس أقضي أيام وحدتي في العدّ، ولكني كنت أعلم أن «الكُلَّ بَاطِلٌ وقبض الريح» كما جاء في كتاب الجامعة(*). لو كان كلّ واحدٍ من الناس يفرك كفَّيه إحداهما بالأخرى لمرّة واحدة فقط بدلاً من إحصاء الأشياء، والأيام، والساعات، ليدركوا بحاسة اللمس ذلك الاتصال الغامض للجلد بالجلد؛ لكان فهمهم لهذا العالم أفضل؛ أو لو أنهم كانوا يجلسون لمرة واحدة فقط، ويرون تفتّح زهرة، أو ميلاد حمل ما، بكلّ أحاسيس البصر، والسمع، والشم، فربما كانوا قد استنتجوا أن هذه الدقائق التي كانوا منشغلين فيها بذلك هي التي تستحق فقط أن تُعدّ دون أيام حياتهم ولياليها الأخرى. فهمت ذلك في سنوات الوحدة هذه، عندما رأيت نفسي في عصر مديد من الأرق موسوسةً بمشاهدة لحظة تفتّح الأزهار.

في الأصباح الباكرة حين لا يكون قد طلع الفجر بعد، أجلس بجوار برعم زهرة، وأظلّ أنظر إليها حتى أرى مولد قطرة ندى فوقها، وانعكاس شروق الشمس على قطرة الندى، وتبخّرها، وإطلاق التنهيدة القصيرة التي ينشرها البرعم حين التفتّح، في الشعاع الصغير المحيط به في لحظة من غفلة الناس وجلبتهم وصخب الطبيعة. كنت ألمس أوراق الزهرة المتفتّحة حديثاً بأنامل أصابعي، وأشعر بتورّق الزهرة بكلّ حاسة اللمس التي لدي، وأشمّها وأدعها حتى تنتشر حاسة شمّي بأكملها أريج الزهرة بداخلي.

وشيئاً فشيئاً تعلّمت أن أغلق عيني، وأسلّط كلّ حواسي الستّ في حاسة

(*) كتاب سفر الجامعة، وهو أحد أسفار التناخ والعهد القديم.

سمعي، حتى أسمع صوت تنهيدة الأزهار بصورة أفضل. بعد ذلك باتت لديّ المهارة بحيث يمكنني تمييز اختلاف صوت تنهيدة الزهرة الحمراء عن تنهيدة زهرة شجرة التين حين التفتّح؛ فصوت تفتّح الزهرة الحمراء هو شيء يشبه قبلة هادئة من معشوق خجول على شفتي عاشق استقرّ العرق خلف شفتيه من فرط الحب. أما صوت تفتّح برعم زهرة شجرة التين فيشبه قبلةً في الهواء من معشوق في ذكرى عاشقه الذي ليس في متناوله؛ وكأنه يقبّل شفتين ناعمتين بهدوء في ذكرى عاشقه، في الهواء.

من الأشياء الأخرى التي فهمتها في هذه المدة هي أن أجمل الأشياء من لديها الشهرة الأقل بين الناس، بالضبط مثل زهرة كانوميلس اليابانية التي قليلاً ما تُرى في البساتين رغم كل ما فيها من الجمال، والرقّة، والمنحنيات المنمنمة اليابانية. إن قبلات زهرة كانوميلس عند التفتّح هي الأكثر حجباً واستتاراً؛ فهي بالضبط مثل قبلة فتاة يابانية يافعة قد بلغت توّاً وترتدي كيمونو بلون زهرة السفرجل تُقبِّل ساعدها الأبيض الناعم بعيداً عن عيون الآخرين بحلم معشوقة لم تجرّب الوصال بعد، فهي لا تعرف أي شيء يشبه الوصال، والقبلة التي لم تذقها قطّ، قبلة كانوميلس اليابانية هي قبلة فتاة عذراء على بكارتها المصونة.

وهكذا تركت سنوات الوحدة آثارها عليّ، وصمدت أمام رغبتي الملحّة للقاء بيتا، وأبي، وأمي؛ ثم حدّقت إلى البستان ورازان في سكون مشوب بالخدر وباعث على النعاس. رازان مع أسرارها العتيقة؛ القرية التي ما زالت حتى الآن لا يعرف أحدٌ فيها منذ متى تحديداً قد بُنيت، أو على أقل تقدير من يكون أكبر أفرادها عمراً.

على الرغم من أن ذاكرة جيل رازان القديم بدت مرتبطة مع براعم العشب الأخضر، وتُرمى في النهر كل عام، إلى جانب مائدة السينات

السبعة الخاصة بالنوروز(*)، ولكن الجميع كانوا حريصين إلى حد الهوس على تذكّر ذاك الشيء الذي أطلقوا عليه بأنفسهم نار رازان المقدسة، لدرجة أنّ لديهم حتى الآن ذكريات شفّافة وحيّة عنها. خلال تلك الأزمنة، مع أن جميع سكّان القرية كانوا قد أجمعوا القول على أن منزل حميرا خاتون جدّة عيسى وعفّت هو أقدم منازل القرية، إلا أنه لم يكن أيّ أحد يعلم من يكون تحديداً الأكبر سناً من أي شخص آخر. فقد كانت حميرا خاتون تعتبر نفسها الأكبر سناً من بين الجميع؛ في حين أن مختار القرية كان يعتقد أنه أكبر منها وأنه الشخص الأكثر سناً من بين سكّان القرية. كما أن هناك خمسة أشخاص آخرين على الأقل زعموا أن لهم العمر ذاته، وقد اختار الجميع لأنفسهم عمراً يقارب المئة وخمسة وعشرين عاماً. وحتى قبل أن تطأ القريةَ أقدامُ متطوّعي حرس التعليم في فترة حكم الشاه، لم يكن أيّ أحدٍ هناك يعرف حقاً ماذا تعني العملة، والتقويم، والساعة، والهوية، ووثيقة الزواج والمعاملات. لم يكونوا ليعلموا حتى أن هناك مدينة تقع على الجانب البعيد منها، لا يذهب أهلها هنا وهناك بالخيل والبغال، بل يستقلّون معدّات حديدية ذات عجلات، كما أنهم لا يزرعون طعامهم بل يشترونه.

في تلك السنوات كانت رازان لا تزال في غاية النقاء والعذرية، لدرجة أن متطوّعي حرس التعليم بعد أن تاهوا بين الغابات، والتلال، والطرق الترابية النائية بسيارتهم الجيب لمدة ثلاثة أيام بلياليها، اضطروا في النهاية

---

(*) المقصود ببراعم العشب الأخضر تقليدٌ قديم يمارس في وقت النوروز، إذ يجري عقد الأوراق الخضراء التي تزرعها كل عائلة معاً، ويطلقون الرغبات. ومن المعتقد أنه إذا حُلّت العقدة فإن الرغبة ستتحقق.

أما مائدة السينات السبعة (هفت سين) فهي السفرة التقليدية التي تُحضَّر لإحياء عيد النوروز، إذ توضع على هذه المائدة سبعة أشياء تبدأ بحرف السين؛ وهي عادة منتشرة في إيران وأفغانستان ودول آسيا الوسطى. (م).

إلى أن يصطادوا الخيول شبه البرّيّة وغير المهجّنة، وتركوا تلك الخيول تقودهم من المسارات الوعرة إلى رازان. وهكذا حتى عام 1964 عندما وطئت أقدام أول متطوّعي حرس التعليم القريةَ، لم يكن الناس يعرفون ما هي الملعقة والشوكة، وكيف يمكن أن يكون شكل الكهرباء والتلفزيون. كان الناس قد سمعوا من آبائهم وأمهاتهم أن الجدّ الأكبر لقارئ المرايا الأول كان الرجل المتعلّم الوحيد في رازان، فدائماً ما كان يحمل كتاباً بيده، وقد كان يقول إنه تاريخ رازان الذي يكتبه. لذلك كان الناس بعد ولادة أطفالهم، وحسب ما ورثته كل أسرة من كتب من أسلافها، يقدّمون القرآن، والشاهنامه، وديوان حافظ الشيرازي، والأفستا، والمثنوي المعنوي، وألف ليلة وليلة، أو كتاب أمير أرسلان الشهير لقارئ المرايا الأول، حتى يدوّن على الصفحة الأولى تاريخ ميلاد الأطفال.

انقضت سنوات طوال منذ ذاك الحين، ومع قدوم متطوّعي حرس التعليم، ومحو أمية بعض أطفال القرية، وتلقّيهم تدريجياً القدر الكافي من التعليم، صار بإمكانهم قراءة تاريخ ميلاد أجدادهم على الصفحات الأولى للكتب الموروثة، فأدركوا فوراً أن الجد الأكبر لقارئ المرايا الأول، على ما يبدو، لم يكن لديه معرفة تامة بالقراءة، والكتابة، ليس هذا فحسب بل كان يجيد فقط تدوين تاريخ واحد من بين 365 يوماً من تاريخ كل عام. وذات يوم عندما جمع أطفال القرية المتعلّمين جميع الكتب الموروثة لعائلاتهم الأمّيّة ووضعوها بجانب بعضها البعض ليعثروا على تاريخ ميلاد أسلافهم، وأجدادهم، وجدّاتهم، حينئذٍ واجه الجميع تاريخاً واحداً هو 12.12.1212 هجري شمسي(*). ومع ظهور حقيقة أن عدة أجيال من الناس كانوا قد خُدعوا، عمّت الفوضى أرجاء القرية، لدرجة أنهم اعتبروا

---

(*) تاريخ في التقويم الإيراني يقابله 3/ 3/ 1834 م.

قارئ المرايا الأول مسؤولاً عن كلّ المشكلات، وكأنه كان مسؤولاً عن أعمال جدّه الأكبر.

في بادئ الأمر، شرع أبناء القرية، ثم عائلاتهم، وأخيراً متطوّعو حرس التعليم في فرض التكهّنات والتصوّرات حول هذا التاريخ الغامض. راجع المتطوّعون الكتب التاريخية القليلة التي كانوا قد أحضروها معهم، لكنهم لم يعثروا على أي شيء متعلّق بهذا التاريخ. ثم اجتمع شيوخ القرية حتى يستقروا على رأي بخصوص افتراضاتهم وتصوّراتهم، إلا أن الجميع قد أصيب في النهاية بخيبة أملٍ بالغة، فأجدادهم ظلّوا مخدوعين لأكثر من مئة عام، حينما راحوا يوقّرون الجد الأكبر لقارئ المرايا على نحوٍ أكبر مما يستحق، إذ كان الأهالي يعتبرونه ضمنياً بمنزلة ذاكرة القرية المؤرّخة والمدوّنة. بعد هذه الواقعة، تذكّر الأجداد والجدات أن الجد الأكبر لقارئ المرايا الأول كان يؤلّف كتاباً. وبعد كثير من البحث، والتكهّنات، والمزاعم، غير المجدية بخصوص تاريخ (12.12.1212) هجري شمسي، داهموا المنزل الخرب والمهجور للجد الأكبر لقارئ المرايا، وفتّشوا بين ثنايا الأشواك، والأعشاب، والأجمات المتشابكة الزاحفة التي كانت قد عمّت كلّ أرجاء ذلك البيت، فلم يعثروا على أي شيء؛ وعلى الرغم من أن هذه الأحداث كانت قد خيّبت آمال الأهالي، إلا أن تاريخ رازان أصبح منذ ذاك اليوم قضية مهمة بالنسبة لهم جميعاً. وبات الجميع يريدون أن يعرفوا من يكون أجدادهم، وهل تربطهم علاقة بتلك الأرواح الزرادشتية المحيطة بهم؟ ولماذا كانوا قد أتوا إلى هناك، وما الذي كانوا قد فعلوه؟ ولماذا توجد حتى الآن بعض الكتب بين هؤلاء القرويين الذين لم يكن أي شخص من بينهم متعلّماً قطّ؟ لعلّ أجدادهم كانوا من المتعلّمين ويمكنهم القراءة والكتابة؟

قلب السكّان خزائن مساكنهم رأساً على عقب، وفتّشوا العلّيّات الرطبة، وسحبوا منها صناديق خشبية مزخرفة يصل عمرها إلى مئتي عام، لكنهم لم يعثروا على أي شيء سوى قطع قماش أكلها العثّ، ونفثالين منتهي الصلاحية، وعدة هياكل عظمية للسحالي والجرذان. وأعطوا الكتب المتاحة الوحيدة لأطفالهم حديثي العهد بالتعليم حتى يتصفّحوها عساهم يتمكّنون من العثور على أي أثر أو تذكار من تاريخ آبائهم وأسلافهم، إلا أن كل محاولاتهم باءت بالفشل. لهذا أُوصدت أبواب الخزائن مجدداً، وأُغلقت أبواب العلّيّات بعد تنظيفها على النحو الكامل، ونصب مصائد جديدة للفئران، كما وُضعت الصناديق الخشبية في الأقبية حتى تنضمّ مجدداً إلى ذاكرة التاريخ، ومع شروق الشمس نسي الناس إلى الأبد جميع محاولاتهم المستميتة التي استمرت عدة أشهر لمعرفة تاريخ حياة آبائهم وأجدادهم. وشيئاً فشيئاً أقنعوا أنفسهم بهذا السؤال: ما الذي يعنيه التاريخ حقاً؟ مهما كان فما زال معهم الحاضر، وهو أهمّ شيء يمتلكه أي إنسان. وقال أحد السكّان: «أصلاً الماضي هو ملك للموتى». وأضاف آخر: «من الآن فصاعداً نحن سنكتب تاريخنا بأنفسنا». وأردف الثالث قائلاً: «بالمناسبة لو كان هؤلاء أشخاصاً صالحين حقاً، لتركوا لنا أشياء قيّمة تذكاراً من قبلهم». وحدث أن الناس وجدوا أنفسهم بين عشية وضحاها متحررين من قيد كلّ ذاك الغموض والتعقيد والإحساس بالنقص، فاعتراهم النشاط والحماس، وقد بدا الأمر وكأنه اليوم الأول للخلق، وبات بإمكانهم ابتكار أي شيء للمرة الأولى وتجربته. بدا أيضاً وكأنه قد أُطلق سراحهم من وطأة ضغط نصائح أجدادهم، وحكايات جداتهم ذات طابع الوعظ والنصح الممتزج بمجد التاريخ منذ آلاف السنين؛ المجد الذي لم يكن قد تبقّى أيّ شيء منه في رازان.

وهكذا ففي صبيحة يوم باكر، عندما حرّر الناس أنفسهم من لعنة تاريخ الآباء والأجداد بقرار غير معلن، أشرقت الشمس لأجلهم بطريقة لم يسبق لها مثيل؛ إذ كانت ساطعة، واضحة، ومنعشة. رفعت الشمس نفسها من وسط الضباب والغيوم القريبة من الأرض، فتصاعدت أبخرة النباتات وكأنها أرواح معتقلة في الأرض، ورافقت الرياح إلى الأبد، لتنضم إلى السحب. وفجأة أصبح الهواء نقيّاً تماماً مثل اليوم الأول من الخلق عندما كانت الأرض خالية وبلا شكل. وراحت روح الله تتحرّك على كتل الأبخرة حالكة السواد، وتقول: «ليكن النور!». فصار النور، وأحبّ الله النور ففصله عن الظلمات.

وفي فرحٍ خالٍ من تعابير الذكريات والهموم، هربت الثعالب وبنات آوى من أقنان الدجاج وحقول الأرز عبر الضباب الكثيف، ولجأت إلى وجارها تحلم بالدجاج والإوزّ الليلي طوال اليوم. ومثل كل صباح، واصلت اليمامة البحث عن حبيبها الأبدي، وراحت تسأل الكائنات مرّة أخرى بصوت عالٍ: «كو؟ كو؟ كو؟ كو؟»(*)، وتجددت القرية كثيراً لدرجة أن العشّاق، مثل مئات السنين السابقة تماماً، لم يتمكّنوا بفعل الحياء من تبادل رسالة بسيطة في ما بينهم، أو على الأقل تبادل النظر، لفترة طويلة. فقد أصبح العالم جديراً بالثقة مرة أخرى لدرجة أن نظرة واحدة فقط تجذبهم إلى حافة الجنون والحب. كانت نظرةُ ثَمِلٍ ساهرٍ تراها فتاةٌ مرةً واحدة فقط كافية لجعلها تعرف أنها مستعدة للانتظار من أجل تلك النظرة لبقية حياتها وأن تظلّ عاشقة. ومرة أخرى سُهِّلت أمور المهر مثل مئات وآلاف السنين السابقة، ولم تطالب أي فتاة بالمهر والهدايا، ولم يسأل رجل عن مهر العروس وعذريتها. وباكتشافهم أنه لا

---

(*) في الفارسية «كو» هي اختصار «كُجا» وتعني: أين؟ (م).

يوجد أي تاريخ، عاد الناس إلى عصر الحيرة والذهول؛ وأصبحت أزهار أشجار البرقوق الأخضر البرّيّة مشرقة وعطرة مثل صباح باكر لأحد أيام جنة عدن. وأصبحت مياه النهر صافية وممتلئة بالأسماك، وبات الناس مندهشين صباحاً تلو الآخر من ذكر الأحلام وتفسيرها، فقد بدت وكأنها قد غزت القرية وأناسها فجأة.

حلمت امرأة أن امرأةً ما أتت إليها بمشعل مضيء وعرّفت نفسها على أنها جدتها الكبرى، وهي تشير إلى الرابية التي أصبحت بستان عائلتنا بعد سنوات طويلة، وأخبرتها أنها تعيش هناك، وقد جاءت لتغسل ملابسها البيضاء في فناء منزلها، استعداداً لمراسم العزاء. وكلّما سألت المرأة عن أن الحداد لأجل من؟ ولِمَ الفستان الأبيض؟ كانت العجوز الحزينة تجيب: «إن كنت ذكية، فربما تفهمين بنفسك يوماً ما». وفي صباح اليوم التالي، عندما نهضت المرأة لتغسل وجهها بماء البئر كالمعتاد، رأت فستاناً أبيض معلّقاً على حبل الغسيل ويتأرجح في مهبّ الريح. ورأى رجل في المنام أن طاعوناً عمره ثمانية وثمانين عاماً قد حلَّ عليهم وأباد جميع سكّان رازان والسهول البعيدة والغابات. وجعل الأراضي الزراعية سوداء وقاحلة، وأحرق الأشجار. وحلم صبيٌّ يبلغ من العمر خمس سنوات أنهم يحرقون فقط كتب القرية الموروثة في الساحة، بينما يرقص رجل يرتدي عباءة سوداء حول النار ويضحك.

وشيئاً فشيئاً تحوّلت الأحلام، التي كانت في البداية محذّرة ومهدّدة، إلى أحلام سعيدة؛ وأصبحت أحلاماً جميلة. كما لو أنها تتحدّث عن الماضي وتتنبأ بالمستقبل، وفي الوقت ذاته تعوم في الوقت الحاضر وسط الاحتياجات والرغبات. ورويداً رويداً رغب الناس، الذين كانوا في البداية يخافون من رؤية الأحلام، في أن يحلموا بالمزيد حتى يفسّر قارئ المرايا

لهم علامَ تدلّ هذه الأحلام. لكن لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى أصبح تفسير الأحلام بلا معنى، لأن الأحلام نفسها بدت وكأنها كالحياة اليومية، معبّرة وحقيقية. ومع القضاء على التاريخ وتدفّق الأحلام المرغوب فيها، نسي الناس تدريجياً تناول الطعام والعمل، وتحوّلوا إلى نباتات هشّة تتغذى على الأوكسجين. كلما أصبحت أجسادهم أكثر نحافة وضعفاً أصبحت عقولهم أكبر وأكثر نضجاً، لدرجة أن صورهم الذهنية باتت تصطدم بعضها بالبعض الآخر وتختلط معاً. وبعد مدة، كانوا يتقابلون معاً في أحلامهم ويأكلون ويعملون معاً في أحلامهم، ويقعون في الحب ويمارسون الحب في أحلامهم أيضاً.

استمر الأمر على هذا المنوال لأيام وأسابيع طوال، حتى استفاق قارئ المرايا الأول وهو في نومه. وفي منامه نادى جميع الناس وأمرهم بالاستيقاظ والعودة إلى حياتهم اليومية؛ إلا أن الناس الذين لم يكونوا يعصونه في يقظتهم قطّ، حتى في الآونة الأخيرة هذه، التي بات فيها صدقُ جدّه موضعَ شكّ، كانوا يجرّبون حياةً ممتعة وبعيدة كل البعد عن الهموم وتحمّل المسؤولية بحيث لم يعد بإمكانهم الخروج منها. إذ لم يكن أحدٌ يؤذي أحداً في الحلم، ونادراً ما يشعرون بالجوع، بل كانوا يعيشون أمنياتهم في المنام. وإن عشق شخصان فتاة ما، بات لكلٍّ منهما حياة منفصلة مع حبيبته في الحلم، ويعيش حياة ممتعة بعيدة عن إزعاج المنافس. وإن كان أحدهم فقيراً، بات يعيش غنياً في قصر كبير مع ثريات كريستالية وجدران مطعّمة بالمرايا، ويستحمّ ظهيرة كل يوم في نهر من الحليب والعسل؛ وإن لم يكن هناك من ينجب بات في حلمه يقضي حياته سعيداً مع زوجته وأطفاله.

اضطرّ قارئ المرايا الأول، الذي كان يشعر بالانزعاج من وقع الهجوم

المفاجئ لذاك الحلم عليه هو والناس، إلى إيقاظ نفسه أولاً. وعندما تمكّن من أن يوقظ نفسه بالسحر والطلاسم القديمة، ومساعدة القوى الخارقة في أثناء النوم، وجد القرية قد خيّم عليها السكون والذهول. وكأنّ الزمان قد توقّف؛ ذهب إلى أبواب البيوت كلّها واحداً تلو الآخر كي يوقظ الناس، ويخبرهم أنه لو استمر الوضع على هذا النحو، فسرعان ما سيتحوّلون جميعاً إلى نباتات جافة ومجوّفة من شأنها أن تتحطّم من أقل صدمة. إلا أنه لم يخرج أحدٌ من فراشه وظلّوا جميعاً نائمين.

وبأمل إيجاد حلٍّ جذري ذهب قارئ المرايا الأول -الذي بصعوبة استطاع أن يبقي نفسه متيقّظاً- إلى المنزل المهجور لجدّه الأكبر؛ ومع أنه كان قد ذهب إلى هناك قبل بضعة أشهر برفقة سكّان القرية بحثاً عن كتاب تاريخ رازان، ولكن إحساسه كان يخبره الآن أن بإمكانه أن يجد ركناً، أو دليلاً، أو حلاً ما. وهذا ما حدث؛ إذ بعد تفتيش استمرّ ثلاثة أيام بلياليها بين التراب والقاذورات، وتحت الأعشاب الزاحفة، وبين جلود أفاعي البيتلوس وهياكلها العظمية، وجد الكتاب في صندوق معدني، تحت لوح خشبي في قبو المنزل. ومع ذلك، لم تكن قراءة الكتاب بتلك السهولة التي تخيّلها. كان الكتاب قد كُتب بخطوط ورموز الأبجد، والشجر، والجُمَّل(*).

في النهار، بينما كان يجوب لعدة أيام بيوت سكّان رازان النيام حتى يفصل الموتى عن الأحياء، ثم يدفنهم، شرع في تعلّم الحروف الأبجدية، وخطّ الشجر، وأعداد الجُمّل، حتى تمكّن أخيراً في نهاية الأسبوع السادس من أن يقرأ الكتاب ويفهم كم كان خطأً ما فكّر فيه السكّان بخصوص جدّه.

---

(*) **الأبجد**: طريقة ترتيب حروف اللغة العربية على أساس الأبجدية السريانية. فالألغاز، والتعاويذ، والطلاسم تُكتب بهذه اللغة. **الشجر**: خط رموز يعتمد على الحروف الأبجدية لكتابة التعاويذ، والألغاز، وخرائط الكنوز. **الجُمّل**: طريقة لحساب الحروف الأبجدية التي تُستخدم في الطلاسم، والتعاويذ، وخرائط الكنوز.

وقد توصّل هو من خلال تفسير رموز الكتاب إلى أن ذاك الرجل العظيم، عالم علم العلوم ذاته، كان يعرف أسرار النباتات والأحجار الطبية، ويقرأ أحجيات القرون الغابرة وخطوطها المكتوبة بالرموز، ويحدد المسار غير المرئي للنجوم، ويتنبأ بمصير كل شخص من خلال النظر في راحة يده. وكان قد مات عدة مرات وعاد إلى الحياة مجدّداً، وتجوّل بين عالَمي الحياة والموت؛ لذلك لم يعد يخشى الموت ولم يكن متحمّساً للحياة. وهو من كان يفسّر الرؤى الصادقة، ويروي من خلال النظر في بؤبؤي أعين الناس حيواتهم الماضية، ويذكّرهم بواجباتهم تجاه الحياة الراهنة. فعلى الرغم من أنه كان وحيداً دائماً، لكنه لم يبُح قطّ بتلك الوحدة؛ كان حرّاً لكنه لم يفكّر في ذلك، كانت حياته تتلخّص في وسط كل تلك الأشياء التي لم يكن الآخرون يعرفون عنها شيئاً، ولكنهم كانوا على استعداد لأن يقدّموا نصف أعمارهم حتى يعلموا أي شيء عنها. وكان قد كتب في كتابه: «مع أنه من الشائع أنهم يعرفونني كأحد سكّان رازان، ولكني أنا وحدي أعلم أنني ظهرت ذات يوم في الغابة، وحينما أقف أمام المرآة، وأرمق تجاعيد وجهي وبؤبؤي عيني، لا أتذكّر أين قد كنت قبل الغابة!»، ومع ذلك فقد كان واثقاً أنه قد اجتاز حيوات كثيرة، ووصل إلى معرفة علم العلوم حتى دون الاعتماد على الخطوط الدقيقة وغير المرئية في بؤبؤي عينيه؛ وهو العلم الذي يُعدّ أسمى من كل علم، العلم الذي كان قد مُحي من الأذهان منذ تلك الفترة الغابرة، ولم يتبقَّ منه شيء حتى اسمه. علم أعلى شأواً من السيمياء، والكيمياء، والليمياء(*) وسائر العلوم الغريبة التي بات يلوكها الصبية الصغار في هذا العصر.

---

(*) من العلوم الغريبة، **السيمياء**: علم إحياء الموتى. **والكيمياء**: علم تحويل المعادن والفلزات إلى ذهب، **والليمياء**: علم تسخير الجان والأرواح.

عندما كان قارئ المرايا يقرأ بعجالةٍ وإثارةٍ كتاب مذكّرات علم العلوم الخاص بجدّه، صُدم للغاية بحيث نسي رازان وأهلها النيام، حتى صادفته أسطر في أحد فصول الكتاب لم يستطع تصديقها. كان عالم علم العلوم قد كتب كيف أن الأهالي أصبحوا فجأة ضحايا لسحر النوم بعد نسيان تاريخ رازان، وكيف أنه بعد نجاحه في فكّ طلسم تلك التعويذة، وعدهم بأن يدوّن كتاب تاريخ رازان من أجل الأجيال القادمة، وقد ذكر بيده تاريخ فك سحر النوم للأهالي في تاريخ 12.12.1212؛ التاريخ الذي كان يدين فيه السكّان له بحياتهم مجدداً. لذلك لم يكن الأمر دون حكمة أنه كان يدوّن تاريخ ميلاد أي طفل في التاريخ ذاته؛ أي تاريخ يقظة شعب رازان.

فكّر قارئ المرايا، الذي كان مستغرقاً بقراءة الكتاب، أن مهمته الأولى هي إنقاذ الناس من سحر النوم. لذلك تغلّب مضطراً على إغراء مواصلة قراءة الكتاب، وذهب خطوة بخطوة إلى أعماق الغابة حسب تعليمات الكتاب؛ ووصل إلى النقطة التي كان فيها السطح الكبير للدائرة الجدباء عديمة الأشجار. جلس وصام لمدة ثلاثة أيام بلياليها في تلك الدائرة الخالية من الأشجار، وبينما كان يتغلّب على إغراء النوم والطعام، أخذ يبحث في أركان ذهنه المتربة، ليتذكّره حسب تعليمات الكتاب. وقد جاء في الكتاب: «في عقل الباحث، في المكان المناسب المخفي عن عين الأغيار». وكُتب في الكتاب: «إن باحث الرؤى الحقيقي، عفريت النوم العميق، هو الذي يعرفون عنه من القلب إلى القلب، ويستطيع بحاسة الشم خاصته إيجاده». وهكذا بعد ثلاثة أيام بلياليها من الصيام والاختلاء مع الذات، انطلق في اتجاه الحركة الأولى لليراعات المضيئة. مشى ليل نهار تحت المطر والضباب وضوء القمر حتى أحاط به إلصمت في ناحية ما من الغابة حيث لم يكن هو نفسه يعرف مكانه بالضبط. رأى وادياً عميقاً

كان نصف مظلم وقت الظهيرة. لم تكن هناك طيور تغرّد، ولا كان هناك نسيمٌ يهزّ أغصان الأشجار وأوراقها، ولا ثعابين تزحف من بين الأوراق والأغصان الجافة؛ كل شيء كان صامتاً. وتذكّر أنه جاء في الكتاب: «نهر النسيان». أصاخ السمع، وسمع الصوت فقط؛ الصوت اللطيف والخامل لنهر النسيان الذي يتدفّق بجانب مهجع العفريت، وإذا أراد المرء أن يمحو الذكريات من عقله إلى الأبد، فيكفي أخذ رشفة من مائه. وبينما كان يتقدّم للأمام، أترع كيانَه خوفٌ واضح: إلى أيّ مدى يمكن أن يكون العفريت مخيفاً؟ ولماذا لم تُذكر في الكتاب أيّ إشارة إلى وجود سلاح للدفاع عن النفس في مواجهته؟ واصل التقدّم مضطرباً قلقاً حتى وصل إلى مدخل كهف، حيث نمَت نباتات الخشخاش الباعثة على الانتشاء وكذلك الهوم(*). دخل، ورأى عفريتاً مسنّاً ضخم البنيان، سقط في سبات عميق بين جناحيه الأبيضين الكبيرين، وقد نبت قرنان صغيران على جبهته. كان شعره أبيض وقد طالت لحيته البيضاء لدرجة أنها وصلت إلى ساقيه، وكان نائماً على قطيفة سوداء من الفراء. كلما اقترب من ذلك الكائن ونظر إليه، قلَّ خوفه أكثر، وأخيراً أقنع نفسه أن ليس كلّ العفاريت أشراراً. وبعد أن أهدر أربعاً وعشرين ساعة دون جدوى في انتظار استيقاظه، وكان في هذه الأثناء قد شرب أكواباً من ترياق الأرق الذي كان قد أعدّه وفقاً لتعليمات الكتاب، نظر إلى ينبوع صغير من ماء النسيان في وسط الغرفة، كم كان يرغب في أخذ رشفة منه. ولكن في النهاية تذكّر تعليمات الكتاب، وكبح رغباته ولم يشرب منه. ثم رأى على جدران الكهف صوراً واضحة، ولكنها غامضة ومختلطة لأحلام الناس، كانت تندمج بعضها بالبعض الآخر وتنفصل مرة

(*) النبات المسكر المقدّس الذي كان الإيرانيون القدماء يشربون نقيعه في الاحتفالات الدينية.

أخرى. وفي إحداها، وجد حلمه المألوف: كان يقبّل فتاة جميلة طالما كان يتمنّى وصالها على مدار السنوات السابقة.

في النهاية اضطرّ إلى اقتلاع فرع من نبات الهوم وإدخاله في فتحة أنف العفريت الكهل. استيقظ العفريت المسنّ العملاق مع العطسة الأولى، وبنصف عينيه الناعستين، سأله بلا اكتراث عما يريد، فأخبره قارئ المرايا بالمشكلة وطلب منه التخلّي عن شعبه ليعودوا إلى حياتهم الطبيعية. فقال عفريت النوم، الذي لم يستطع أن يتذكّر بالضبط عن أيّ أناس وقرية كان يجري الحديث: «لست أنا من يذهب إلى الناس، بل إن الناس هم الذين يأتون للبحث عني دائماً. عُدْ الآن؛ ففي هذه الليلة سيرون جميعهم حلماً لن يحبوا النوم بعده في النهار أبداً». لم يكد عفريت النوم ينهي كلامه، حتى عاد إلى نومه بعمق مرة أخرى.

وبعد ثلاثة أيام بلياليها عندما وصل قارئ المرايا الأول إلى القرية مع آلاف الهواجس بشأن احتمال أن يكون العفريت ناكثاً للعهد، رأى أن القرية باتت مفعمة بالحيوية والنشاط، لدرجة أنها لم تكن كما كانت من قبل. لم يتذكّر الناس أصلاً أنهم كانوا نائمين لعدة أيام وأسابيع، لكنهم كانوا يعرفون فقط أنهم جميعاً قد رأوا حلماً مزعجاً ولم يكن بإمكانهم أن يصفوه. راح كلّ شخص يقول شيئاً ما، ولكنه كان يضيف فوراً: «لم يكن الأمر كذلك فقط، بل كان إحساساً شنيعاً جداً؛ لا يمكن تفسيره». كانوا جميعاً قد استيقظوا من نومهم على الحلم ذاته، مع شعور مشوب بالغموض، والغثيان، والصداع، والحزن، دون أن يروا صورة واضحة لحلمهم المشترك؛ وكانوا قد رأوا مكان أقاربهم المتوفّين الخالي. وفجأة انتبهوا إلى أن أكثر من نصف دجاجاتهم قد تعرّضت لهجوم من قبل الثعالب وبنات آوى في الليل، وحطّمت الأبقار والأغنام أبواب الحظائر

بحثاً عن العشب الطازج، وانتشرت في الغابات، والسهول، وحقول الأرز، وأكلت نصف شتلات الأرز الأخضر في الحقول؛ وأن العناكب قد نسجت شباكها في جميع الجهات، وقد تسلّلت الأزهار، والنباتات الزاحفة، حتى تمكّنت من الغرف، وقد هيمنت على أسرّتهم رائحة الموت والعرق التي تظهر بعد الكوابيس أو المداعبة الجنسية. وفي هذه الأثناء، وعندما دخل قارئ المرايا الثاني القرية سعيداً ولكن مرهقاً أيضاً من الطريق الطويل، كان الجميع منشغلين للغاية في أعمالهم غير المنجزة والمتأخرين عنها، لدرجة أنه لم تتح لهم الفرصة حتى يلتفتوا نحوه ويلقوا عليه التحية.

# الفصل الخامس عشر

أدار هوشنك المفتاح القديم في قفل البوّابة الحديدية، وبالتزامن مع سماعه صرير مفصّلات الباب الصدئة، رأى أمامه الفناء الفسيح ذاته الزاخر بأصناف من الزهور، وأشجار الصنوبر والدلب الهرمة التي كان قد شبَّ على رؤيتها منذ ولادته. ها هي ذي عريشة زهور النسرين التي لطالما يتذكّر أن أمه، ووالده، وجدّه الهرم كانوا يحتسون تحت ظلّها -مثل إطار صورة خالدة- شاي الزعفران أو شاي الكرز يومياً بعد الظهر، ويبتسمون له. ومن بعد كل هذه المعاناة والصخب غير المجدي والباعث على الحزن، تتبدّى أمامه مرّةً أخرى قطعة من الجنة؛ بيد أنه لم يندهش قطّ لرؤيته هذا المشهد مجدّداً أمام عينيه بعد مرور كلّ تلك السنين؛ كانوا يبتسمون له من داخل تلك الصورة الأبدية، بطريقة توحي بأنهم ظلّوا ينتظرونه منذ وقت طويل، حتى في نهاية الأمر يولج ذلك المفتاح الصدئ في الحال في القفل القديم الذي يعود إلى العصر القاجاري والمثبّت على بوّابة البيت، ثم يطلّ أمامهم بشعر أشيب أشعث، ووجه شاحب، وعينين أنهكهما اليأس، ويسألهم: «أما زال لي مكانٌ في هذا البيت؟!».

لم يطرح أيٌّ منهم عليه سؤالاً، لا أمه كُرد آفريد، ولا أبوه جمشيد،

أو حتى جدّه منوشهر، حتى إنهم تركوه وشأنه ينتقل ليل نهار من غرفة إلى أخرى، من الرواق إلى غرفة المعيشة، ومن غرفة الاستقبال إلى المخزن، ومن المكتبة إلى القبو. لم يكن هو نفسه متأكّداً عن أي شيء يبحث بالتحديد، ومثل الفتى الفضولي الأهوج تماماً، راح يفتح باب الخزانة ويقف أمامها لبضع دقائق، ويحدّق إلى الأغراض والثياب بداخلها ويتحسّسها بيده. أو كلّا.. بل أخذ يحدّق إلى الفراغ المبهم داخل الصناديق القديمة. هكذا ظلَّ يصعد إلى علّيّة البيت ثم ينزل إلى قبوه، ويفتح الأقفال الصدئة لحقائب السفر والصناديق التاريخية، ويقضي الساعات وهو يعبث بالأغراض القديمة المغطّاة بالأتربة. كانت الطريقة التي ينظر بها إلى تلك الأشياء توحي كما لو أن تلك الأشياء تتواصل معه عبر الزمان والتاريخ، وتروي له أحداث الزمن الذي انقضى أثناء فترة غيابه. وحينئذٍ أخذ يتحسّس المنحوتات القديمة، واللوحات القاجارية، والصور المزخرفة للأستاذ «بهزاد»(*)، ومخطوطات «مير عماد»(**)، ثم ما لبث أن أزاح جانباً السجاد الحريري المنسوج يدوياً، وتخليداً لذكرى ديدان القزّ التي كان يربّيها في رازان، أخذ يتفحّص زوايا السجاد وعُقَده بتأنٍّ شديد.

كان يحبس نفسه في المكتبة لساعات طوال دون قراءة صفحة واحدة حتى؛ ويقلّب صفحات الكتب ويشمّها، ويتأمل حواشيها، ويحاول أن يخمّن أو يتذكّر أيّها قد دُوِّن بخط يده أو بخط يد خسرو، وأيّها قد خُطَّ بيدَي والده وجدّه؟ ثم يتأمل الأختام المطبوعة على الكتب، والدفتر الكبير الذي يُعتبر بمنزلة كشّاف بحسب الترتيب الأبجدي لعناوين كل الكتب

---

(*) كمال الدين بهزاد (1455–1535): رسّام منمنمات ذو أسلوب فريد.

(**) مير عماد الحسني (1554–1615): خطّاط ذو أسلوب فريد، اشتهر في العصر الصفوي إلا أن أباطرة المغول في الهند وكذلك سلاطين العثمانيين كانوا يقتنون أعماله.

والموضوعات التي تتناولها، وبعد ذلك يتأمل تصنيفات الكتب التي لا شكّ في أنها قد خُطّت بيده وبيد خسرو في فترة شبابهما. هكذا فإنّ كل كتاب كان يتناوله بيده، لم يكن بالنسبة له مجرّد كتاب، بل كان ذكرى؛ كان سيرته الذاتية بالكامل، كان حالة من «النوستالجيا» والحنين إلى الماضي.

لقد تذكّر كيف أنه منذ سنوات -بعيدة جداً لدرجة أنه لم يستطع حتى أن يتذكّر كيف كانت تبدو ملامح وجهه حينذاك- جلس مع خسرو لعدة أيام، وما لبثا أن صنّفا كل تلك المجلّدات الخمسة آلاف وسبعمئة واثنين وثلاثين وفقاً للترتيب الأبجدي، وكم استمتعا بفعل هذا الأمر. ثم تذكّر أنهما في بداية الأمر كانا يعتقدان أنهما سوف يفرغان من هذه المهمة في غضون أسبوع، لكنهما أدركا منذ اليوم الأول مدى خطئهما. فهل يمكنه أن يتناول كتاباً، ويقيّد عليه أرقام التصنيف وحروفه بخط يده، ثم يضعه على أحد الرفوف ويتركه هناك؟ لم يكن ذلك ممكناً، فبمجرد أن يلتقطا كتاباً، كان يأسر مخيّلتهما بطريقة ما، بحيث لا يعودان يدريان متى سوف يلقيانه على الأرض، إذ كانا يقلبان صفحاته، ويتركان عبارات الكتاب تصطادهما كما تفعل شبكة الصيد، وتغرقهما في بحر أعماقها. وكانا دائماً ما يقرأ كلٌّ منهما على مسامع الآخر مقاطع من هذه الكتب، ويتناقشان بشأنها، ثم فجأة كانا يعودان إلى صوابهما، ويريان كيف مرت الساعات، وقد باتت كل الكتب حولهما مبعثرة على الأرض وفوق أرفف المكتبة؛ أما الطعام الذي كانت أحضرته أمهما كُرد آفريد، فقد برد وهما لا يزالان غارقين في بحر الكتاب نفسه الذي كانا ينهلان منه منذ الصباح الباكر. وعلى هذا النحو، حتى بعد مجيء والدهما جمشيد وجدّهما منوشهر لمساعدتهما، لم تتغيّر الأوضاع على نحوٍ ملموس، إذ كان الاختلاف الوحيد يكمن في أنهم قد أصبحوا الآن أربعة أشخاص غارقين في بحر الكتب. وكانوا يتناقشون ويتجادلون

حول الكتاب الذي كان واقعاً في أيديهم، وفي أثناء قراءتهم له يخطّون فيه الهوامش السفلية والحواشي؛ بيد أنهم اضطرّوا في النهاية إلى التخلي عن هذا الأمر بشكلٍ مؤقت، كي يتمكّنوا من مواصلة مهمة تصنيف الكتب.

وبينما كان هوشنك يتصفّح ويشمّ الكتب غير الخاضعة للرقابة في مكتبة أجداده، بدا الأمر كما لو أن الابتسامة أوشكت أن تفارق شفتيه، عند تذكّره أن هذا ليس نهاية الأمر بعد؛ بينما كانوا يصنّفون الكتب، راح يتولّى كل واحد فيهم على حدة كالعادة، ليوم واحد في الأسبوع، مهمة شراء الكتب المنشورة حديثاً من مكتبة ناصر خسرو، وفي ما بعد من شارع الثورة. وعلى هذا النحو لم يكن واضحاً متى ستُصنّف تلك المكتبة ويعاد ترتيبها ما لم تستمر توبيخات الأم كُرد آفريد، التي جاءت في وقتها تماماً. لكن أخيراً وبعد مرور أربعة أشهر، رُتّبت المكتبة بالشكل اللائق بها، وصُنّفت الكتب فيها وفقاً للترتيب الهجائي والمحتوى الذي تتناوله، وعند جوانب المكتبة الأربعة نُصبت أربع طاولات للمطالعة، كما وُضع أثاث إيطالي الصنع يسع ستة أشخاص على سجاد قاجاري من إنتاج مدينة كاشان، كي يتمكّنوا من نيل قسط من الراحة لبعض الوقت على الأقل. أجل، هذا صحيح تماماً. إن أول جنونٍ بل وربما آخر جنون متوارث بين أفراد هذه العائلة هو مطالعة الكتب.

والآن بعد كل تلك السنين، كان أبي في غمرة سعادته وانتشائه من توارد ذكريات الشباب لا يزال يتفقّد نواحي البيت هنا وهناك، بينما غدا يشعر بافتقاده لخسرو أكثر يوماً بعد يوم. ومع أنهما لم يعودا يعيشان معاً منذ سنوات، ولكنهما كانا يتشاركان أفكارهما وتجاربهما معاً في كل تلك المراحل السعيدة للطفولة والمراهقة والشباب، حتى إن أحداً لم يصدّق أن تفرِّقهما يدُ الزمان بهذه الطريقة.

كان أبي مع استمرار انشغاله بذلك الفضول الطفولي الذي انتابه في شيخوخته، يتوجّه إلى المطبخ، ويتأمل الأوعية النحاسية والفخارية القديمة، ويصنع لنفسه فيها وجبةً من البيض المقلي، ويظلّ واقفاً بالساعات خلف نوافذ الأرسي(*)، وفي انعكاس ألوانها تحت ضوء الشمس يطارد ذرّات الغبار العالقة في الهواء. ومن كان يدري.. ربما كان يبحث عن طفولته، أو سنوات عمره الضائعة والمنسية في ذلك البيت الفسيح متعدّد الطوابق المكوّن من ثماني عشرة غرفة نوم، والمزوّد بردهات وطاقات مقوّسة ونوافذ أرسي ملوّنة، أو ربما كان يبحث عن رائحة الجسد الغامضة وذكرى الوجود الخفيّ الأول لروزا في ممرّات البيت وردهاته. إلا أنه في نهاية الأمر وبعد أيام من الاضطراب، عزم أمره واتخذ قراره ووجد مركز ثقل له، في مكان يضاهي روعة كل الجدران والسجاجيد والنوافذ الملوّنة لذلك البيت، المكان الذي كان لا يزال في مأمن من هجوم القوى الغاشمة والمعتدية خارج المنزل، إنها المكتبة، المكتبة الكبيرة ذات الكتب القديمة غير الخاضعة للرقابة.

ولكن مع هذا، وعلى الرغم من حالة الصمت تلك التي خيّمت عليه منذ ولوجه بيت أبيه، كانت روح الشباب بحماسها قد دبّت في هذا البيت. أما هؤلاء الذين قد صاروا شباباً فكانوا كُرد آفريد، وجمشيد ومنوشهر. فمثلما دأبوا في معيشتهم المشتركة معاً، والتي دامت على هذا النحو لعقود، كانوا لا يزالون يستيقظون فجراً قبل شروق الشمس، وبينما يذهب جمشيد إلى المخبز، يشغّل منوشهر أسطوانة للمطرب بديع زاده، ثم ما

---

(*) نافذة ضخمة ذات تصميم مشبّك وزجاج ملوّن تطلّ على حديقة البيت؛ وخلافاً لأغلب النوافذ لا تفتح إلى جهة اليمين أو اليسار، بل إلى الأعلى، وتتميّز بتعدّد ألوان زجاجها، وأكثر الألوان التي تُستخدم فيها هي: اللازوردي والأحمر والأخضر والأصفر.

يلبث أن يفتح النوافذ، ويرشّ الفناء بالماء؛ أما كُرد آفريد فكانت تُعِدّ سفرة الإفطار. وما إن تنتشر الرائحة العطرة للشاي التي تداخلت مع رائحة الخبز الطازج المعدّ على الحصى الساخنة، في نواحي البيت، حتى توقظ فيهم ذلك الشاب بداخلهم، الذي قد صار الآن رجلاً هرماً ذا شعر أشيب، وتترك الصوت العذب لبديع زاده يتغلغل في أوردته وشرايينه. كانوا يبسطون سفرة الطعام إما على الأرض، أو على السجاد القاجاري، أو على المصطبة الخشبية في الفناء الفسيح. وما إن يصلوا، حتى يبدؤوا بتحلية أكواب الشاي الخاصة بهم. وتزامناً مع إلقاء واحدهم على الآخر تحية الصباح بصوت خفيض، كانوا ينشرون أجواء البهجة والنشاط في أرجاء البيت والحديقة؛ وفيما كان يفتنهم عبق زهور الياسمين وشذا زهور شبّ الليل، يشرع هوشنك بالحديث، ليتسنّى له أن ينسى ذكريات أيامه القليلة ولكن السعيدة في رازان، فيظلّ يتحدّث عن الطقس الجيد، والتغييرات التي شهدتها طهران في تلك الآونة، ويعرب عن قلقه من أن يستولي العمدة على بيت آبائه وأجداده. أما أن يتحدّث عن رازان، فلا يمكن! أن يتحدّث عن روزا، فلا يمكن! وأن يتحدّث عن بيتا وعني وعن سهراب، فذلك لا يمكن أبداً!

كانت والدته وجدُّه قد أوضحا له أن العمدة بعد أن كان قد جاء بنفسه يتفقّد البيت وبستانه بذرائع مختلفة، وأبدى رغبته بشراء ذلك المكان، ما لبث أن خاب أمله في نهاية الأمر، فتوقّف عن إغرائهم بالقبول، وبدأ يهدّدهم. في البداية نصب فخاخه للإيقاع بخسرو، وزجّ به في السجن بتهمة اعتناقه لأحد المذاهب الصوفية الضالة. ومع أننا جميعاً كنا نعلم من يقف وراء تلك المؤامرة، رفض خسرو أن يذهب لمقابلة العمدة وأن يظلّ يرجوه حتى تلين شكيمته ويكفّ عن عناده. وعلى هذا النحو كانت كلّ

محاولات العمدة قد باءت بالفشل وحيل بينه وبين البيت مرة أخرى، لكنه لم يجلس مكتوف اليدين، وعزم أمره وبدأ في اتخاذ إجراءاته في الشروع بتدمير البيت، كي يشفي غليله على الأقل، فقد كان هو من نفّذ خطة إنشاء طريق سريع، وأصدر أمراً بهدم البيت. ولم تكد تمضي الأسابيع والشهور حتى قدموا بجرافاتهم، وساووا الأشجار والبيت القاجاري المكوّن من ثماني عشرة غرفة بالتراب، بدافع الانتقام الشخصي فقط. ولكن الغريب في الأمر هو أنه على الرغم من وجود مثل هذا التهديد الكبير، لم يصب أيٌّ من جدّتي وجدّي بغضب واكتئاب، أو حتى منوشهر الجد الأكبر الذي كان عمره أطول من تلك الأشجار المعمّرة في الفناء. وعندما سألهم أبي قلقاً: «ما الذي تنوون فعله إذاً؟»، أجاب جدي بمنتهى البساطة قائلاً: «إننا لن نبرح بيتنا هذا، فليفعلوا ما يحلو لهم». ثم راحوا يتناولون أقداح الشاي المُحلّى، ويغمسون الخبز الطازج المعدّ على الحصى الساخنة في أطباق القشدة والعسل محليَّي الصنع.

وعلى هذا النحو لزم أبي البيت شيئاً فشيئاً، في البداية أخذ يطالع كل شيء، إذ كان متعطّشاً للقراءة لدرجة أنه لم يعد يكترث ما إذا كان يقرأ لسوفوكليس أو لبرتراند راسل. كان جلّ ما يعنيه هو أن يوطّد أواصر الصلة بينه وبين مفكّري العالم مرة أخرى، ويتأكّد من أنه قد أصبح بعيداً بقدر الإمكان عن عالم الأقزام المعاصرين الذين كانوا قد استعمروا كل أرضه. كان يسعى لأن يرتقي بعقله وفكره مرة أخرى، وبمرور الوقت بدأ بضبط مطالعاته وتنظيمها، بحيث يطالع المسرحيات الكلاسيكية لفترة من الوقت، ومن بعدها يبدأ في قراءة الأساطير الإيرانية وأساطير بلاد ما بين النهرين والأديان القديمة، ثم يطالع في ما بعد النظريات السياسية، ونظريات علم الاجتماع، والآراء الإيديولوجية حول دور الأديان في اندلاع الحروب

وأثرها على الركود الفكري للبشر، وقرأ كتباً عن تاريخ الغزو العربي لإيران، وأسباب سقوط الدولة الساسانية، وقارن في ذهنه بينها وبين أسباب سقوط حكم الشاه وبدء قيام الجمهورية الإيرانية الإسلامية. تذكّر العديد من المعلومات التي كان يعلمها جيّداً وسبق أن اطّلع عليها قبل أن تلتهم النيران كتبه، ولكن بعد ذلك، بدا الأمر كما لو كانت النيران قد نشبت في ذهنه وفي ما لديه من معرفة أيضاً، وأنسته كل شيء تماماً. حينئذٍ فطن إلى أن الحزن يجلب معه النسيان.

بعد ذلك وصل إلى تاريخ إيران المعاصر، فصارت كلّ أسئلته حينئذٍ لا تفضي إلى إجابة مرضية مثل بئر بلا قرار، وغدا يبتاع الصحف كل يوم، ومع أنه كان يعلم أن معظم ما يُنشر فيها عارٍ تماماً عن الصحة، كان يريد معرفة أيّ بلاء قد حلَّ على البقية الباقية من الناس في أثناء فترة غيابه، طوال هذه السنين، بعد اندلاع الحرب، وبعد أحكام الإعدامات الجماعية، وبعد فرار المثقّفين والموسرين من البلاد؟ كان هوشنك لا يزال يفتقر إلى الجرأة التي تخوّله الخروج من المنزل والسير في الشوارع وبين الناس الذين قد قتلوا الآخرين فعلياً، سواء أكان بجهلهم أم بسكوتهم، ليحلّوا في النهاية محلّهم. ولم يستطع إلى الآن أن يسامح أيّ أحدٍ كان: لا الآخرين ولا حتى نفسه!

إنني على يقين من أن الفيلسوف فريدريك نيتشه عندما ألّف كتاب «ما وراء الخير والشر»، كان يفكّر في كل شيء باستثناء أن هذا الكتاب سوف يتسبّب ذات يوم في عقد مصالحة روحية بين أخوين، ربما لو لم يتناول هوشنك ذلك الكتاب في ذاك اليوم، لما أُتيحت له فرصة احتضان أخيه خسرو قطّ، ولما تذكّر أيام طفولته التي قضاها معه. لقد بدا خسرو أمامه في غرفة المكتبة تماماً في تلك اللحظات التي كان يفكّر فيها في نفسه بصوت

عالٍ قائلاً: «أما زال ثمة إنسان لا يعرف ما الفرق بين الخير والشر؟!». أما خسرو فدخل عليه بجسد شبه شفّاف، وبينما كان يدخّن سيجار «بيدي»، السيجار الهندي الملفوف يدوياً ذا الرائحة العطرية النافذة، وينفث دخّانه في الهواء، قال بصراحة مطلقة: «لطالما كانت الحدود بينهما واضحة تماماً».

بالتأكيد لم يُفاجَأ هوشنك، فدائماً ما تحدث أشياء من هذا القبيل، لذلك بدأ بهدوء جمّ يُجري حواراً أبدياً بينه وبين أخيه حول مدى تأثير الكتب، استمرّ طويلاً حتى بعد نفاد أجله. ذلك الحوار الذي لم يُظهر لهما مدى اختلافهما الفكري أحدهما عن الآخر فحسب، بل كشف لهما أيضاً أنهما على الرغم من كل تلك المسافات والاختلافات بينهما، لا يزالان قريبين للغاية واحدهما من الآخر، وأن كلّاً منهما كان يفتقد الآخر طوال تلك السنين. وفي نهاية ذلك اليوم، بعد أن برد عشاؤهما المكوّن من مرق الخضراوات الورقية مع اللحم، وأُهمِل، كي يتمكّنا من استئناف حديثهما معاً الذي كان حول تجاربهما وأفكارهما بحماس وانفعال شديدين، ما لبثا أن تعانقا وقبّل كلٌّ منهما أخاه، واغرورقت عيونهما من فرط ذلك الشغف الصبياني البادي عليهما. ومع هذا، فمنذ صباح اليوم التالي، واصل أبي مطالعة الكتب منفرداً.

كان أبي لا يزال يحاول أن يعرف لماذا سقطت الحضارة والثقافة الإيرانية بكلّ عظمتها وإبداعها، وإيمانها بالأفكار الطيّبة، وبالأفعال الطيّبة، وبالأقوال الطيّبة(*)، وتعرّضت للذلّ والهوان حتى هذا اليوم؛ أما عمي خسرو ففي حقيقة الأمر لم يُرِد معرفة شيء، كان يريد فحسب أن يسبح خلف الأسئلة المحضة في نهر الوعي الكوني وكأنه جنينٌ متفكّر،

---

(*) خلاصة تأملات وأفكار النبي الإيراني زرادشت.

وأن يظلّ موجوداً بين تارة وأخرى في هذه المكتبة أو تلك في أي مكانٍ كان هنا وهناك، ليقرأ المزيد من الكتب.

في البداية عندما كان أبي يرى خسرو غير آبه بكلّ هذا الظلم الاجتماعي أو حتى الأُسري، ويعيش بحالة من السكون والرضا التامّين، يتنقّل بين أروقة البيت والمكتبة والمعبد القديم على مرتفعات الهيمالايا، حتى إنه لم يعد يستمع إلى نشرات الأخبار التي تُبثّ عبر شاشة التلفاز الإيراني أو محطات الراديو الأجنبية، كي لا يستاء من شيء؛ كان يظلّ يفكّر في قرارة نفسه ويتساءل: ألا يرى كل هؤلاء الموتى، هؤلاء المكتئبين، والعاطلين، والذين بلا مستقبل، والمحبطين؟ باختصار كان أبي ساخطاً عليه وعلى المجتمع وعلى الدنيا بأسرها، ويريد أن يطرح على أخيه كلّ تلك الأسئلة التي كانت بلا إجابة، ولكنه في اللحظة الأخيرة في ذاك اليوم الذي أراد فيه أن يلقي عليه أسئلته، عندما وقعت عيناه على تلك الخطوط المتغضّنة في وجه خسرو الخفي الشفّاف، بينما كان يتأمله في زاوية الفناء تحت شجرة الدلب بوداعة تشبه وداعة الأطفال، راح يعتقد بأنه لا بدّ أن ينفق المزيد من الوقت، كي يتمكّن من فهم أخيه الأصغر، أخيه الذي كان يعلم جيّداً أنه ظلَّ طوال هذه السنين رحّالة مستكشفاً، إذ كان يعلم أنه قد تدرّب لسنوات في بلاد الهند وإقليمي التبت وسيبريا، لدى الكهّان الشامانيين، ورجال الدين الصوفيين، والمرتاضين، ويعلم أنه يستطيع قراءة الخطوط القديمة الغامضة، وأنه يملك مجموعة من المخطوطات، كلّ مخطوطةٍ منها تعادل في قيمتها المادية والمعنوية متحفاً بالكامل، كما كان يعلم أنه قد نال نصيبه في هذه الدنيا من الشقاء والعناء، وأنه قد سُجن، وأن زوجته قد خانته قبل سنوات، وأنه قد هرب من إيران إلى فرنسا برفقة امرأة ثرية، حيث كان النضال لصالح مثليّي الجنس قد بدأ في تلك السنين. كان يعلم

أن فشل حبه قد كلّفه الكثير، حتى إنه عزف عن إقامة علاقات طويلة وجادّة مع النساء، رغم أنه ما لبث أن خاب أمله في الحب مرة أخرى، عندما وقع في حب امرأة صوفية في الهند كانت قد نذرت نفسها لمعبد الفئران. كان يعلم جيداً أن خسرو، قد سافر مرات عديدة بعدد شعر رأسه؛ وقد سار في طرقٍ مجهولة وممتدة لا نهاية لها، كانت تفضي إلى طرق أخرى مجهولة بلا انتهاء. لقد طالع الكتب، ومارس التأمل على حدٍّ سواء، كما كان شغوفاً بالعلاقات الإنسانية.

لقد فكّر في أنه ربما من الأفضل، بدلاً من أن يوجّه لومه وعتابه إلى أخيه، أن يلوم نفسه أولاً، ويسأل حاله: «وأنت نفسك ماذا قد فعلت طوال هذه السنوات؟». سؤال مندفع وإجابته مخيّبة للآمال. ولهذا السبب حبس نفسه في غرفة المطالعة في غياب خسرو والآخرين، وبدأ يلقي اللوم على نفسه ويؤنّبها بشدة. كان دائماً ما يسأل نفسه: ماذا فعلت بخلاف أني سمحت لهم بأن يستعرضوا أمامي أنا وعائلتي ما تعرّضوا له في حياتهم؟ ألم يكن انتقالي للعيش في رازان وعودتي مرة أخرى إلى طهران، مجرّد هروبٍ من مرارة حياتي التي لم تعد تخضع للسيطرة؟ توصّل إلى أن أغلب الحوادث المؤثّرة في حياتنا لا تقع إلا في غيابنا، وخلص إلى أنه ربما لو لم يفقد رباطة جأشه بعد تعرّضي للقتل، وقد كنت صغرى أطفاله مع بداية اندلاع الثورة، ولو لم يفرّ هارباً إلى رازان، وظلَّ يسعى للانضمام إلى حلفاء لهم الميول ذاتها المشتركة معه، لشرع في تأسيس حركة وإن كانت صغيرة وتولّى قيادتها، لكان الآن على الأقل يشعر تجاه نفسه بشعور أفضل. بعد ذلك تذكّر محمد مختاري، وپروانه، وزوجها داريوش فروهر، ومحمد بوينده(*)؛

(*) ضحايا سلسلة الاغتيالات التي نفّذتها المخابرات الإيرانية بحق الأدباء والناشطين السياسيين في نهاية تسعينيات القرن المنصرم. (م).

وتذكّر إعدام المدوّنين والنشطاء الاجتماعيين الذين بدأ يطالع مؤخراً ما يُنشر عنهم في الصحف من أخبار ومقالات، بعد سنوات طوال من عدم معرفة أي شيء عنهم. لكن ومع كل تلك الرقابة الشديدة والصارمة التي كانت تفرضها على المطبوعات وزارةُ الإرشاد والثقافة من ناحية ووزارةُ الاستخبارات من ناحية أخرى، كان لا يزال ممكناً العثور في بعض الكتب أو في مقاطع متفرّقة من المنشورات الأدبية والاجتماعية على مواد مقروءة وهادفة تتناول أحداث المجتمع. هكذا اعتقد أن المجتمع يبدو وكأنه لا يزال ينبض بالحياة، ولا يزال يتنفّس، ويبدي ردة فعله تجاه تلك المحن والشدائد. وفكّر في أنه لو بقي على حاله مثلهم، وظلَّ يعمل في مجال الموسيقا بدلاً من تركه العمل، أو حتى على الأقل راح يُنشئ فرقة موسيقية خاصة به، أفلا يكون هكذا قد ساهم بدوره في المجتمع بقدر ما يستطيع؟ وفكّر في أنه لو كان استمر على هذه الحال، لكان لسانه السليط قد أودى به إلى مواطن التهلكة بلا أدنى شك، وعندئذٍ أيّ بلاء كان سيحلّ على روزا؟ يا إلهي، يا روزا.. روزا.. روزا.. أين أنتِ؟!

في المرة التالية، جاء خسرو لرؤية والدي في أسوأ وقت ممكن، إذ كان غاضباً ذلك اليوم صباحاً بعد قراءته خبر اختفاء العديد من الطلاب من ذوي الانتماءات السياسية، وفقدان نحو عشرين ألف صفحة من الملف الجنائي، وفساد أحد القضاة المجرمين، وينتظر أن يفرغ شحنة غضبه في أي شخص كان، ولذلك، وتزامناً مع رؤيته للكتاب الذي كان بيد خسرو، استشاط غضباً بلا أدنى سبب، وسأله متحاملاً: «بحق الله، أي فائدة عادت على هذه الدنيا من ممارستك للتصوّف؟!»، غير أن خسرو فوجئ من ذلك السؤال ونبرة الصوت الحادة تلك، حتى إنه لم ينبس ببنت شفة، وأغلق

كتاب «المستقبل الذهبي» لأوشو(*) الذي كان يمسكه برفق، وجلس على الكرسي، ثم أخذ يحدّق فيه، كي ينفّس عن غضبه تماماً. فلمّا رآه أبي صامتاً، لم يزده ذلك إلا حنقاً، وقال بصوت مرتفع: «عندما أعدموا ابني سهراب بلا جريرة، عندما أحرقوا ابنتي، وأصاب زوجتي الجنون حتى غادرت البيت، كيف تمكّن تصوّفك هذا من مساعدتنا؟!». أما خسرو الذي كان قد اغتمّ بشدّة، من ذكر تلك المصائب، فقد آثر الصمت مرة أخرى، فأردف أبي قائلاً: «عندما أعدموا كل هؤلاء السياسيين الأبرياء، ومات كل هؤلاء الشباب في تلك الحرب العبثية، وصار كلّ هذا الحقّ باطلاً، أيّ ميزة منحها لك تصوّفُك هذا؟!».

تنهّد خسرو، وطأطأ رأسه، وقال خجلاً: «في الواقع، لا شيء!».

فقال أبي بصوت مرتفع: «إن هذه الدنيا تفيض بالقتل والظلم والمعاناة، وحينئذٍ وعوضاً عن محاربة هذا الفساد والظلم، فإن الرجال الفطناء ممن هم مثلك يلجؤون إلى ملاذات دور العبادة الآمنة». ثم ما لبث أن انهار فجأة.. وارتعشت كتفاه، ثم انفجر بالبكاء بصوت عالٍ، وانهمرت من عينيه تلك الدموع التي كان قد كتمها بداخله لسنوات وسنوات، حتى بلّلت الكتب والسجاد من حوله. ولمّا كانت دموعه الحارة تنسكب على وجنتيه وتبلّل قميصه، راح يشعر برغبة جامحة في أن يغرق في نهر دموعه ويموت؛ لم يعد يشعر بأدنى حاجة للاستمرار في العيش، فكلّ تلك الأشياء التي كان قد حصل عليها وأحبها كثيراً، ما لبثت أن سُلبت منه الواحدة تلو الأخرى بأفظع الوسائل وأشد الطرق. آلات التار الموسيقية الخاصة به، منزله في طهران، روزا، سهراب، بيتا، أنا، والأسوأ من كل ذلك: آمالهم جميعاً. بل حتى إنهم أقدموا أيضاً على هدم هذا البيت الأثري الذي يعود إلى العصر

(*) فيلسوف، ومتصوّف وغورو هندي (1931–1990).

القاجاري، والذي تثبت كل المستندات أنه كان ملكاً لهذه العائلة منذ مئتي عام، فأي شيء آخر قد تبقى ويريدون أن يستحوذوا عليه؟! وبينما كان يذرف الدموع، وقد أخفى وجهه بين ذراعيه، تمنّى في قرارة نفسه لو دُفن تحت الثلج في أيام انهمار الثلج الأسود تلك.

أراد خسرو من صميم قلبه أن ينهض، ويطوّق بذراعيه كتفي أخيه الأكبر المتوعكتين، ويعتذر عن أن التصوّف لم يكن الحل الأمثل للتعامل مع كل هذا القتل والنهب والفقر والظلم الإنساني. لكنه عوضاً عن هذا، مكث هنيهة، ثم خرج من الغرفة، كي يتسنّى له البكاء على سجيّته. فقط قبل أن يغادر، وعندما مرَّ بجانب أخيه، توقّف للحظة، ووضع يده على كتف أخيه المكلوم وربّت عليه.

وفي الليل عندما تمكّن من السماح لنفسه بدخول المكتبة مرّة أخرى، رأى أبي كالعادة مستنداً إلى الكرسي، ويقرأ كتاباً ما. عندئذٍ فقط سمح لنفسه بأن يجلس على كرسيّه المعتاد، ويتحدّث إليه بهدوء قائلاً: «أغلب الناس يتصوّرون أن العالم يمثّل شيئاً مروّعاً ومحفوفاً بالمخاطر، بحيث يجب أن يعدّوا أنفسهم لمواجهته سواء أكان ذلك بمحاربته، أم بحماية أنفسهم منه، أم بالهروب منه. ولهذا، فإن العالم يصير بالنسبة لهم كائناً مروّعاً، ومزعجاً، ومحارباً لهم، في حين أن العالم شيء يجب على الإنسان أن يقضي جلّ عمره لمجرّد أن يتعرّف عليه».

وعندما رأى أبي صامتاً، هزّ رأسه بندم، وأردف قائلاً: «إنك تقول إن العالم قد أصابه الجنون، وما الذي يمكنني أن أفعله من أجله؟ أما جوابي فهو: إن مهارتي الوحيدة تكمن في أنني لا أورّط نفسي في مثل هذا الجنون».

ثم استأنف العم خسرو حديثه، وقال: «إن العوم لا يُعرف إلا بممارسة العوم، مثلما أن الحب لا يُعرف إلا بممارسة الحب، والتأمل لا يُعرف

إلا بممارسة التأمل، فليس هناك طريقة أخرى، إلا أن ينفتح العقل على الخارج وفي داخله يتأمل. وهذا هو الفرق بين عالمي وعالمك».

وبينما كان ينظر إلى أبي بعين الريبة ولا يعرف ما إن كان لا يزال ينصت إلى حديثه أم لا، واصل كلامه بحذر: «إنك على حق؛ إن الوقت يمضي، وكل تلك الأشياء التي لطالما تعلّقنا بها وأحببناها، قد استحالت يباباً. انظر حولك، كل هذه الكتب، والمخطوطات، والمذهّبات، والفنون الخطّية، والمنمنمات، وفنون الهندسة المعمارية، وتصاميم البستنة، لم يعد لها أثرٌ الآن. وبدلاً من هذا السجاد ذي النقوش القيّمة الذي يُقدّر عمره بآلاف السنين، تجدهم يبيعون الآن السجاد المصنوع آلياً بالرسوم الكرتونية الهزلية مثل ميكي ماوس، وعوضاً عن الهاتف الثابت الأرضي الذي كان جرسه يرنّ في كلّ ركن من أركان المنزل بين الحين والآخر، عند الضرورة فحسب، أصبح اليوم بحوزة كل طفل هاتف نقّال خاصّ به. كل تلك البساتين القديمة، والبيوت الأثرية، والآثار العريقة، والأشغال اليدوية، والكنوز الوطنية، وكل تلك الأشياء التي كانت في ما مضى نتاجاً لآلاف السنين من الحضارة والفكر والثقافة الإيرانية، تجدها اليوم إما ممحوّة من الوجود، أو لا تزال تُدمَّر وتُنهب. وفي مثل هذا الهجوم الوحشي المجهول الهوية والناكر للذات، أيّ شخص برأيك يستطيع أن يفعل شيئاً بمفرده؟! قد يكمن الحل الوحيد في الحركات الجماعية، ولكن هل ترى من وحدة تربط بين هؤلاء الناس؟ سواء أكان اتحادهم هذا من أجل الخراب، أم من أجل العمران». ثم أطرق هنيهة، وأردف قائلاً: «في مثل هذا الخراب، فإن مهارتي الوحيدة هي أنني لم أسمح لنفسي بأن تخوض في لعبة لا أؤمن بها من الأساس؛ من المؤسف حقاً أنني لا أملك فعل أيّ شيء آخر».

لم يرفع أبي رأسه عن الكتاب كما لو أنه لا يسمع صوته، ربما لأنه فطن

إلى مغزى كلامه، ولكنه لم يتمكّن من مواساة نفسه به، إذ كان حضوره مفعماً بالمعاناة التي جلبها عليه المجتمع، ومع عكوفه على قراءة الكتب التاريخية وسماع الأخبار السياسية يومياً، كان يجد هذا الغضب وتلك المعاناة يتفاقمان في أعماقه، بحيث لم تكن هنالك وسيلة للحدّ منهما، فصار بسبب ذلك يائساً ومضطرباً. كان يمقت الظلم والحرب وانعدام العدالة أيضاً، وفي الوقت نفسه لا يمكنه أن يتحمّل ولا أن يدرك معنى الصمت في مقابل ذلك كلّه. كما لو أن هذه العبارة التي لا يعرف قائلها بالتحديد راحت تهمس في أذنه باستمرار: «سوف يسأل الجيل القادم نفسه: ماذا حدث بعد أن كان نور الصباح قد أشرق من جديد، لِمَ اضطررنا إلى أن نقضي سائر أيامنا في الظلام مرة أخرى؟»، ولكن ما صرّح به كان شيئاً آخر، فقد قال: «غداً سوف أخرج إلى الشارع».

وخرج إلى الشارع في الغد.. ارتدى قميصاً وبنطالاً، ووقف أمام المرآة لمدة ليقرر ما إذا كان سيرتدي ربطة عنق أم لا، وما لبث أخيراً أن ارتدى ربطة عنق كحلية اللون مع قميص أبيض، وبنطال أسود من القماش. فتح باب الفناء الحديدي الصدئ برفق، ثم أخذ ينظر من خلف إطار الباب هنا وهناك، دون أن يدري أن كلّاً من أبيه وأمه وجده يراقبونه من خلف النافذة بنظرات ملؤها الشكّ، فعلى مدار تلك السنوات التي كان قد هرب فيها من طهران، لم يضطرّ إلى أن يطأ أرضها من جديد سوى لبضع مرات فحسب، وكان دائماً ما يتجنّب التجوّل في شوارعها، حتى إنه بعد بيع الكنز الأثري، عندما أراد إعادة إعمار مكتبته التي كان قد نهبها الملا وأضرم فيها النيران، لم يذهب إلى شارع الثورة، بل ابتاع كتبه الجديدة عن طريق الاتصال هاتفياً بالمواطنين أصحاب المكتبات الشخصية الذين سبق أن أعلنوا في الصحف عن بيع كتبهم، ثم اصطحب معه هذه الكتب إلى رازان.

ها هو ذا اليوم.. الآن ولأول مرة بعد مرور عدة عقود على قيام الثورة الإسلامية، يريد أن يسير في الشارع، كي يرى المدينة، والناس، والشوارع الحديثة، والأزقة بمنعطفاتها المتفرّعة، والمحال التجارية الجديدة ذات اللافتات المضاءة بالنيون، والنساء اللواتي يسرن في الشوارع بخطاً حثيثة مرتديات العباءات و«المقنعة»(*) وأوشحة الرأس السوداء. كان يريد أيضاً أن يشاهد عن كثب تلك الشقق المنشأة حديثاً، والتي يقال إنها قد بُنيت على أنقاض البساتين القديمة، كما كان يريد أن يرى بنفسه كيف قد تبدّل حال طهران وسكّانها بمثل ما هو عليه الآن؛ وراح يفكّر في قرارة نفسه: «لا أريد أن أتصالح مع أيٍّ من هؤلاء الناس أو حتى أفعى النظام الحاكم ذات الألف وجه، جلّ ما أريد فعله هو أن أشاهد ما قد تبقّى من أشلاء جثة المجتمع المدهوسة تحت تلك الأقدام!».

ساقته قدماه إلى ساحة تجريش، وحاول ألّا يحدّق إلى المارة من حوله، وأن يتأمل المباني والشوارع فحسب، لكنه لم يكد يمضي مسافة بضعة أمتار، حتى شعر بانقباض في بدنه وتورّم في عروق عنقه، حينئذٍ أخذ يواسي نفسه قائلاً: «أنت الآن صبي صغير بشعر أبيض». وبناء على ذلك حاول أن يتخلّص من خوفه من الناس شيئاً فشيئاً؛ هؤلاء الناس الذين منذ زمن غير بعيد كانوا قد أضرموا النيران في ابنته، ومقتنياته من آلات التار، وبيته، كلٍّ على حدٍّ سواء، بلا أيّ رحمة.

وكلّما مضى قدماً، كان الشارع يصبح أشدّ ازدحاماً، وتغدو المحال التجارية أكثر تكدّساً، لدرجة أنه لم يعد يستطيع أن يتذكّر كم مضى من عقود منذ آخر مرة كان قد ذهب فيها إلى الحديقة الملكية التي تغيّر اسمها

---

(*) المقنعة عبارة عن حجاب مخيط من الأمام كي يغطي الرأس والرقبة، بدأ ارتداؤه على نحو رسمي في الأماكن العامة بعد قيام الثورة الإسلامية الإيرانية 1979.

الآن إلى حديقة الأمة، عندئذٍ راح يتأمل اللافتات الإعلانية الضخمة، والمتاجر الصغيرة والكبيرة ذات الملابس المستوردة، والأسوار الحديدية العالية التي تمتد بمحاذاة الرصيف على طول الطريق، والحافلات الكبيرة ذات الطابقين، والأصوات المزعجة لأبواق السيارات، وملتقطي الزبائن ممن يعرضون خدمة توصيل الركّاب بسياراتهم الخاصة، بينما كانوا ينادون هؤلاء الماكثين انتظاراً على الأرصفة بصوتٍ عالٍ قائلين: «سيّدتي، هل تودين الذهاب إلى ساحة الرسالة؟ سيّدي، هل أنت ذاهب إلى شارع سيد خندان؟».

كان يشعر بالإرهاق، ولكنه قد عزم أمره وقرّر المضي في سيره حتى يصل إلى شارع «شاه رضا»، الذي كان قد تغيّر اسمه هو الآخر الآن إلى شارع الثورة. كانت المدينة تبدو في الظاهر هادئة، كما لو أنه لا يُرتكب الآن المزيد من الكوارث والجرائم خلسةً داخل سجونها وأقبيتها. كان يبدو هنالك شابٌّ وفتاة يمسك كلٌّ منهما بيد الآخر، قادمين نحوه من الأمام، وإذ فجأةً أفلت كلٌّ منهما يده من يد الآخر، وأخذ الشاب بوجه شاحب يختلس النظر تجاه الشارع. تتبّع نظراته حينذاك، كانت إحدى عربات الدوريات المطليّة باللون الأخضر والتي كان قد خُطَّ عليها عبارة «دورية الإرشاد»، تجتاز الطريق. كانت ثمة امرأتان ترتدي كلٌّ منهما عباءة الشادور قد جلستا في سيارة دورية الإرشاد رباعية الدفع، برفقة رجلين يرتديان الزيّ العسكري، وراحت سيارة الدورية تمضي بمحاذاة الطريق بسرعة أدنى من المسموح بها، بينما كانوا يعاينون المارة من رؤوسهم وحتى أخامص أقدامهم بدقّة تامة. ولم تكد دورية الإرشاد تلك تبتعد، حتى أمسك كلا الشابين بيد الآخر مرة ثانية، وبينما كانا يقتربان من والدي، راح يحملق إلى وجهيهما، فقد كانت ردّة فعلهما أمام دورية الإرشاد

توحي وكأنّ هذا الأمر قد بات شائعاً للغاية، بل أكثر شيوعاً من الخوف والاستسلام. عندئذٍ غمره الحزن الشديد، وطفق وابلٌ من الأفكار السلبية يغزو ذهنه مرة أخرى، لكنّه فور أن وصل إلى تقاطع بهلوي الذي قد تغيّر اسمه حالياً إلى تقاطع «ولي العصر»، وكما لو أنه شريدٌ تائه، راح المارّة يدفعونه غير آبهين به، ثم يواصلون طريقهم دون أن يعتذروا، فخال نفسه منفياً عن بلاده، وكأنه لم يحظَ ببيتٍ يسعه، ولم يستقرّ في رازان قطّ، وشعر بالغربة في طهران، فأرغم نفسه مجدداً على مشاهدة الأشياء الجيّدة التي ظلّت باقية على حالها كما هي، فقد كانت جامعة طهران لا تزال في مكانها، ولا يزال مسرح المدينة قائماً، وأشجار الدلب، وأسراب الغربان، كما ظلَّ هنالك أشخاصٌ مع كلّ هذه الأجواء الملبّدة بالخوف والاختناق، يشدّون على أيدي بعضهم بعضاً بعيداً عن أعين أولئك الرقباء، وكأنهم أرادوا أن يبعثوا الطمأنينة في نفوس الآخرين، ولا ينفكّون يردّدون على ألسنتهم دون أن ينبسوا ببنت شفة: «لا تقلق يا عزيزي، هذه الأيام العصيبة ستمضي!».

كان يسير في طريقه من جامعة طهران نحو ساحة «24 اسفند» التي قد تغيّر اسمها حالياً إلى ساحة الثورة، عندما لمح من بعيد حشداً من الناس متّشحين بالسواد. ومهما فكّر، لم يكن قد سمع في نشرة أخبار يوم أمس أي خبر عن تظاهرات احتجاجية، فلو كان قد سمع خبراً بخصوص ذلك، كان من المستحيل أن يخرج للشارع. داهمه القلق، وعزم أمره على الرجوع. بدأ يشقّ طريقه للعودة، وفي الوقت ذاته راح ينظر إلى المارّة الذين كانوا يواصلون المضيّ في الطريق المقابل له باتجاه تلك الحشود المتّشحة بالسواد. ولكنه لم يكد يمضي بضع خطوات، حتى ما لبث أن شعر بالسوء حيال نفسه هكذا دفعة واحدة، وشعر بالخجل من نفسه أمام كل هذا الخوف والقلق والكراهية لديه. فإذا كان خمسة وسبعون مليون

شخص استطاعوا أن يشهدوا تلك التظاهرات، والفقر، والفساد، وتنفيذ أحكام الإعدامات على الملأ العام، والاعتقالات الموسّعة، فلمَ لا يكون هو الآخر مثلهم؟ وإذا كانت بيتا قد تمكّنت من التعاطف مع هؤلاء المواطنين ومشاركتهم وجدانياً، فلِمَ لا يستطيع هو أيضاً؟ فكّر في قرارة نفسه متسائلاً: «ألم ألمح، من بين تلك الحشود التي كانت تتحرّك للتوّ تجاه ساحة 24 اسفند، شخصاً غيري قد انزعج من وجودهم؟ وهل قتلوا ابنتي فقط؟!». وتذكّر أنه كان قد طالع مؤخّراً في مكان ما خبراً يفيد بأنه في حقبة الثمانينيات فقط، قد لقي نحو خمسة عشر ألف شخصاً حتفهم وأُعدموا بسبب آرائهم السياسية؛ لذلك فلا يزال هنالك أيضاً المزيد من الآخرين، الذين كانوا لا ينفكّون يشقّون طريقهم ويواصلون بقاءهم بين تلك الحشود، بين الحزن والفرح، والأمل واليأس، ربما كان ذلك من أجل أملٍ ما؛ أملٍ في حدوث تغيير، أملٍ في حدوث تغيير جذري.

نظر إلى قدميه، كانتا لا تزالان تعودان به في الاتجاه المعاكس لحركة الحشود المتّشحة بالسواد، وحينئذٍ وقعت عيناه على أجمة وردة جوري غاية في الجمال منزوية في جانب ما على حافة الرصيف، كانت الأجمة البائسة تبدو وحيدة وغريبة وسط كل ذلك الدخّان والأبواق والرماد القاتم بشكل يوحي بالبراءة والوحدة. حينئذٍ فكّر في أنه ظلَّ طوال هذه السنين يقتفي أثر الجمال، الذي لم يأتِ بعد إلى هذه الدنيا، أو أنه قد رحل عن عالمنا قبل مئات من السنين؛ وتذكّر كيف كان خائفاً ومضطرباً من الفرار أمام هجوم الثوار الوصوليين، وفي أثناء بحثه عن هذا الجمال وتلك السكينة هرب من طهران، حتى وصل إلى رازان، لكن لم يكد يمضي وقت طويل حتى جاؤوا خلفه إلى رازان أيضاً. وفكّر في أنه لا يهمّ مقدار ما قطعته من مسافات كي تتمكّن من الهروب بعيداً، لأنهم سوف

يجدونك في النهاية، ويغرقونك في مستنقعهم الآسن. وها هو ذا الآن يرى نفسه في طهران مرة أخرى، ولا تزال قدماه تسوقانه نحو الهروب. وبينما كانت قدماه تسيران به في طريقه نحو الهروب بخطاً رزينة ومتأنية، رفع رأسه وطفق يتأمل وجوه الناس، وجوه المارة، والباعة الجائلين، وبائعي الكتب المتنقّلين، وهؤلاء المشرّدين الذين ألفوا أن يفترشوا الأرض للنوم في إحدى زوايا المباني القديمة، وهؤلاء المواطنين الذين قد انحنت ظهورهم، بيد أنهم ظلّوا يستحثّون خطاهم ذهاباً وإياباً، دون أن يلتفتوا أصلاً لتلك الحشود المتّشحة بالسواد، كما لو أن كل امرئ فيهم يعيش وحده في كوكب منعزل.

وفكّر أيضاً في أن مدينة طهران قد انتابتها كل الأعراض التي تظهر على أيّ مدمن، إذ إنها كمدينة قد أدمنت تصاعد ألسنة الدخان، وتفشّي الذل، والفقر، والركود بين جنباتها. وكانت أدنى محاولة لإقلاعها عن ذلك الإدمان، تُثير فيها الرعب والفزع. وكأنّ طهران قد باتت مثل مدمن يحاول الإقلاع عن الإدمان، لكن لم تكن لديها الإرادة الكافية لفعل ذلك، وفي كل مرة وبعد مدة وجيزة من الإقلاع، تعود إلى إدمانها أشد شراهة من ذي قبل. هكذا أدمنت تلك المدينة الرضوخ للظلم، كما أدمنت الفقر، وتأنيب الضمير، والحنين إلى الماضي والبكاء عليه.

وبينما كان يبتعد عن الحشود المتّشحة بالسواد، تذكّر السنين الماضية، تلك السنين التي قد اشتهر فيها ما يُعرف باسم الحركة الطلابية التي نشأت سنة 1999، والحركة الخضراء سنة 2009، في حين أنه لم يكن يعرف عنهما شيئاً إلا من خلال ما ورد بشأنهما من أخبار في الصحف، أو ما سمعه من بيتا فحسب. وفكّر في أنه على الرغم من أن كل هؤلاء الأشخاص الذين ظلّوا يساهمون بنصيب في استمرار الحرب والثورة، لم يكن أيٌّ

منهم ليسعى من أجل القبول بهما. لكن ما حدث بعد الحرب، أن كل الذي عُرف على مدار بضع سنوات، بمرحلة البناء، ومرحلة الإصلاحات، ومرحلة الاعتدال، ومرحلة العودة إلى العصر الذهبي للثورة، وغير ذلك من المسمّيات، كل ذلك لم يكن سوى وسيلة لتثبيت أركان النظام، حتى وإن كانت في جوهرها محاولةً بائسةً للتمرّد على هذا النظام. لقد أدرك أن هذا النظام لديه من القدرة ما يخوّله تحويل كلّ شيء ضدّه إلى شيء معه.

مرة أخرى نظر إلى قدميه، كانتا لا تزالان تسيران في الاتجاه المعاكس؛ كان يجب أن يفعل شيئاً، كان يجب أن يوقف هذا الهروب بطريقة أو بأخرى. فوقف أمام متجر لبيع الأسطوانات، وولجه بلا سبب، وراح ينظر إلى صفوف الأسطوانات المعروضة أمامه، لم يكن يعلم حتى اللحظة ماذا يفعل هناك، لكنه كان يحتاج إلى مزيد من الوقت ليتخذ القرار الصائب. وفي نهاية الأمر بادر البائعَ قائلاً: «لقد كنت غائباً عن هذا المكان منذ فترة، لذلك فإنني أبحث عن مطرب مختلف، أبحث عن مطرب لديه كلام جديد غير مألوف ليغنّيه إلى جانب موسيقا وصوت جيّدين».

وما لبث البائع الشاب أن رمق الزبائن بنظرة خاطفة، ليتأكّد من أنه ليس ثمة شخص مشتبه به يقف بينهم. ثم أسدل يده، وأخرج من تحت مكتبه، أسطوانتين، وقال: «هاتان الأسطوانتان للمطربين هُماي ومحسن نامجو». ثم أردف: «ولدينا مطربون آخرون، بالطبع».

كان والدي لا يزال حتى ذلك الوقت محتفظاً بيديه داخل جيبيه، فبدا وكأنه فعل ذلك لكيلا تتلوّث يداه بخطايا هذه المدينة وذنوبها، ثم أخرجهما في النهاية، وأخذ يتحسّس الأسطوانتين بريبةٍ وتردّد، ثم سأل صاحب المتجر قائلاً: «هل يمكنني الاستماع إلى الأسطوانتين قليلاً؟»، فأشار إليه البائع، كي يذهب معه إلى الغرفة الخلفية للمتجر، حيث كان

هنالك جهاز تشغيل للأسطوانات، ثم أدار له أسطوانة المطرب محسن نامجو التي يقول فيها:

استنساخ العرّاب من قبلنا نحن
الدولة المخزية من قبلنا نحن
والملفّات الضخمة لنا
هزيمة لاعب المنتخب الوطني لنا
النقد البنّاء لنا،
فربما يكون المستقبل هو الآخر لنا.

سُرَّ خاطر أبي لسماعه لتلك العبارات التي تحمل قدراً من النقد اللاذع، وبعد ذلك أدار مقطعاً من أغنية للمطرب هُماي يقول فيه:

ما هذا العالم الذي يُعدّ احتساء الخمر فيه ضلالاً؟
ما هذه الجنة التي يُعدّ تناول الحنطة فيها ذنباً؟
أخبرني بالحقيقة، أخبرني بالحقيقة،
أين فردوسك الأعلى؟
أحقاً هناك كلّ شخص سويّ وغير سويّ
يرى نفسه إلهاً؟

حينئذٍ لمع وميض السعادة في عينيه، وفكّر في قرارة نفسه: «أجل.. إنهم لا يزالون على قيد الحياة ويُبدون ردة فعلهم». ثم سأل أبي البائع: «هل تغني النساء أيضاً؟»، فأجابه البائع الشاب قائلاً: «أجل، ويغنين بأسلوب رائع للغاية أيضاً، ولكن في الخفاء». بعد ذلك أحضر أسطوانتين أخريين لإحدى الحفلات النسائية السرّيّة، وأعطاهما لأبي، فاشترى أبي الأسطوانات الأربع كلّها بحماسة متقدة، ثم شكر البائع، وما لبث أن خرج من المتجر. كان قد اتخذ قراره الآن أنه سوف يعود إلى ساحة

الثورة. وها هو ذا قد عاد بالفعل، وبينما كان ممسكاً بكيس صغير من النايلون يحتوي على الأسطوانات الأربع، راح يتقدّم باتجاه تلك الحشود المتّشحة بالسواد بخطا سديدة. وكلّما كان يقترب أكثر، قلَّ معدل الخوف لديه تدريجياً. كان المتظاهرون يرفعون أيديهم عالياً ويهتفون تماماً مثلما فعلوا مع بداية الثورة، غير أن هذه القبضات لم تكن تشبه تلك في شيء، فتلك القبضات المحكمة والمفعمة بالقوة والواثقة كانت لشخص يمكنه بمنتهى البساطة أن يقتل إنساناً آخر من أجل معتقداته، أو على الأقل، يَشي بجاره أو زميله في العمل أو حتى بابنه ليُزجّ به في السجن حتى يُعدم. أما هذه القبضات.. فقد كانت واهنة وعاجزة، كما لو أنها كانت قد جاءت لتؤدي وظيفتها فحسب، ولم تكمن وراء هذه القبضات أيّ ثقة أو إيديولوجيا محدّدة، بل كانت وراءها أجرة تافهة تكفي لسدّ كلفة المعيشة فقط، ولم تعد أكثر من كونها محاولة بائسة لتثبيت نفسها في ركن بائس وضيّق وضعيف للسلطة. ورغم قلّة عدد المتظاهرين، إلا أنهم كانوا قد أغلقوا طريق الشارع الرئيسي، وعطّلوا حركة السير والمرور، على الرغم من أنهم لم يتجاوزوا مئة شخص. أما بقية المواطنين فكانوا واقفين على الرصيف، وبينما كانوا يتهامسون بعضهم مع بعض أو يعقدون أذرعهم أمام صدورهم، كي يحافظوا لا إرادياً على إبقاء مسافة داخلية تفصلهم عن تلك الحشود، أخذوا ينظرون إلى ذلك الحشد الواهن بفتور وفي حالة من الصمت. كان هو الآخر واقفاً، ولاحظ أن ربطة عنقه وقميصه الأبيض المهندم كانا لافتين لأنظار من حوله، غير أنه لم يهتمّ لذلك. وراح أحد الهاتفين يقرأ بغير حماس شعاراتهم المدوّنة على ورقة مردّداً: «الموت للإنجليز!»، فأخذت بقية الحشود التي كان أغلبها إما من الشيوخ أو من الشباب خفيفي اللحية يردّدون خلفه: «الموت للإنجليز!»، بينما وقف أبي

في إحدى الزوايا، وتجرأ أخيراً على أن يسأل شخصاً واقفاً إلى جواره: «ما مناسبة هذه المظاهرة؟»، فأجابه رجل في منتصف العمر يملك مكتبة في المكان نفسه: «إنها على ما يبدو احتجاج على الرسوم الكاريكاتورية المسيئة لسماحة السيّد التي نُشرت في إنجلترا». بعد ذلك ابتسم ابتسامة تنمّ عن سخرية وأردف: «إن أفراخ حزب الله هذه تختلق بين الحين والآخر ذريعة ما، لتستعرض نفسها».

كانت الأصوات الحثيثة للهاتفين لا تزال تتردّد، وإذ فجأة طفق بعض الناس بالصراخ والصياح، حيث كانت جماعة ترتدي الأكفان(*)، وتحمل ملصقاً ضخماً لعلي الخامنئي، قد ترجّلت من عدة عربات بيضاء اللون، وأوصلت نفسها بصحبة عدد من الملالي المتحمّسين والمنفعلين إلى أول صفّ في تلك المظاهرة. وبينما كانوا يجأرون بوجوه منتفخة من فرط الغضب، ويضربون على رؤوسهم، هتفوا قائلين: «الموت لمعادي ولاية الفقيه.. الموت لخادم الإنجليز.. الموت لخادم أميركا!». وكان قد خُطَّ على ما يرتدون من أكفان شعارات: «لبّيك يا خامنئي، الولاء التام لولاية الفقيه، روحي فداء للقائد». ومرة أخرى صاحوا جميعاً بصوت واحد عالياً هاتفين: «طاعة ولي الأمر، هي الضامن الوحيد لانتصارنا».

كان المارة واقفين على الرصيف في حالة أشدّ خوفاً وتوتّراً من ذي قبل، ويحدّقون إلى هؤلاء المحتجّين. ومع تصاعد حدّة القلق شرع بعض أصحاب المحال بسحب السدائل اللفّافة لمتاجرهم. بدا الجوّ العام حينئذٍ متوتّراً، فهمس الرجل الذي كان في منتصف عمره إلى والدي قائلاً: «يبدو

---

(*) مرتدو الأكفان: جماعة عدوانية متطرفة شُكّلت بعد الثورة، أعضاؤها على استعداد أن يَقتلوا ويُقتلوا لمصلحة النظام، وارتداء الكفن ما هو إلا إشارة لهذا الاستعداد. (م).

أن هؤلاء المتظاهرين خطرون ومثيرون للشغب، لذلك فمن الأفضل أن نلج إلى داخل المتجر». ولكن في اللحظة ذاتها التي وقعت عينا أحد هؤلاء المكفّنين على ربطة عنق أبي، ما لبث أن وثب من مكانه جامحاً نحو أبي، ثم انقضّ عليه، واجتذبه من ربطة عنقه، وبينما كان قد فتح فمه بأقرب ما يمكن في وجه أبي، ليبصق في وجهه، صرخ فيه قائلاً: «هل ارتديت ربطة عنق لتظهر بها عبوديتك وخنوعك للإنجليز؟ إن ربطة العنق هذه لحمارٍ مغفّل، بل لجاسوس! أمسِكوا هذا الجاسوس!»، ولم تكد الكلمة تخرج من فمه، حتى داهمه أيضاً نحو ثلاثة من المكفَّنين الآخرين. وقعت كل الأحداث تباعاً بسرعة شديدة لدرجة لم تكن لتصدّق. إذ تحلّق المكفَّنون حوله، وأخذوا يروّعونه، ثم ما لبثوا أن أمطروه بوابل من البصاق، وجرّوه معهم صائحين: «أيها الجاسوس اللعين.. هؤلاء هم الذين يعرّضون الثورة للخطر.. أمسِكوا به.. خذوه!».

حينئذٍ حاول نحو ثلاثة أشخاص من أولئك الواقفين على الرصيف التوسّط، وأن يخلّصوه من بين أيديهم، وأمسك صاحب المكتبة يدي أبي بإحكام، وصرخ في هؤلاء الرجال قائلاً: «عليكم أن تخجلوا من أنفسكم، أي ذنب اقترفه هذا الرجل؟ دعوه وشأنه!».

لكن هذا الأمر دفع هؤلاء المكفَّنين المحتجّين -الذين كانوا يبحثون عن ذريعة يُظهرون بها أنفسهم، ويمارسون ترويعهم وإرهابهم- إلى الإمساك بكليهما معاً، وبدفعهما تارة والتعدي عليهما بالضرب تارة أخرى، حتى نجحوا في الزجّ بهما في إحدى سيارات الدفع الرباعي ليأخذوهما إلى مكانٍ ناءٍ منعزل لا يعلم به إلا الله. أما بقية المارة والمتفرّجين على الرصيف فما لبثوا أن عادوا إلى رشدهم أيضاً، وسرعان ما اختفوا في محلّاتهم، وأزقتهم ذات المنعطفات المتفرّعة.

وفي السيارة، خلع أحدهم كفنه وبشجّة واحدة شقّه إلى نصفين، وعصب به عيونهما. كان كلاهما يشعر بالفزع الشديد، حتى إن صاحب المكتبة الذي كان صوته مهيباً قبل دقائق، كان يتحدّث الآن بصوت مشوب بالخوف والتوسّل قائلاً: «سيّدي، أي ذنب اقترفنا؟ إننا أصلاً لم ننطق بكلمة واحدة!»، فصرخ فيه: «اخرس، لقد أكلت الخراء بدفاعك عن رجل متفرنج موالٍ للغرب».

فتحدّث أبي، وقال: «أيها السادة، إنني لا أعرف هذا السيّد مطلقاً، اتركوا هذا السيّد، فإنه لم يقترف أي ذنب يُذكر».

تداخلت أصوات الصياح بعضها مع بعض مجدداً، واستمر السباب والصفع واللكم، حتى فرملت السيارة بغتة بصوتٍ عالٍ، وفُتح الباب، ثم ما لبث أن رُكل صاحب المكتبة من السيارة. وفي اللحظة الأخيرة أخرج أحدهم رأسه من نافذة السيارة، وصاح قائلاً: «اغرب عن هنا، أيها القذر، ولتُرِنا في المرة القادمة كيف ستجرؤ على أن تفتح فاك لتهذي بأيّ هراء!».

ومرة أخرى واصلت السيارة طريقها منطلقة؛ بيد أن أبي شعر بارتياح، لأنهم قد تركوا صاحب المكتبة يمضي إلى حال سبيله. وحينئذٍ انقضّ أحدهم على الكيس النايلون الخاص بالشراء، وأخذ يعاين الأسطوانات الغنائية، ثم قال: «مرحى.. حسناً.. ألم أقل إن هذا الرجل جاسوس؟! أرى أنك تستمع إلى أسطوانات ممنوعٌ تداولها!».

فقال أبي: «لقد ابتعت كل هذه الأسطوانات الغنائية من شارع الثورة نفسه، من بائع أسطوانات لديه ترخيص قانوني بالبيع من قبل وزارة الإرشاد التابعة لكم».

فردَّ الرجل قائلاً: «أيها الرجل، إن الصيدلية تبيع سمّ الفئران أيضاً، فاذهب إذاً إلى هناك، واشترِه، ثم تناوله!».

وأمام هذه المنطق الأعمى لم يجد أبي أيّ ردّ ليجيبه به. كانت السيارة تتحرّك داخل الأزقة ومنعطفاتها بسرعة أدنى، وبعد فترة من الوقت قال أحدهم، وكان صوته لا يزال يشبه صياح دُييك صغير، بلطف مثير للقلق: «يا سيّدي الحاج، هل مضت كل هذه السنين منذ قيام الثورة، بكلّ هؤلاء الذين استشهدوا على أرض تلك البلد، أو حاربوا أو لقوا حتفهم، حتى تأتي أنت في نهاية المطاف وترتدي ربطة العنق نفسها، التي قد ارتداها ذاك الشاه الملعون من قبل، وتستمع إلى مثل هذا النوع من الأسطوانات؟!».

فأجابه أبي بهدوء لم يعهده في نفسه من قبل: «عن أي ثورة وحرب وشهيد تتحدّث وأنت لم تشهد بنفسك شيئاً من ذلك على الإطلاق؟ بل لم تكن قد جئت إلى هذه الدنيا أصلاً».

وفي مقابل ذلك أجابه الرجل بحدّة غير متوقّعة قائلاً: «يا لك من رجل بذيء اللسان! هيا الآن أخبرني، في أيّ بلد كنت حتى الآن؟!».

فكّر لوهلة أن يكذب عليهم، ويذكر لهم اسم إحدى الدول، ربما يحلّون عنه، لكنه تذكّر أنه أصلاً لا يحمل جواز سفر، لكي يحاول أن يثبت لهم شيئاً مما سيخبرهم به، فقال: «في هذا البلد ذاته، يا سيّدي».

فأردف أحدهم: «إذاً اعترف أنك من جماعة الحكم الملكي، وكنت تنشر الدعاية السيئة ضد النظام الحاكم. مع أي جماعة أو حزب كانت لديك علاقات؟!».

حينئذٍ لم ينبس أبي ببنت شفة، وكل ما فعله هو أن رفع رأسه، وأخذ ينظر من تحت عصبة عينيه، حتى دخلوا موقف سيارات إحدى الشقق العادية، حيث كان في استقبالهم جنديان كانا قد فتحا الباب من الداخل وأغلقاه في الحال، ثم صعدا به عدة طوابق، ودفعا به داخل الممرات، وأجلساه في النهاية على كرسي داخل إحدى الغرف، وربطا يديه خلف

ظهره، وأزالا عصبة عينيه. كانت الغرفة مظلمة، وبعد بضع دقائق فُتح الباب، وسُلّط على رأسه ضوء خافت. كانت تلك الكتب والأسطوانات التي كان قد ابتاعها، موضوعة على الطاولة أمامه. وقبل أن يرى الرجل القادم نحوه، سمع صوته بينما كان يصرخ في أحد الأشخاص موبّخاً إياه: «من الذي قيّد يدي هذا الرجل؟ فكّوا قيده على الفور!». ثم فُتح الباب، ودخل أحد الأشخاص ليفكّ قيد يديه، وبعد ذلك خرج. وحينئذٍ جلس أمامه رجل في منتصف العمر ذو لحية خفيفة مشمّراً كمّيه حتى أعلى مرفقيه، وكان يظهر بوضوح على جبهته زبيبتين داكنتين، فقد كان معروفاً أنه بعد سنوات من قيام الثورة، كانت إحدى وسائل المنتمين لجماعة حزب الله للمشاركة في السلطة هي طبع رأس ملعقة ساخنة على جباههم كي يثبتوا أنهم من كثرة ما مرّغوا جباههم على حصاة السجود في أثناء الصلاة، تكوّنت على جباههم هكذا قشرة داكنة. ويزعم الجميع، كما كان واضحاً في صور الصحف وفي البرامج التليفزيونية أنه لا يوجد أي شخص ينتمي لهذا النظام إلا ويشغل منصباً مهماً ومقاماً رفيعاً، ومطبوعاً على جبهته أثر للملعقة الساخنة، ويمسك بمسبحة في يده، ويرتدي قميصاً بياقة الملالي البارزة عديمة القبة.

بدأ الرجل يقلّب الأسطوانات، وبعد ذلك وضع أمامه ورقة وقلم حبرٍ جافٍّ أزرق «بيك»، وقال: «اكتب!».

فسأله أبي مندهشاً: «أيّ شيء أكتب؟!».

فأجابه الرجل: «أيّ شيء تتذكّره!»

فابتسم أبي ابتسامة تنمّ عن سخرية، وقال: «إن رجلاً في مثل سني يتذكّر أحداثاً كثيرة، لدرجة أنه يفوق تحمّلك أنت ومؤسستكم الشاسعة والممتدة كلها».

قطّب الرجل جبينه أكثر فأكثر، وقال: «من الواضح إذاً أن لديك معلومات بشأن مؤسستنا. قيّد هذا في الورقة أيضاً».

فأجاب أبي: «إن مثل هذا الأمر لا يتطلّب توافر المعلومات، فكلّ طفل يعاني من نظامكم بمجرّد أن يبدأ بالذهاب إلى المدرسة».

فتساءل الرجل: «كيف؟».

فأجابه: «لقد أنشأتم قاعدة عسكرية ضخمة تضم نحو عشرين ألف جندي من قوات البسيج في كل مدرسة وقرية نائية، بواسطة تلك المساجد والتكايا التابعة للحسينيات والمجمّعات الإسلامية».

فقال الرجل: «إنك إذاً لا تؤمن بالله أيضاً، هل تعلم ما عقوبة اقتراف هذا الذنب؟ عقوبته الإعدام! لأنك مفسد في الأرض».

شعر أبي بهدوء لم يسبق له مثيل، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، ثم دفع بالورقة والقلم نحو الرجل، وقال: «إذاً ما دامت جريمتي وعقوبتي واضحتين، فالأمر لا يستحق عناء الكتابة».

فزَّ الرجل من مكانه غاضباً، وألقى كرسيّه في إحدى الزوايا، ثم صرخ فيه: «كأنك لا تفقه شيئاً مما تقول. بعد مضيّ نصف ساعة أخرى من الآن، يجب أن تكون قد فرغت من كتابة هذه الورقة». ثم اتجه إلى الباب ممسكاً الأسطوانات بيده، وفجأةً تغيّرت عضلات وجهه، إذ ارتسمت عليه ابتسامة لا معنى لها، وقبل أن يغلق الباب خلفه، قال: «أفصِح عمّا في قلبك!»، وأغلق الباب خلفه بقوة.

جال أبي ببصره في أنحاء الغرفة، لم يكن هنالك سوى جدار مزوّد بباب خشبي من خلفه، ثم نظر إلى الورقة والقلم، فابتسم وفكّر في أنه أراد أن يكتب مذكّراته منذ سنوات، ولم تكد تمضي بضع دقائق، حتى نادى بصوت عالٍ: «أريد ورقاً!». وعلى الفور أحضر له شخص من خلف الباب

-يبدو كما لو أنه كان يسترق السمع- عدة أوراق. وبعد أن مضت ساعة أخرى نادى مرة أخرى بصوت عالٍ قائلاً: «أريد ورقاً». فأحضر له الجندي الواقف خلف الباب ذاته مجموعة أوراق. حتى إن مضت ساعتين أخريين من الوقت، نادى بصوتٍ عالٍ من جديد: «أريد ورقاً، أريد المزيد منه، والقليل من الماء!».

هذه المرة أحضر الجندي مذهولاً، حزمة مغلقة من الأفراخ الورقية تبلغ خمسمئة ورقة، حجم كلّ ورقة فيها A4، لم تُفتح بعد ووضعها فوق الطاولة مع دورق وكوب ماء كبير من البلاستيك. وقبل أن يغادر، كما لو أنه قد أشفق على سذاجة أبي، بينما كان منهمكاً بالكتابة على حزمة الورق، نظر إليه الجندي وهزّ رأسه بندم، وكأنه كان يريد أن يقول: «يا لسوء حظك، فمع كل سطر تخطّه بيدك، تمنحهم مزيداً من المبرّرات التي تقودهم إلى استجوابك!».

ولكن يبدو أن أبي كان يفكّر في أشياء أخرى، أشياء فاتنة تسلب لبّه، أهمّ من نفسه؛ من كل ماضيه وماضي عائلته، أهم من كل ما مضى في طهران ورازان. أكان لا يزال ثمة شيء آخر ليفقده؟!

فكَّ ربطة عنقه، وفتح زرَّي كمَّيه، ثم شمّرهما. لم يدرك كيف مضى عليه الوقت، ظلَّ يكتب ويكتب، لدرجة أن النوم قد غلبه في أثناء الكتابة. وفي الصباح الباكر، استيقظ على صوت المحقق الذي كان يجلس قبالته، ويطالع الأوراق. حينئذٍ قال المحقق: «إذاً لقد أُعدم ابنك، ولقيَت ابنتك مصرعها محترقة إثر اندلاع الحريق، وهربت زوجتك!».

لم ينبس أبي ببنت شفة، إلا أنه شعر بطعم سيّئ جداً في فمه، فأراد أن يحتسي شربة الماء المتبقية في الكوب، غير أن المحقق ضرب أسفل الكوب فانسكب الماء على وجهه وثيابه. وصرخ في وجهه قائلاً: «من

الواضح أنك لم تختبر بعد كيف تنهال قوّات الحرس بعصيّها على المرء ضرباً، حتى تريد العبث معنا!».

ومرة أخرى لم ينطق أبي بكلمة، فصاح فيه الرجل بأعلى صوت: «هل قد اختلقت لنفسك قصة؟ وهل تحوّلت أختك إلى جنية، وابنتك إلى حورية بحر، وقبل أن تمضي لتعيش في البحر أخرجت إلى هذه الدنيا من بطنها سمكاً وأصدافاً؟! وهل هطل الثلج الأسود وصلّت الأرواح الزرادشتية من أجلكم؟! هل قد أظهرت أيضاً لكم إحدى هذه الأرواح خريطة الكنز؟!»، وبعد ذلك استسلم لنوبة هستيرية من الضحك، وقفز من مكانه على حين غرة، وبينما كان قد وضع كلتا يديه على الطاولة صرخ قائلاً: «كنت أتصوّر أنك مع ذلك الشعر الشائب، وتلك التجاعيد المتغضّنة، يجب أن تكون رجلاً ناضجاً حكيماً ولا يصدر عنك إلا كلام منطقي، ولكنني الآن أرى أنك قد ألّفت قصصاً للأطفال، خاصة ما كتبته بشأن روح ابنتك الميّتة التي ما زالت تعيش معكم أيضاً! هاهاها... كان يجب أن يأخذوك إلى مستشفى الأمراض العقلية لا أن يجلبوك إلى هنا».

بعد ذلك التفت نحو الباب وصاح قائلاً: «أيها الجندي». فدخل الجندي مؤدياً أمامه التحية العسكرية. وبينما كان المحقق قد ضيّق عينيه وجفنيهما، أدنى وجهه من أبي، وخاطبه قائلاً: «كنت أريد أن أدعك ترحل بسرعة، لأنهم بالأمس انتشلوك من بين الحشود وجاؤوا بك إلى هنا من دون دليل، لمجرّد أن يعبثوا ويستمتعوا؛ ولكن الآن في ظلّ وجود هذه الهراءات الفظّة المسيئة التي قد كتبتها، لا بدّ أن أؤدّبك أولاً، وبعد ذلك سأتركك تمضي في إثر حياتك البائسة». ثم التفت إلى الجندي، وقال: «اسقه بعض الماء البارد، يبدو وكأنه عطشان!».

لم تكد تمضي بضع ثوانٍ بعد أن خرج من الباب حتى جاء رجلان ضخما الجثة، وجرجرا أبي إلى مكان ما تحت الأرض، وقيّدا كلتا يديه من خلف بالأصفاد القبانية، ثم دخل المحقق مرة أخرى. وبينما كان أبي يتلقى الضربات المبرحة، ويشعر بمذاق الدم النازف في فمه، التفت المحقق إلى الرجلين قائلاً: «إنني لا أزال بحاجة إلى يده اليمنى». كان هذا إشارة منه لكي ينهالوا بالضرب على يده اليسرى، وجانبيه وقدميه الواهنتين بواسطة قبضة المجراف.

وفي إحدى المرات عندما استعاد وعيه، وجد نفسه ملقى على أرضية زنزانة أسمنتية مظلمة، وأسنانه تصطكّ بعضها بالبعض الآخر. وفي اليوم التالي، رأى نفسه طريح الفراش في المستشفى، بينما كانت يده اليسرى وإحدى قدميه ملفوفتان بالجبس. ولكنه كان أكبر سناً من أن يستطيع جسده تحمّل كلّ هذه الآلام والكسور، وقد استشرى الألم في كل أنحاء جسده، حتى إن إحدى الممرضات قد أسعفته بحقنة مسكّنة، وحقنته بها، فما لبث حينذاك أن غطَّ في نوم عميق، وحلم، فرآني أنا وسهراب وبيتا في حلمه، إذ كنا جميعاً معاً نزلاء زنزانة واحدة، وكان سهراب قد أمسك بيديه، وأخذ يقبّلهما بعينين مغرورقتين بالدموع، وبعد ذلك أشار إلى تلك الكوّة القريبة من السقف، وقال: «إن السبيل الوحيد أمامك هو أن ترنو ببصرك نحو السماء، فعادةً ما يمرّ من هنا أحد الطيور بين الفينة والأخرى». ثم داعبت بيتا كلتا قدميه المكسورة والمصابة، وقالت: «تذكّر قصص الطفولة من حين إلى آخر». أما أنا فكنت قد عانقت كتفيه من الخلف، تماماً مثلما كان يعانقني من الخلف حينما كان يثبّت أصابعي بالشكل الصحيح على أوتار آلة التار، ونعزف معاً، ثم قلت له: «انتظرني!».

حقاً أردت أن يعلم أبي أنني سوف آتي لزيارته قريباً، في أي وقت

يشاء. وهل يُعقل أن يُترك مثل هذا الرجل الهرم على هذا النحو بمفرده بين أيادي هؤلاء الظالمين؟ لذلك ففي جلسة الاستجواب التالية، عندما سمع المحقق أن أبي مستعدّ لاستدعاء روحي، لكي يؤمن بوجودي، باغتته الصدمة، وما لبث أن بلع ريقه ذعراً، وقهقه بصوت عالٍ محاولاً أن يواري به خوفه، وقال: «قل لها أن تأتي، كي أراها!»، ولم يكد يفرغ من كلامه، حتى حضرتُ في ذلك المكان، بحيث إنني أطفأت الضوء في الحال، وانقضضت عليه وأمسكت بقميصه ومزّقته إرباً إرباً، ووجّهت إليه سيلاً محكماً من الصفعات، ورطمته هو وكرسيّه معاً في عرض الحائط.

أكاد لا أصدّق أنني أملك مثل هذه القوة، أظن أن مشاعر الكراهية تجاههم كانت هي الدافع وراء أن أبدو قوية إلى هذا الحد. وما إن صرخ المحقق خوفاً، حتى داهم المكان حارسا أمن مسلّحان، لكنهما كلما كانا يضغطان على مفتاح الإنارة، لم تكن الإضاءة تشتعل، فأضاءا على الفور مصباحاً يدوياً، وما لبثا أن رأيا أبي بيده وقدمه المكسورتين جالساً كما هو في مكانه، بينما كان المحقق قد انكمش في إحدى الزوايا، والدماء تسيل على وجنتيه وظهره، كما أن قميصه كان ممزّقاً.

ومنذ ذلك الحين، لم يعد أبي يرى ذلك المحقق. أما المحقق التالي، فقد كان رجلاً عريض المنكبين، وذا شعر أسود قصير للغاية، ويبلغ من العمر نحو أربعين عاماً. وفي أول لقاء بينهما، وبينما كان يتصفّح أوراق ملف والدي الذي قد أصبح الآن ملفاً دسماً للغاية، قال لأبي: «إذاً أنت على اتصال بعالم الأرواح والجن. إنك تعلم أنه قد ذُكر في القرآن الكريم أن عقوبة السحرة هي الموت. لكنني سوف أمنحك فرصة أخرى لأجل كبر سنّك. ها هي ذي الورقة، وها هو ذا القلم، لقد حافظنا على يدك اليمنى سليمة، كي تتمكّن من الدفاع عن نفسك. إننا كما يبدو أناس طيّبون للغاية!

اكتب، ولكن هذه المرة اكتب الحقيقة!». وخرج من الغرفة، ربما كان خائفاً من أنه إذا بقي لفترة أطول بالغرفة، فسوف تحلّ عليه كارثة أخرى بسببي. وبينما كان أبي منهمكاً بالكتابة، وقد استغرقت كتابته هذه المرة أيضاً عدة أيام. كان المحقق يأتي إلى الغرفة يومياً، ويظلّ يطالع الكتابات السابقة، ثم يطرح بضعة أسئلة بشأنها، ويكتب شيئاً ثم يطلب من أبي أن يجيبه عن تلك الأسئلة فيما لا يزال يكتب بقية مذكّراته أيضاً.

وراح أبي يكتب للمرة الثانية، لكنه هذه المرة حذف كل الأجزاء التي كان قد فطن إلى أنها غير قابلة للاستيعاب في عقولهم المجدبة. وأضفى على روايته مزيداً من التفاصيل والجزئيات الجديدة المزيّفة لتصبح قابلة للتصديق تماماً؛ فهذه المرة لم يكتب ثانية أي شيء عن الثلج الأسود، وعن روحي، وعن رحيل العمّة توران وأولادها مع مجموعة من الجن، ومطارحة بيتا وعيسى الغرام داخل دوائر النيران. كما لم يكتب في هذه النسخة الجديدة المعدّلة مرة أخرى عن البئر والحديقة المسحورتين اللتين تملكهما حميرا خاتون، وعن عشق عفّت الجنوني، وتعويذة النوم، ونار رازان المقدّسة وكل هذه الأحداث التي كنت قد رويتها له سابقاً. كذلك فإنه لم يكتب عن صلوات الكهنة الزرادشتيين القدماء، وتزاوج الأبقار والديكة مع الحيوانات المفترسة والطيور في أيام هطول الثلج الأسود. ولم يعد يكتب لهم عن أن روزا كانت قد تمكّنت ذات مرة من السير في الهواء فوق شارع ناصر خسرو عبر كتاب المسافر لسهراب سپهري. ولم يكتب لهم أن أخاه خسرو لديه قدرة تخوّله أن يظهر أو يتوارى كما يشاء عن عيون الجميع. وعلى العكس من ذلك كله، كتب أن سهراب قبل اعتقاله كان لديه توجّه سياسي واضح ضد النظام، وأن بيتا قد أصيبت بالجنون، وتمكث حالياً في إحدى مستشفيات الأمراض

العقلية، بينما لا تزال تعتقد أنها قد تحوّلت إلى حورية بحر، أما زوجته روزا المصابة بمرض الزهايمر، فقد باتت في عداد المفقودين. كتب إنني قد متُّ بالنيران التي كان الثوار قد أضرموها في بيته، وأنه لم يرَ جسدي مرة أخرى حتى. وكتب لهم عن أحداث كثيرة للغاية، الأحداث التي كانت بعض أجزائها من صميم أحلامه وأمنياته. وكتب إنه هو نفسه كان قد بقي في بيته لم يبرحه طيلة سنين عديدة إثر إصابته بالاكتئاب؛ حتى انطلق أخيراً وما لبث أن سافر إلى أقصى أنحاء البلاد، وألّف كتباً سياسية مناهضة للقانون والنظام لفئة الشباب وللمراهقين، ودرَّس أفكاره لهم. كما كتب لهم إنه لم يكن مؤيّداً للملكية، ولا شيوعياً، ولا مجاهداً، بل إنه من المطالبين بالديمقراطية، ويعتقد أن أموراً من قبيل الدين، وطريقة ارتداء الثياب، والأحزاب، ووسائل الإعلام يجب أن تخضع للحرية الشخصية، حتى يمارس الناس حق الاختيار. وكتب لهم إنه لم يبقَ أيّ فرد من عائلته على قيد الحياة سواه، وإنه كان قد اختلق في ذهنه قصة أخيه خسرو بالكامل، وليس لخسرو وجود في أرض الواقع على الإطلاق، كما أنه لم تكن لديه البتّة أختٌ اسمها توران.

وعندما فرغ من الكتابة، اطّلعوا عليها، وفي اليوم التالي أخذوه مباشرة إلى سجن إيفين، ولم يُستجوب مرة أخرى قطّ، ولم تطأ قدماه أي محكمة على الإطلاق. وطوال الخمس سنوات التالية تعايش في سجنه مع فكرة أنه في النهاية سوف يأتيه شخصٌ ما ذات يوم، ويقول له إن موعد المحاكمة قد حان. وحتى في اليوم الذي أُطلق فيه سراحه أخيراً بعد أن قضى في السجن مدة خمس سنين وستة أشهر وعشرة أيام -وذلك بسبب تقدّمه في السنّ- ما لبث أن اعتقد أنه سيذهب إلى المحكمة لمعرفة سبب اتهامه بالضبط، في حين أنهم قد أطلقوا سراحه تحديداً عندما تأكّدوا من أنه قد

فقد مخيّلته تماماً، وسوف يموت عاجلاً أم آجلاً، وأنه لا يمثّل أي تهديد بالنسبة للنظام الإسلامي المقدّس من كلّ الأنحاء.

ولم تكد تمضي فترة طويلة بعد عودة والدي إلى منزل أبيه، حتى حلمتُ ذات يوم بأنني نائمة وأرى في حلمي أن أبي قد توفي. ربما بعد مرور كل تلك السنين قد حان أجله، ولم أعد بحاجة إلى طلب الإذن من أبي بعد الآن. فلو أن سهراب لم يختفِ على هذا النحو، ولو تمكّن ذهن بيتا السِمكي من تذكّرنا، ربما كان من الممكن أن يجمع شمل الجميع مرة أخرى، وكنا مثل تلك السنوات البعيدة للغاية، نجلس قرب مدفأة النار، ونحتسي الشاي المدخّن معاً بينما نصغي إلى خوار الأبقار، وثغاء الخراف. ربما كان لا يزال بإمكاننا صنفرة ذلك الصدأ الذي يغطي قفل باب البستان، وتزييت المفصّلات الصدئة، والقيام بأعمال البستنة مرة أخرى، وحراثة الأرض، ولتمكنّا من بذر حبوب القمح وزراعته مثلما كان الحال من قبل، أو كنا على الأقل نجلس جميعنا في الإيوان، وننشد أبياتاً متفرّقة من قصائد الشاعر بيجن جلالي أو أحمد شاملو.

وفي نهاية الأمر قرّرت أن أزور أبي. كان مستيقظاً ويمكث في غرفة نومه بمفرده، وعندما رآني لم يُفاجأ بالأمر، بل شعر بالسعادة. وبما أننا لم نكن قد التقينا منذ سنوات، فلم أعد بحاجة إلى تأمل التجاعيد المتغضّنة في عنقه ووجهه، أو حتى تأمل شعره وشاربه اللذين قد اعتلاهما الشيب بالكامل، كي أفهم أنه لم يعد أمامه متسع من الوقت. فمنذ أن أُطلق سراحه من السجن، لم يكن لديه شيء ليفعله سوى الجلوس بجانب النافذة، والتحديق إلى الفناء، وقد وهن حتى إن خصلات شعره الأبيض نفسها تساقطت ولم تبقَ منها شعرة واحدة. لذلك كنت أشعر بالخجل من أنني كنت لا أزال في نظره فتاةً تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، في حين كانت

أعراض الشيخوخة والهرم قد ظهرت عليه بوضوح على مدار السنين. ربما يجب عليّ الاعتراف أنني توقّعت أنه عندما أخبر أبي بعودة أمي منذ وقت طويل للغاية، فإنه سوف يحزم أمتعته ويمضي منطلقاً، لكنه جلس هكذا على الكرسي، وسمح لي بأن أجلس إلى جواره في صمت تام. لم يقم من مكانه -على الرغم من أن عظامه الهشّة لم تعد تمكّنه من القيام بذلك مرة أخرى- ولم يجمع أغراضه، وحتى لم يصرّ على أن أبقى عنده لفترة أطول. كلّا! وكلّ ما طلبه هو أن نحتسي الشاي معاً وحسب.

# الفصل السادس عشر

كانت أمي قد عادت إلى البيت ببرود غير متوقّع. ففي اليوم الأول، وبنشاط وهمّة لا مثيل لهما، راحت تنفض التراب والغبار عن سطوح الأرفف والكتب والسجاد، ثم ولجت غرفة نومها مرة أخرى بعد سنوات من الغياب، ذلك المكان الذي راحت تستعيد فيه ذكرياتها المحتشدة للتوّ، ثم ما لبثت أن سكبت الزيت والجير على النمل، وفتحت النوافذ، واقتلعت بالمنجل تلك السراخس والحشائش الفضولية التي قد نبتت في كل مكان؛ كان واضحاً أنها كانت قد تعلّمت منذ وقت طويل ألّا تستسلم أمام الحياة. وذهبت لتقتفي أثر حوض الماء الذي كان أبي قد أنشأه سلفاً لأحفاده، فرأت تلك الأسماك التي كان بعضها قد صار بعرض الحوض، وقد ازدادت تلك الأسماك عدداً حتى كادت تنزلق بعضها على بعضها الآخر. ومع أنها كانت في غاية السرور لرؤيتي، فلا يخفى أنها من أجل معاقبة نفسها، لم تكن تنوي أبداً طرح أيّ سؤال عليّ؛ إذ أرادت أن تعذّب نفسها كلّ يوم بتصوّرها لكل الاحتمالات الواردة حول مصير بيتنا، وأبي، وأن تشهد بنفسها كيف تزيد من تجاعيد وجهها يوماً بعد يوم. وحتى عندما رأت أنهم قد بنوا جداراً أسمنتياً مكان باب الحمّام واقتلعوا سقفه، وقد

نمَتْ فيه أزهار اللوتس بكثرة، لدرجة أنها قد تدلّت من السقف ووصلت إلى الفناء الخلفي للمنزل، ومن هناك شقّت طريقها نحو حوض الماء، لم يدفعها كل ذلك أيضاً إلى أن تطرح عليّ أيّ سؤال. ومع كلّ ما تجرّعته من آلام كنت أشعر أنها قد تغيّرت على نحوٍ جذري؛ إذ لم تعد ابنة طهران المدلّلة والفريدة التي لم يكن أبي يخاطبها سوى بعبارات الحبّ والودّ الرقيقة، بل صارت الآن سيّدة محنّكة وثكلى بالجراح، وقويت عظامها وازداد تحمّلها، وباتت تسمح للمآسي اليومية أن تنفذ إلى سويداء قلبها، دون أن تدعها تتوقّف. والآن قد حان وقت انتظارها لأبي، ذلك أنها عندما أدارت كل شؤون البيت وحدها، وعندما بنت بنفسها حوضاً آخر وسكبت فيه نصف كمية الأسماك، وعندما اقتلعت كل الحشائش الضارة من البستان الذي تبلغ مساحته نحو خمسة هكتارات وأضرمت فيها النيران وشذّبت الأشجار، رأت أنها قد هيّأت نفسها لذلك الانتظار الطويل. حينئذٍ ارتدت ثياباً أنيقة وجلست في الإيوان وفي يدها فنجان من الشاي، حتى في نهاية الأمر يعود أبي ذات يوم في إحدى السنوات القادمة فتقول له: «لم أمت كي تأتيني، يا هوشنك!».

استغرق الانتظار وقتاً طويلاً للغاية، أطول من صبر أمي وقدرة البستان على الصمود أمام انتشار الأعشاب الضارة في أرجائه، فقد واصل ذلك البستان نموّه وازدهاره ببطء وتأنٍّ تحت وطأة تلك الأعشاب الضارة والأغصان غير المهذّبة، بينما كانت أمي تتنقّل بين المطبخ وحجرة النوم والإيوان.

خلال سنوات انتظار أمي في رازان، وبينما كان أبي نزيل سجني إيفين ودربند، ذات صباح ضبابي باكر، في يوم عادي من أيام أمي التي ظلّت فيها لسنوات لا تملك القدرة أو القوة البدنية للنهوض وحدها بأعباء البستان،

للحفاظ على البيت من هجوم الطحالب الزاحفة، والنمل، والسحالي وتنظيفه، وبينما قد اعتاد أهالي رازان الحرب، والثلج الأسود وغياب الأبناء والأمهات، ولأن أموراً من قبيل قارئ المرايا الأول وعشق عفّت الجنوني، ونار رازان المقدسة، كانت قد عفا عليها الزمن وأصبحت غير قابلة للتصديق، في ذلك الصباح أيقظ الصوت المنكر للمناشير الكهربائية سكّان المدينة، وصار يقضّ مضاجعهم على الدوام. أما الشاحنات والمقطورات التي كانت خلف تلك المناشير الكهربائية فقد سحقت الأعشاب والزهور البرية على حدٍّ سواء، ثم واصلت طريقها وقطعت دوحات الأشجار الضخمة التي كان قطرها يعادل منزلاً ومئاتٍ من الرؤى وآلافاً من القصص، ثم ما لبثت أن حملتها ونقلتها إلى المدينة. لقد تعرّضت عذرية القرية وعزلتها للاغتصاب بين عشية وضحاها، بحيث لم يفهم الناس كيف دخلوا لعبة لم يكونوا قد وضعوا قواعدها بأنفسهم. إنها لعبة المعتدي والضحية، اللعبة التي لم تكد تستغرق وقتاً طويلاً حتى حلَّ الضحايا فيها محلّ المعتدين، وصاروا هم أنفسهم ضحايا معتدين. ففي البداية تحمّل السكّان المحلّيّون لمجرّد ضمان البقاء في ظلّ التغييرات التي أحدثتها المناشير الكهربائية وما لحق بها حينئذٍ من توابع، ثم ما لبثوا أن تكيّفوا مع الوضع الجديد، لدرجة أنه لم يكد يمضي وقت طويل حتى نسوا أساطيرهم، وأحلامهم، وتاريخهم، بل واتزانهم. وسرعان ما راحوا يمسكون المناشير ويجهزون بها على غابتهم الهيركانية؛ تلك الغابة التي كان أجدادهم قد عهدوا بها إليهم. ولا تكاد تمضي ساعة من ليل أو نهار إلا ويتخللها صوت المناشير الكهربائية، والشاحنات، والمقطورات. لقد مزّقوا بمنتهى الوقاحة رؤى الغابة، وشرّدوا أرواحاً ومردة تقدّر أعمارها بآلاف السنين، ثم فتحوا قبور أجدادهم الزرادشتيين، ونهبوا بقايا متعلّقاتهم

وثرواتهم الشخصية على أنها آثار قديمة، وتداولوها سراً مع صغار رجال الاستخبارات. وفي أعماق الغابة، دهست الأحذية البلاستيكية التي قد وصلت إلى المدينة لتوّها الفراشات ذات اللون الأزرق اللامع، وتسبّبت أصوات رنين هواتفهم النقّالة في هروب الفراشات والجراد من أماكنها؛ كما هاجرت الطيور، وانتحرت اليراعات في بيوضها، ولم تخرج صراصير الحقل من شرانقها.

كانت رازان تتداعى تحت قدمي روزا العجوز وعلى مرأى من نظرها المشوّش، في الوقت الذي راح فيه سكّان القرية يعتقدون أنهم لم يشعروا بالسعادة إلى هذا الحد وسط هذه المنازل حديثة البناء، المكيّفة، المزوّدة بهواتف نقّالة، ومزهريات الأزهار البلاستيكية، والرفوف الملأى برقائق المقرمشات والفوشار وعلب المياه الغازية وحبيبات العلكة. ومع هذا فلو لم تفطن أمي في الوقت المناسب، لراح هؤلاء الانتهازيون -الذين كانوا يعتقدون أن منزلنا الذي غطّته الطحالب مرة أخرى مهجورٌ منذ سنوات- يهاجمونه بمناشيرهم الكهربائية ويجهزون على كل الأشجار في البستان وينهبونها بالكامل. ففي ذاك اليوم الذي اقتحم فيه بعض القرويين وسكّان المدن بمناشيرهم وشاحناتهم منزلنا وكسروا السلاسل الخارجية والقفل الصدئ لبوّابة البستان، ودهسوا زهور أذن الفأر والسحالي ذات اللونين الأخضر والأزرق، وفي أثناء تقدّمهم قطعوا أشجار البرقوق الأخضر المعمّرة، انتصبت أمي كالطود وأمسكت بفأسٍ قديمة، وأوصلت نفسها إليهم وصفعت أحدهم بقوة، ثم قالت: «إن كنت تملك الشجاعة، فتقدّم خطوة أخرى حتى أكسر ساقك!».

داهم الخوف والفزع سكّان القرية الذين كانوا بزعامة عيسى، برؤية امرأة عجوز ذات شعر أشيب طويل أشعث إذ لطالما اعتقدوا أن أصحاب هذا

المنزل المهجور قد ماتوا أو رحلوا؛ لذلك نأوا بأنفسهم بعيداً عن المكان ركضاً، لأنهم اعتقدوا أن الأرواح تحمي هذا المنزل وهذه الأراضي. كان عيسى وحده من لا يزال واقفاً في مكانه، فتقدّم خطوة إلى الأمام وتجرأ على أن يسألها بلهجته المحلّيّة قائلاً: «سيّدتي، هل تعرفين السيّدة بيتا؟»، أما أمي التي لم تكن قد رأت من ذي قبل الوجه المسفوع من الشمس لهذا الرجل الذي يبدو في منتصف العمر، فما لبثت أن استدارت وابتعدت دون أن تجيبه بشيء؛ إلا أن عيسى تعقّبها، وبينما كان صوته ضائعاً بين صوتَي خشخشة تنورة أمي الطويلة ووطأة قدميها على العشب، قال: «أخبريني أرجوك؛ يجب أن أراها».

أمي التي اعتقدت أنها قد حدّت من شرّ هؤلاء بصفعة واحدة، كانت مخطئةً للغاية، إذ لم تكن تعلم أن تلك هي بداية الأمر وحسب. فالأطفال الذين كانوا منذ زمن غير بعيد ينظرون باحترام إلى هذه العائلة التي تسببت في إعادة بناء منازلهم وحقولهم وبدء حياتهم من جديد بعد مئة وسبعة وسبعين يوماً من الثلج الأسود، قد صاروا الآن شباباً وكهولاً منفلتين مُطلَقي العنان، إذ سمحت لهم القوانين الدخيلة على مدينتهم بممارسة التعدي بكلّ أشكاله على ممتلكات الغير. ومع هذه القوانين التي تباطأت للغاية وبواسطة حسين الذي كان قد دخل رازان هذه المرة بالمنشار الكهربائي، تعلّم الأهالي كيف يتمكّنون من تسمية سكّان المدن الأثرياء بـ«الطواغيت» و«الموالين للملك» ونهب أموالهم. لذلك ومع انتشار خبر وجود أمي في المنزل الكبير باتت تتعرّض للمتاعب والمضايقات.

كان الأوباش الصغار، يحومون حول المنزل ليلاً، ويلقون الحجارة على الجملون المصنوع من الصفيح، ولا يتوقّفون عن كسر زجاج النوافذ، وإلقاء الأشعار الجنسية الفاضحة. وذات مرة أتى في منتصف الليل خمسة

أشخاص من أشدّهم سوءاً، إلى الإيوان، وطلبوا من العجوز أن تفتح لهم الباب وتمارس معهم الرذيلة، فاستشاطت أمي غضباً من هذا الوضع، ولأول مرة في حياتها، التمست من أرواح البستان الزرادشتية وأرواح أسلافها أن تنقذها. وبعد قليل أمست أمي التي لم تكن في الواقع تعلّق آمالاً عريضة على تعاون الأرواح معها في هذا الأمر، تذرف دموعها فرحاً تزامناً مع رؤيتهم حولها. وقبل أي شيء، احتضنت أمها التي لم تكن تراها حتى في أحلامها، ثم من بعد ذلك همّت برفقة والدها، وجدّتها، وجدّها، ورفقتي أنا وسائر الأرواح الزرادشتية بفتح باب الغرفة الزجاجي تدريجياً، ثم اجتمعنا جميعاً في الإيوان. وبمجرّد أن رآنا هؤلاء الرجال الأوغاد، تسمّروا في أماكنهم، حتى إن بعضهم بلّل سرواله من شدة الخوف. ثم ابتعدوا عن المكان مفزوعين وهم يصرخون ويتهاوون أرضاً، وأشاعوا في اليوم التالي بين أهالي رازان أن ثمة أرواحاً تعيش داخل هذا المنزل. في الواقع إن الأرواح لم تنقذ في تلك الليلة المنزل والبستان من اعتداءات ونهب سكّان رازان -الذين كانوا قد صاروا بفضل الشعارات الإسلامية المطالبة بالمساواة أوغاداً طلقاء لا كابح لهم- فحسب، بل إنها قد منحت أمي إحدى أفضل وأسعد ليالي حياتها أيضاً. وبعد أن غادر هؤلاء الرجال الأوغاد، أدارت الأرواح كؤوس الخمر، وقدّمت أطيب الأطعمة واللحوم المشوية، ثم شربت في نخب بعضها بعضاً، ومع أنغام أسطوانة قديمة للمطربة قمر، التي وجدتها أمي مختبئة خلف إحدى الخزانات، رقصت وضحكت وتسامرت حتى الصباح.

أما أمي التي يعلم الله وحده كم كان عمرها حينذاك، فلم تعد تشعر بالوحدة بعد تلك الليلة، فقامت بظهر منتصب وشمّرت عن ساعديها، وصاحت عالياً في السراخس والفطريات والأعشاب التي انبثقت من بين

شقوق القيشاني وحبيبات الفسيفساء في البيت، وأمرتها جميعاً بالتراجع، ثم قضت على النمل والسحالي؛ كان واضحاً أنها تسعى بكلّ طريقة ممكنة أن تبقى على قيد الحياة، حتى مجيء والدي. ومع هذا وعلى الرغم من أنها دائماً ما كانت تتمكّن من استعادة ذاكرتها في الوقت المناسب، إلا أنها راحت تتصرّف بين الفينة والأخرى كما لو أنها لا تتذكّرني أصلاً. ومع أن هذا الوضع لم يكن مقبولاً بالنسبة لي، لكنّي قطعت على نفسي عهداً أن أحميها ما دمت حيّةً من الهجوم الشرس للسراخس الزاحفة، والبرودة، والسحالي، والبشر على حدٍّ سواء.

ومع هذا فإنني أعتقد أن الذي أنقذها من حصار الذكريات والندم، والصوت التصاعدي لحفيف أوراق النباتات، ونقيق ضفادع الأشجار التي كانت أقدامها اللزجة تلتصق بشظايا الزجاج، كان عيسى. فغداة ذاك اليوم الذي هاجمت المناشير الكهربائية فيه البستان بمنتهى الوقاحة، هبّت أمي من رقادها فزعةً على صوت المنجل الذي كان يقطع الأعشاب الطويلة الضارة بحركات ثابتة ومتأنية، أملاً في العثور على أثر لتلك الدوائر المحترقة منذ سنوات عديدة. ما إن رأت أمي عيسى، حتى همّت بطرده من البستان بعصاها، ولكن الرجل بادر قبلها قائلاً إنه كان بستانياً يعمل في هذا البستان قبل سنوات مضت، وهو الآن مستعد لمساعدتها دون أجر ولا مقابل. وهكذا مكث عيسى لأشهر طوالٍ، وأمسى كلما تأسّف وتحسّر واستعاد الذكريات الماضية بينه وبين بيتا، يجتزّ الأعشاب الضارة بمنجله في البستان رويداً رويداً كحركة تأملية، عساه يجد في مكان ما تحت أكوام الأشواك والعشب حجراً محترقاً كتذكار على تلك السنين، ويأخذه معه.

وقد اعتادت أمي وجوده حتى إنها أحياناً كانت تعدّ من أجله الشاي وتحضر له الطعام، بيد أنها لم تتحدّث إليه قط، وتركت سؤاله المعتاد بلا

جواب. لم تجبه لأنها هي ذاتها لم تكن تعرف، كما أن غرورها قد وصل لدرجة أنها لم تحاول أن تسألني: أين بيتا حقاً؟

باتت أمي الآن تجلس على الشرفة كالمعتاد، وتترك ذباب الملل اليومي يمر عبر ثنايا جلدها المتغضّن الممتلئ بالتجاعيد، ولكن ليس إلى الحد الذي يُلحق بها الأذى. وكانت تمسك برزمة من الوريقات، وتتفحّص الكتابات المنقوشة عليها بتأنٍّ شديد. بالنسبة لبعض ما جاء فيها، فقد كانت لم تجد مكاناً بعد: للحب، والرؤى، والقبلات، والحنين، والذكريات، والأحزان، والوحدة، والخوف، والفرار، والغدر، والندم، ومطارحة الغرام، والأمل، والاضطراب، واليأس، والموت، والربّ.

كانت أمي قد وضعت لكلّ شيء في المنزل اسماً بما تبقّى لها من ذاكرة، إذ إنها ألصقت شريطاً ورقياً على كل شيء: المزهرية، الطاولة، الكتاب، الثلّاجة، اللوحة، الورق. ولقد ظلَّ ذهنها مشغولاً لبضعة أيام على أي شيء يجب أن تُلصق الورقة كي لا تنسى كلمة «حب». وقد تملّكها الضحك من فكرة أن تلصق على فراشها ورقة مطبوعة عليها كلمة: حب؛ اعتقدت بأنه ليس هنالك شيء أكثر حماقة من هذا. بعد ذلك وللمرة الأولى ارتابت قليلاً في ترتيب كلمات ذهنها، إذ راحت الكلمات تجول في ذهنها من موضع إلى آخر لتُكوّن منها جملة مفيدة. ربما كان الأصح أنها كانت تعتقد أن العبارة على هذا النحو: «هذه الحماقة ليس هنالك شيء أكثر من!». نظرت مرة أخرى إلى رزمة الأوراق في يديها. على سبيل المثال: «الحنين»، على أي شيء يجب أن تلتصق ورقة الحنين؟ ولكن لم تكد تمضي بضع ثوانٍ حتى فهمت بشكل أو بآخر أن مشكلتها ليست في حفظ الأسماء وتذكّرها فحسب، بل إن ترتيب الكلمات التي كانت قد حُفظت في الذاكرة بات هو الآخر مشوّشاً. فكّرت إن عاد هوشنك، كيف

يجب أن تعبّر عن حنينها إليه؟ هل يجب أن تقول: «اشتقت إليك؟ أم إليك اشتقت؟»، أم ربما كان كافياً فقط أن تقول: «اشتقت». وبينما كانت تعبث بالأوراق في يديها، أصبح الإدراك الفلسفي للكلمات لديها هو الآخر محلّاً للشكّ، وراحت تفكّر في قرارة نفسها: «يا لهذه القواعد اللغوية غير المجدية التي كنت مشغولة بها طوال تلك السنين!»، ومع ذلك فعندما حاولت أن تعبّر بالكلام عن الفكرة ذاتها، استغربت عندما سمعت نفسها تهذي قائلة: «كنت غير المجدية باللغة مشغولة في قواعد سنوات».

فزّت أمي من مكانها، ودخلت المنزل وعادت بإبرة وخيط، ثم جلست مرة أخرى على كرسيّها المعتاد؛ جالت المكان ببصرها، واطمأنت إلى أنني لست على مقربة منها. وبهدوء وتروٍّ تامّين، أخذت تخيط الأوراق المتبقية واحدة تلو الأخرى بثوبها الأسود الطويل. وحالما فرغت من مهمّتها، سحبت نَفَساً عميقاً وتركت شمس الصيف الحامية، تبخّر البقية الباقية من ذاكرتها، وتبعثرها في الهواء. وقد خاطت تلك الأوراق واحدتها مع الأخرى فوق قلبها: الحب، الحنين، مطارحة الغرام، الحزن، الربّ، وأخيراً الأمل.

ومع هذا، كان ذلك اليوم المشمس اللطيف، يعبق بأريج زهور الفل والنسرين والربيعيات الوحشية، وبينما كانت أمي لا تزال تحت وهج أشعة الشمس الحارة تعبث في ذهنها بالكلمات في أوج هجوم النوم واليقظة، الوعي، وفقدانه، تاركةً تلك الوساوس التي تمخضت عن تلك الكلمات تدور في رأسها، لم تكن تدري أنه في غضون دقائق سوف يظهر أبي أمامها هرماً مرتجفاً لاهثاً.

# الفصل السابع عشر

صاح أحد الرجال وكان يقف بعيداً وهو يسجّل مقطع ڤيديو: «هيا ضاجِعها! هذا رائع جداً. سأرسله للجميع عبر البلوتوث».

توقّف الشاب عن محاولة تقبيل حورية البحر المسكينة بيتا؛ وتقدّم ثلاثة رجال آخرين لمساعدته، ولووا يدي بيتا بإحكام ورفعوهما حتى يتمكّن الشاب من إنزال سحاب سرواله بسهولة. فأخرج قضيبه الذي كان قد انتصب بهذه السرعة، بيد واحدة، وبالأخرى كان يبحث عن مهبل بيتا وسط حراشف فضية كانت تتلألأ وكأن القمر في ليلة الرابع عشر. ولكن مهما تحسّس وغرس إصبعه في الحراشف لم يجد شيئاً؛ وبعد فضول وانزعاج جلس على صدر بيتا وبدأ في التمعّن وتحسّس جسمها. وفي النهاية انتفض من مكانه وصاح: «ولكن هذه ليس لديها ثقب أصلاً!».

منذ ساعتين التفّ حولها سكّان المنطقة وراحوا يصيحون: «اقتل حورية البحر! اقتلها!».

كانت بيتا، حورية البحر التي نضجت وصارت أكثر جمالاً يوماً بعد يوم طوال هذه السنوات، قد غطّت صدرها العاري بيديها وشعرها الطويل وانكفأت على نفسها، وراحت تنظر إلى عيونهم الجشعة والحيوانية برعب

وترتجف. وقد أحاط الرجال بها تماماً ولم يعد لديها أيّ مفرّ؛ وجّه أحدهم وهو يرتدي ملابس الحرس الثوري وله لحية وشارب سوداوان طويلان، سلاحه تجاهها ناظراً إليها في عبوس تام.

كان صائد الحورية المسنّ الذي ثبّت بخطّافه دودة، يدليها فوق رأس بيتا ويضحك بأسنان مسوّسة ويقول: «تناوليها!»، ويجعل الطُّعم والخطّاف يلامسان فم بيتا ويضحك. أبعدت بيتا وجهها مشمئزّة، وراحت تنظر إلى البحر من بين الأجساد المتعرّقة للمهاجمين من بائعي البرتقال، والصيّادين وبائعي الأرز. كم كان البحر قريباً منها؛ قريباً لدرجة أنه كان بمقدورها القفز وثبة واحدة لتنهي هذا الكابوس وتتعهّد لنفسها بألّا تطأ قدمها البرّ مرة أخرى على الإطلاق، وألّا تبذل أيسر الجهد لرؤيتنا مجدداً. آخ، ما أسوأ ما قد صار الوضع! إذ تابعت اليوم الحلم الذي قد رأته البارحة ووصل بها الحال إلى هنا. لم يكن ثمة أثر لنا في ذاكرتها التي تشبه ذاكرة السمكة إلا أن حلم البارحة الملعون هذا، جعلها تتذكّر كل شيء فجأة، وجاءت إلى الشاطئ المعتاد لترى أحدنا بعد كل هذه السنوات.

علا الصياح مجدّداً؛ وها قد التفّ حولها أناسٌ أكثر. كان الرجال يركنون جرّاراتهم، ودرّاجاتهم النارية وشاحناتهم الخاصة بحمل الحمضيات والسمك والأرز في كلا الاتجاهين، ويأتون مهرولين من أجل الفرجة. كما أن أولئك الذين وقفوا صامتين، أولئك الذين ربما لم يكونوا مؤيّدين بشدة لقتلها، أخرجوا هواتفهم من جيوبهم وشرعوا بأيديهم الخشنة من كثرة أعمالهم اليدوية، بتسجيل الڤيديوهات والتقاط الصور. عادت بعض النساء اللواتي كنّ يقفن بعيداً ويراقبن الوضع بفضول، إلى منازلهن سريعاً، لأن الرجال قد قالوا لهن: «إن الأمر خاص بالرجال». بينما كان الآخرون يهتفون في نبرة واحد: «اقتلها! اقتلها! إنها علامة الساعة». وفي خضم

الصخب كان هناك بضعة أشخاص يتجادلون، وقد كان الأول يقول: «لماذا تريدون قتلها؟ ما الذي اقترفته المسكينة؟!».

- ألا ترى أنها عارية؟! يجب قتلها حتى تكون عبرة للأخريات. فإني أخشى أن تودّ بعضهن المجيء هنا أيضاً!

سأل المعارض قائلاً: «أي أخريات؟».

- بقيّتها.. الكائنات الأسطورية!

أردف المعارض: «حقاً.. أيّ أسطورةٍ.. ألا ترى؟!».

استأنف الأول: «إذاً أين كانت حتى الآن؟ رجاء قلْ على نحوٍ واضح إن المردة والجان والحوريات كائنات حقيقية أيضاً».

أصرّ المعارض ثانية: «ولكنها لم تؤذِ أحداً. يجب أن نتحدّث معها».

ثم وهو يسجّل ڤيديو بالهاتف، نحّى الآخرين واقترب من الحورية بيتا المذعورة والمتوتّرة. وجثا بجوارها وسألها: «ما الذي تريدينه هنا؟».

أَنَّتْ بيتا التي رأت الشفقة في عينيه، منتحبة: «جئتُ لرؤية أبي وأمي فقط؛ هذا فحسب. ولو تركتموني وشأني فسوف أقسم على الرحيل وعدم العودة مطلقاً».

لم يفهم الرجال شيئاً؛ مع أنها كانت تفهم حديث البشر بسهولة، كان صوتها شبيهاً بأنين وصفير الدلافين بالنسبة لأولئك الرجال. ضحك أحدهم وقال: «يا له من صوت مضحك!»، بينما لم يفهم الشاب المعارض لقتلها شيئاً، ولكنه تظاهر أنه يفهم في سبيل التضامن معها، لذلك استأنف: «هل سيأتي أحد آخر؟ أعني.. من الكائنات الأسطورية؟».

أردفت بيتا مندهشة: «الكائنات الأسطورية؟ كيف لي أن أعلم؟ جئت فقط لأمرّ على أسرتي. بالله عليكم ارحموني. دعوني أعود إلى المنزل!».

لم يسمع أحدٌ منها سوى صوت يشبه صوت الدلفين، ومع ذلك سأل الرجل مجدداً: «ما أسماؤهم؟ أخبريني كي ندعك وشأنك!».

صاحت بيتا الضجرة والباكية، وهي تخدش وجهها بأظفارها: «ما أدراني، إنني لا أعرف كائنات أخرى سوى الأسماك وحوريات البحر. لأننا نعيش في مكان بعيد جداً أيضاً. في تلك المحيطات».

وأشارت بيدها إلى أفق بحر قزوين البعيد.

نظر الشاب إلى ذلك الاتجاه وقال: «وكأنها تقول إن الباقين سيأتون من تلك الناحية من المياه».

همهم الرجال برعب؛ ولكن مع هذا التفت الشاب إليهم واستأنف كلامه: «دعوها تذهب. فهي لم تفعل شيئاً».

فردَّ أحدهم قائلاً: «إلى أين؟ كي تخبر الآخرين حتى يأتوا أيضاً؟».

وقال شخص آخر: «تخيّل فقط أن تستيقظ من النوم ذات يوم وترى الجان والحوريات والأرواح يأتون من داخل البحر والغابات صوبنا. ليبعدهم الله عنا!».

فعلّق رجل آخر أيضاً: «كم عمّت الفوضى! ليحفظنا الله!».

كانت بيتا تنظر إلى أفواه الرجال متحيّرة؛ وراحت تأمل في خلاصها للحظة وتفقد أملها في لحظة أخرى. كانت قذرة وملطّخة بالدماء وباكية ومتعبة؛ وكل قطعة في جسدها تؤلمها. ودّتْ لو يدعونها وشأنها لتبكي على حالها حتى الموت. كم كانت حمقاء! فقد ظنّت أن بإمكانها المجيء إلى الشاطئ في يوم مشرق وأن تنتظرنا.

وفي أثناء ما كان الرجال يتحدّثون مندمجين، رأت من بين أقدامهم المنتعلة الجزمات زاوية صغيرة من البحر. كانت بحاجة إلى وثبة واحدة

فقط، فوثبتْ، وتدحرجت على الرمال حتى تدفع نفسها إلى البحر من بين الأحذية الطويلة الرقبة الموحلة. إلا أن الرجال انتبهوا على الفور وأمسكوا بيديها وذيلها وكتفيها وألقوها مجدداً في الوسط.

دفع الرجالُ الرجلَ الذي كان يعارض إعدامها إلى الخلف، واقتربوا من الحورية أكثر. كانت عدسات هواتفهم مركّزة على نهدي بيتا الصلبين والبضّين، وعلى مؤخّرتها وخاصرتها وذيلها المتناسق الفاتن. خاطب شابٌّ شخصاً يقف بجانبه وهو يسجّل ڤيديو: «كم هي رائعة! كم هي جميلة!»، فردَّ الآخر: «انظر إلى شعرها، انظر إلى مؤخرتها المدوّرة. إنها تُسيل اللعاب!».

ضيّق عدة أشخاص الدائرة، وفي النهاية اقترب شخصٌ ما كثيراً لدرجة أنه نجح في لمس كتف بيتا. تبلّلت يده وصارت لزجة. وضحك مقهقهاً وقال: «رائع جداً! إنها سمكة بالفعل!»، واستنشق رائحة يديه وأردف قائلاً: «حتى إن رائحة السمك تفوح منها، رائحة السمك النافق!».

ضحك الباقون مقهقهين واقتربوا بجرأة أكبر. وأخذوا يتحسّسون شعرها، وكتفيها، ومؤخرتها، وثدييها، ويعصرون أجزاء من جسمها بأيديهم ويضحكون مقهقهين بأسنانهم وشواربهم الصفراء بسبب التدخين. لم يعد يعلو صوت «اقتل حورية البحر»، وشيئاً فشيئاً صار اللمس بالأيدي أكثر شهوانية وعنفاً. كانت بيتا تصرخ وتذرف الدموع وتزيح أيديهم الشهوانية بيديها. وفي النهاية أمسك أحد الشباب بمعصميها وفتحهما بعنف في كلتا الجهتين وطرحها على الأرض وارتمى عليها.

صرخت بيتا؛ وراحت تئنّ وترجو وتطلب العون، إلا أن صوتها لم يكن مفهوماً بالنسبة لأولئك الرجال الذين قهقهوا ضاحكين، وقالوا: «صوتها يشبه صوت الدلافين. كم هذا رائع! هل ستسجّل ڤيديو؟ هيا سجّل!».

ووضع الرجل الذي كان قد استلقى على بيتا، ثدييها في فمه وراح يرضعهما بنهم ووحشية ثم عضّهما، إلا أنه ما لبث حتى بصق لعابه مشمئزاً وقال: «عوووق... تفوح منها رائحة المياه الآسنة الكريهة والطحالب!». ولكن مع ذلك لم يدعها؛ وإنما حكَّ وجهه وصدره بثديَي بيتا الصلبين والعاريين، وضغط بأجزاء بدنه السفلية عليها. كان فمه يتبع فمها ليقبّله ويمصّ شفتيها؛ إلا أن بيتا كانت تحيد برأسها يميناً ويساراً بجهد متواصل وتصرخ وتترجّى.

عندما نهض الرجل عنها يائساً وغاضباً، قال: «كما أنه ليس لديها ثقب!»، فتساءل الرجال الآخرون مندهشين: «أيعقل هذا؟ إذاً ماذا يفعلون لينجبوا؟»، فقال آخر: «ابحث مرة أخرى. ستعثر عليه!».

هبَّ لمساعدته رجلان أو ثلاثة، وقلبوا بيتا بعنف في كل الاتجاهات، وقد كان وجهها وشعرها الأسود المسترسل الرائع قد تلوّثا بالرمال والأوحال، وتحسّسوا أسفل مؤخرتها وغرسوا أصابعهم بعنف في لحمها السمكي الرقيق، ولكنهم لم يعثروا على أيّ ثقب. وبسبب ضغط الأصابع والأظافر، جُرح جسدها، وسال الدم منه. صرخت، وترجّتهم. نهض الشاب عنها غاضباً وبينما كان يغلق سحاب سرواله، ركلها بقوة في ضلعها وقال: «إذاً في ماذا يفلحن؟!»، ثم التفت إلى عنصر الحرس الثوري الممسك بالسلاح، وصرخ: «ماذا تنتظر بعد؟ هيا اقتلها!».

وراح الشاب المعارض لقتلها يهزّ رأسه متحسّراً وهو يسجّل الڤيديو. كان يودُّ أن يمنعهم أو أن يقول شيئاً على الأقل، ولكن عندما نظر إلى وجوه أهالي المنطقة واحداً تلو الآخر، أدرك أنه ليس لديه أدنى فرصة. كان يعرف الجميع وهم كذلك يعرفونه؛ وقد كان مديناً للبعض منهم، ويعمل لدى أحدهم، وينوي الذهاب لخطبة ابنة أحدهم أيضاً. كان ذلك عمّه والآخر

زوج خالته، إذ كان الجميع على صلة قرابة في ما بينهم أصلاً في ذلك الحيّ الصغير حيث يبدو أن الناس قد عاشوا معاً فيه لآلاف السنين. وسواء أكانت صلة القرابة قريبة أم بعيدة، كانت الأسرار تتناقل من فمٍ إلى آخر، وتمسي همسة أحدهم هي الثرثرة السائدة في محفل آخر. وعندما راح يتمعّن بدقة من خلال عدسة كاميرا هاتفه في وجوه كلّ واحد من هؤلاء القوم وصلة القرابة سواء من قريب أو من بعيد، أدرك أنه على الرغم من جميع اختلافاتهم الظاهرية، وشجاراتهم وتحزّبهم واغتيابهم وأنانيتهم وتكبّرهم، إلا أنهم مثل روح واحدة في عدة أجساد. جال بخاطره، وأدار الكاميرا تجاه نفسه. من يكون هو أصلاً؟ أحد أبنائهم، والوالد المستقبلي لبعضهم الآخر. انقبض قلبه وارتعشت يده من تصوّر هذه الأشياء، ولكنه لم يتوقّف عن تسجيل الڤيديو.

أدار الكاميرا حتى تركّزت على وجه عنصر الحرس الثوري، كبّر حجم الصورة. كان الجندي ينظر بقليل من التردّد إلى وجه كلّ رجلٍ منهم. تذكّر أن عنصر الحرس الثوري هذا، هو مدرّس مادة الدين في مرحلة الثانوية وجار زوج عمّته. لم يكن أحد يقول شيئاً إلا أن بريق الرضا والموافقة كان يلمع في أعين الجميع؛ كما أن البعض منهم قد علت البسمات على شفاههم. وفي النهاية صاح واحدٌ من بينهم: «هيّا، ما الذي يوقفك؟!»، وكأنّ أهالي الحيّ عادوا إلى وعيهم مرة أخرى، صاحوا في آن واحد: «هيا، اقتلها! اقتل حورية البحر!».

وبعد بضع ثوانٍ دوّى صوت رصاصة، بالضبط حين فُتح بصيص الأمل في قلب الشاب. فداهمه إحساس فجائي وعبثي، إذ اعتقد أنه ربما يأتي العون من الغيب وينقذ الحورية من تلك المحنة، ولكن بعد بضع ثوانٍ، وعلى نحوٍ غير قابل للتصديق وأمام أعين العشرات شوهدت حورية

البحر الجميلة بيتا، وهي تُقتل بمسدس كولت عيار 45. ابتسم عنصر الحرس الثوري الذي فعل هذا بسمة الانتصار، ونظر إلى وجوه الرجال فرداً فرداً، وحشر المسدس الذي كان لا يزال يخرج الدخان من فوهته، في غمده المعلّق بخصره. تناثر دم بيتا الأحمر على أيدي الصيّادين، وبائعي البرتقال، وبائعي الأرز، وأقدامهم. وهزَّ أولئك الذين كانوا يسجّلون مقاطع ڤيديو رؤوسهم آسفين، وأنهوا التصوير وذهبوا هامسين، وضغطوا على دوّاسات وقود سياراتهم ودرّاجاتهم النارية، وابتعدوا سريعاً ليسبقوا الآخرين في منافسة البلوتوث وتحميل الڤيديو على الإنستغرام، واليوتيوب، والفيسبوك.

أخرج اثنان أو ثلاثة ممن كانوا قد بقوا، المجارف من سياراتهم، وحفروا في المكان ذاته داخل الرمال والطين، ودفعوا بيتا بأقدامهم داخل الحفرة وهم يطلقون السباب: «يا للفاجرة! لم يكن عبثاً أنهم قتلوها! من المؤكّد أنها ارتكبت شيئاً ما!». أغلق بعض الأشخاص الذين لم يتوقّفوا عن التصوير حتى آخر اللحظات فضلاً عن الشاب الذي كان معارضاً لقتلها، هواتفهم، بعدما سجّلوا مقاطع دقيقة عن الصدر المثقوب وتدفّق دمائها على الرمال حيث كانت تنساب إلى البحر وتمتزج بمياه بحر قزوين المالحة، وأومؤوا برؤوسهم حزانى ثم رحلوا.

ردم الباقون القبرَ بالرمال والصدف والمحار على نحو وكأنه لم تُدفن جثة هناك. ابتعد آخر المارة من الشاطئ مع غروب الشمس حتى يتمكّنوا من حكاية الرواية المثيرة التي حدثت، لزوجاتهم، عند وصولهم إلى منازلهم، غافلين عن أن النساء قد علمن بالأمر منذ بضع ساعات مضت عن طريق الأطفال الذين شاهدوا الواقعة.

وكانت النساء قد اجتمعن وتحدّثن في ما بينهن حول هذه الفاجعة،

واغتممن معاً لساعات. ووصفن الرجال بالسوء والضلال، وأطلقن لعناتهن على أزواجهن وأشقائهن وآبائهن؛ ولكن مع بدء حلول الليل تذكّرت كل واحدة منهن الطعام على موقِدها. وتذكّرن أن الفروض الليلية لأطفالهن لم تُنجز بعد، وتذكّرن أنه إنْ لم يكُنّ في المنزل فسيغضب أزواجهن وسيتشاجرون معهن. وتذكّرن أن عليهن إعداد مائدة الطعام قبل مجيء أزواجهن، وأن يتظاهرن بأنهن لا يعرفن شيئاً عما حدث، ليمنحن فرصةً للرجال بالحديث إليهن، ويشاركونهنّ همومهم، ليشعر الطرفان مجدداً بالألفة والتضامن اللذين كانا قد اندثرا منذ مدة بينهم، ثم يحتسون الشاي الساخن معاً ويأوون إلى الفراش.

# الفصل الثامن عشر

عاد أبي إلى رازان، ولكن ليس في ذلك الوقت الذي كنت قد طلبته منه؛ إذ كان ينتظر مجيء العمدة بشحمه ولحمه برفقة الجرافات كي يهدّدهم ويغريهم للمرة الأخيرة. وعندما لاحظ العمدة أن لا شيء قد تغيّر، نفد صبره فسأل جدّي: «لمَ أنت مستعدّ لتدمير هذا المنزل وألّا أملكه أنا؟»، فأجابه الجد ببساطة: «لأنك أنت الدمار نفسه». فأصدر العمدة غاضباً الأمر بالهدم، إلا أن عمّال البلدية الذين كانوا جميعاً من عصابته ويعرفون عملهم جيداً، بدؤوا أمام أعينهم المندهشة، بنهب المنزل حتى أصغر شيء موجود، وألقوا المحتويات في سياراتهم وشاحناتهم الشخصية وحملوها. جلس أبي، وجدّي وجدّتي ووالد جدّي الذين تصل أعمارهم مجتمعة إلى بضع مئات السنين، على مقاعدهم في الإيوان، وشاهدوا سرقة ممتلكاتهم الأثرية قطعة تلو الأخرى: السجاد والبُسط، واللوحات والتماثيل، والكتب والثُريات والأواني الخزفية المزخرفة بالزهور والمصابيح القديمة والأطباق الكريستالية والنحاسية والفخار، وقد كانت لديهم آلاف الذكريات مع كل واحدة منها. ورأوا كيف أن العمّال رموا الكتب تحت الأقدام، وحطّموا بعضاً من المزهريات والإطارات والأطباق الأثرية الثمينة بلا مبالاة في أثناء

حملها؛ ورأوا كيف أنهم داسوا على السجاد، ومن أجل تحريك سياراتهم حطّموا تحت عجلاتها عريشة زهور النسرين التي كانت تزهر منذ مئتي سنة في هذه الحديقة. رأوا كل شيء ولزموا الصمت. كان الخراب في كلّ مكان ولم يعد في أعمارهم ما يكفي لأيّ تغيير. وما إن خلا المنزل من الأثاث كله، حتى انهال العمّال على الأبواب والنوافذ الأثرية المنحوتة واقتلعوها من أماكنها. ثم أجبر آخرُ عامل وبكلّ وقاحة أبي والآخرين على النهوض من على مقاعدهم وأخذ المقاعد معه أيضاً. ولكنهم لم يسمحوا لهم بسرقة شيء واحد فقط؛ ألا وهو صندوقٌ أثريّ تبقّى من أيام جدّنا الكبير، أي زكريا الرازي. وبينما كان أبي، وجدي وجدتي ووالد جدي قد اتخذوا قرارهم مسبقاً، احتضنوا بعضهم البعض بقوة وأخذوا يقبّل كلّ منهم الآخر، وذهب جدي وجدتي ووالد جدي إلى المجلس المخصص للعائلة في الإيوان أمام أعين العمدة والعمّال المندهشة، وبينما كانوا يشبكون أيديهم المجعّدة معاً، جلسوا على الأرضية الأسمنتية.

لم ينتظر أبي ليرى كيف ستهدم الجرافات المنزل على رأس والده ووالدته وجده وتدفنهم في منزلهم وهم على قيد الحياة؛ إذ وضع الصندوق الأثري في سيارته وانخرط في البكاء حتى وصوله إلى رازان.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

# الفصل التاسع عشر

وعلى هذا النحو اتضح أن تنبؤات جدنا الأكبر زكريا الرازي كانت خاطئة، ولم تعش بيتا طويلاً كي تحافظ على الصندوق والكتب القديمة؛ وإلا فكم مرة يطلقون رصاصة الرحمة على المرء؟ لقد أطلقت هذه الحياة أربع رصاصات رحمة على أبي؛ كما أن موت بيتا بتلك الطريقة الوحشية كان يعدّ رصاصة الرحمة أيضاً. فبموتها كان قد حان موعد رحيل أمي وأبي. أرشدتهما إلى مكان دفن بيتا، وأخرجنا الجثمان من بين الرمال ليلاً وأحضرناها إلى الحديقة، وحفرنا قبراً لها وسط الدموع والآهات تحت شجرة البلّوط القديمة. وعندما حفرنا قبر بيتا، ووضعنا جسدها الجميل واللطيف للغاية في القبر مع ذيلها المثير للدهشة وجدائلها الطويلة والحراشف التي لا تزال تلمع تحت الومضات الأولى لنور الصباح، وضعنا حذاء الباليه الخاص بها بين يديها، كما وضعنا صندوق الإرث ذي الألف ومئة عام، الذي كان يحتوي على كتابين لجدّنا الأكبر زكريا الرازي، وهما «نقض الأديان» و«مخارق الرسل» بجانبها. ثم ردمنا القبر وانتظرنا حتى يهطل الثلج.

هطل الثلج، وبعد عدة لحظات أظهر سهراب وبيتا نفسيهما لنا وهما

مغطّيان بالثلوج البيضاء اللامعة؛ تبادلنا الاحتضان في ما بيننا وابتسمنا. وقفنا في المكان نفسه وشاهدنا كيف غطّى الجليد سطح البستان بأكمله، وكذلك القبر، والذكريات والمنازل؛ وقفنا وشاهدنا كيف غطّت الثلوج الأحداث.

الآن وبعد سنوات، أصبحنا نحن الخمسة معاً في النهاية. أمسك كلٌّ منّا بيدٍ من يمينه ويدٍ من يساره ووقفنا في المكان ذاته، وللحظاتٍ رأينا قصة البستان ذي الهكتارات الخمسة لعدّة قرون مقبلة بأعين مفتوحة: رأينا البيت مُغطّى بالسرخس والأشجار والنباتات وأصبح مُدمّراً، وبدأت أسماك المسبح بالتهام بعضها بعضاً بعد أن كثُر عددها. وطوال القرون التالية لم يعد أحد يبني عرزالاً على أكبر شجرة بلّوط في البستان، ولم يعد أيّ شخص يصل إلى الإشراق على شجرة البرقوق الأخضر. ولم يعد أيّ شخصٍ متحمّساً ولو قليلاً لرؤية بيتِ النار والعظام البالية للزرادشتيين القدماء. وعندما فتحوا قبر بيتا «حورية البحر» الحزينة بعد عدة قرون، تسارع المراسلون وكتبوا في الجرائد إنه كان لحوريات البحر وجود في فترة ما؛ ولكنهم لم يدركوا مطلقاً لِمَ وُضع الحذاء الوردي الخاص بالباليه في يديها، ولا لماذا أيضاً وُضع صندوقٌ قديم في داخله مخطوطتي كتابي زكريا الرازي.

وكان قد حان الوقت؛ فتحت هطول ندف الثلج الناعمة المستمر، وتقديراً لعمر كامل من جهود أمي وأبي ومشقّتهما الجدباء، التفّت الأشجار والنباتات والسرخسيات واللبلاب واحدتها على الأخرى وراحت بعضها تضرب سيقانها ببعضها الآخر، ثم نمَت وأخفت كل ما في البستان عن عيون الغرباء تحت سقفها الأخضر. وبعد ذلك، حينما نحن الثلاث:

الأختَين وأخانا قد أمسك كلٌّ منّا بيدَي الآخرَين، كأيام الطفولة السعيدة، شيّعنا أمنا وأبانا إلى غرفة نومهما، حيث كان من المقرر أن يموتا هناك. وعلى عكس توقّعاتنا، فقد استغرق أجلهما وقتاً أطول مما كنّا نتصوّر.

قبّلَنا والدانا بهدوءٍ وثقة، ثم استلقيا على السرير أحدهما بجانب الآخر متشابكي الأيدي وأغلق كلٌّ منهما عينيه. وقبلَ أن يخطفهما الموت، قالت والدتُنا: «سوف نراكم هناك قريباً». ولمّا مرت ساعة وما زالا لم يموتا، فتح أبي عينيه بابتسامة قائلاً: «إن الموت يتأنّى في عمله، اهتمّوا أنتم بأعمالكم الخاصة!»، ثم أُغمي عليهما شيئاً فشيئاً.

تركناهما وشأنهما وجلسنا متحلّقين في غرفة أخرى في انتظارهما. إلا أن الانتظار لم يكن سهلاً؛ إذ كنا نشعر بالقلق. كنا مضطربين وجزعين بسذاجة من فكرة الموت؛ لذلك بدأنا نستعيد ذكرياتنا، ورحنا نفكّر لو أننا ظللنا على قيد الحياة ماذا كنا نفعل، أو ماذا كنا نفعل الآن لو عشنا في زمن آخر وبلاد أخرى.

قالت بيتا إنها بالتأكيد ستكون راقصة باليه، وتتزوّج من فنان قد وقع في غرامها. وقال سهراب إنه كان سيصبح صحافياً يسافر باستمرار إلى هذه البلاد أو تلك لإعداد التقارير. وأضفت أنا قائلة إنني أرغب في أن أصبح كاتبة. ولكن مع كل تلك التخيّلات، ومن بين حديثنا وذكرياتنا وأوهامنا راحت فكرة الجزع والخوف من الموت تفرض نفسها علينا شيئاً فشيئاً مرة أخرى. ولهذا السبب انفجرت بيتا باكية على نحوٍ مفاجئ وقالت: «لم يكن أبي وأمي يستحقّان هذا؛ إذ كيف يمكن أن يتحمّلا كل ذلك العذاب والشقاء ليريا موتنا واحداً تلو الآخر؟».

ثم أشعل سهراب سيجارة وقال: «يمكن كتابة حياتهما في جملتين: أحبَّ كلٌّ منهما الآخر، وأرادا أن يصنعا حياة جميلة ويشاهدا مستقبل

أطفالهما السعداء، إلا أنهما شهدا موت أولادهما وضياعهم وعذابهم، ثم ماتا». وأنا قلت: «كم أنا سعيدة لأنه لا أحد منا قد أنجب أطفالاً؛ فهذا العالم ليس مكاناً آمناً للإنجاب».

كان قلقنا يزداد كلّ لحظة، ولم يخمد شعورنا بالحزن والحنق من مراجعة شريط ذكرياتنا الذي كانت كل ذكرى فيه أسوأ من سابقتها بكثير؛ مضى يوم، ويومان، وثلاثة أيام، ولم ينتهِ بكاؤنا وحرقة قلوبنا بعد، بدا الأمر وكأن جميع الآلام والأحزان التي كانت قد حلّت بنا قد انهارت على رؤوسنا على حين غرّة. حتى في غروب اليوم الثالث، شقّ رجل غريب طريقه بين ثنايا الأجمات والأشجار، ونباتات اللبلاب المتشابكة في البستان، بعينين قد تملّكهما الحزن، حاملاً حقيبة ثقيلة على كتفه، وأوصل نفسه إلى البيت. كان مرهقاً وقد غطّاه التراب، ومن غير أن يلقي علينا التحية، وكأنه هو صاحب المنزل، دخل إلى غرفة النوم الخاصة بأبي وأمي، ثم أمر بصوت عالٍ: «تعالوا إلى هنا!»، فذهبنا ثلاثتنا، وقال ذاك الغريب ذو العينين الحزينتين، والشعر الأبيض، والقامة المتوسطة: «لقد أحضرت لكم رسالة من والديكم، يقولان فيها إن لم تكفّوا عن البكاء والنحيب فإنهما لن يتمكّنا من الموت».

فسألته: «كيف لنا أن نعرف أنك محقّ في ما تقول؟»، عندئذٍ التفت الرجل الذي بدا في منتصف عمره بوجه هادئ نحو أبي وأمي اللذين كانا قد راحا في غيبوبة عميقة، وأمرهما قائلاً: «استيقظا!»، فنهض أبي وأمي -وكأنّ جسديهما لم يكونا تحت سيطرتهما وقد لويت رقبتاهما- وجلسا على السرير. نظر الرجل إلينا نحن الثلاثة، وعندما لمح بارقة الرضا في أعيننا، سمح لكليهما أن يناما مجدّداً في سلام.

ثم جاء معنا إلى الإيوان وأردف قائلاً: «بعد نصف ساعة وبمجرّد انتهائكم من الغضب والحزن، فإنهما سيموتان بوداعة وسلام، ويلتقيان بكم لاحقاً». ثم رحل مجهولاً دون أن يقدّم نفسه، تماماً كما جاء، إذ اختفى بين الأشجار والأجمات.

وعلى هذا المنوال، وفي عام من أعوام الله، توفّي كلٌّ من أمي وأبي في منتصف ليلة من ليالي الشتاء الباردة، والتحقا بنا حيث كنا جالسين في الفناء متحلّقين حول النار. وعند بزوغ فجر اليوم التالي ومع انطفاء آخر شرارة من النار، نهضت أمي من مكانها واتجهت في صمت نحو الغابة، فتبعناها دون أن نعلم إلى أين نحن ذاهبون. سرنا كثيراً حتى وصلنا إلى شجرة برقوق أخضر وتوقّفنا بجوارها. كانت الشجرة لا تزال ممتلئة بالبرقوق الأخضر؛ قطفنا عدداً منها وأكلناها. وكان هذا آخر طعم نتذكّره في هذه الدنيا. قلت: «إنه أمرٌ غريب أنني لم أرَ هذه الشجرة من قبل حتى الآن». قالت أمي: «هذا بسبب أن الشجرة تشبه الأشجار الأخرى»؛ ثم تسلّقتها. وتبعناها نحن الأربعة. لم تكن الشجرة كبيرة بالقدر الكافي؛ ولم يكن من المحتمل أنها تستطيع تحمّل وزننا نحن الخمسة. ولكن لم يمرّ الوقت الكثير حتى فهمنا أن الشجرة تعلو وتنمو مع كل حركة منا نحو الأعلى. وعندما تسلّقنا عدة أمتار أخرى، توقّفنا وتوقّفت الشجرة عن النمو أيضاً. ومرة أخرى واصلنا الحركة وتسلّقنا، وراحت الشجرة تعلو وتنمو أيضاً. صعدنا كثيراً حتى تجاوزنا السحاب وظهرت الكرة الأرضية من تحت أقدامنا؛ توقّفنا جميعاً للحظات وتوقّفت الشجرة عن النمو أيضاً. نظرنا إلى أسفل أقدامنا، إلى الأرض بكلّ غاباتها ومحيطاتها وجبالها وسحابها. نظرنا إلى جميع الدول بحدودها وأناسها وحبها وكراهيتها وجرائم قتلها وغاراتها. نظر كلٌّ منا إلى الآخر وفهمنا أنه كم أصبح التخلّي عنها بالنسبة

لنا سهلاً. واصلنا صعودنا حتى وصلنا إلى قمة الشجرة ونهايتها. وبما أن أمي كانت أعلى منا جميعاً، فقد نظرت إلى وجوهنا واحداً تلو الآخر، ثم ابتسمت وفجأة تمازجت مع لحاء الشجرة واختفت. وبعدها أبي وسهراب وبيتا، وفي النهاية أنا. وهذا كلّ شيء.

**النهاية**

2015 /1 /10

**پرث. أستراليا**

## شُكوفه آذر

ولدت شُكوفه آذر في خريف عام 1972 في طهران، لأبٍ شاعر وكاتب ومترجم، وأمٍّ معلّمة. درست اللغة الفارسية وآدابها، ثم درست الصحافة ونالت دبلوم الصحافة من مركز الدراسات والبحوث الإعلامية في طهران. بعد نشرها كتاباً قصصياً للأطفال في عام 2004، أصدرت مجموعتها القصصية الأولى باسم «يوم الحفرة» في طهران عام 2009.

وبسبب نشاطها السياسي وانضمامها إلى الحركة الخضراء الطلابية واحتجاجها على نتائج الانتخابات الرئاسية عام 2009، أُلقي القبض على شكوفه مرات عدّة، فاضطرّت إلى ترك البلاد واللجوء إلى أستراليا عام 2010 وقد نالت هناك شهادة فخرية في الصحافة من جامعة ديكن.

«إشراقة شجرة البرقوق الأخضر» هي روايتها الأولى، وقد رفض عشرون ناشراً نشرها. رُشِّحت الرواية لجوائز أدبية مهمة مثل «ستيلا برايز» و«جائزة الرواية» التابعة لجامعة كوينزلند الأسترالية. كما أنها وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة بوكر الدولية في عام 2020، فضلاً عن ترشيحها لجائزة القلم الأميركية في عام 2021.

## غسّان حمدان

ولد غسّان حمدان في بغداد عام 1973، ودرس علم الاجتماع في

جامعة طهران، وعمل مدرّساً للّغة الفارسية، ومترجماً وباحثاً في مؤسّساتٍ مختلفة ومعدّ برامج ثقافية تلفزيونية، كما أدار بعض المواقع الإلكترونية الثقافية. أصدر رواية باسم «البدايات: ريمورا»، فضلاً عن أربع مجموعات شعرية. كما أنه ترجم عشرات الكتب من الفارسية إلى العربية وبالعكس، من أهمها الأعمال القصصية الكاملة لصادق هدايت، الأعمال الشعرية الكاملة لسهراب سپهري، وروايات «البعثة الإسلامية إلى البلاد الإفرنجية» لصادق هدايت، «آخر رمان الدنيا» لبختيار علي، «وا حسرتا يا ملا عمر» لآصف سلطان زاده، «الأفغاني» لعارف فرمان، و«بائع الأحلام» لمحمد قاسم زاده...

كما حقّق بضعة كتب في الفلسفة والتصوّف، منها: «الرسائل الفلسفية» للملا صدر الدين الشيرازي، و«المباحثات» لابن سينا، و«القبسات» للمير داماد، و«الكاشف (الجديد في الحكمة)» لابن كمونة.

مكتبة ياسمين على تلجرام